

محمد السباعي

الأبطال

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

ملخص كتاب الأبطال

لخصه الشيخ عبد الرحمن البرقوقي

ملخص المحاضرة الأولى " شهر رجب "

البطل في صورة إله

موضوع هذا الكتاب هو الكلام عن عظماء الرجال - تاريخ عظماء الرجال هو التاريخ بخلافه ١ - فائدة ذكرى العظماء - أهم ما في الفرد أو الأمة دينها - ما هو الدين ؟ ٢ - الوثنية وآراء العلماء ٤ - في كل دين عنصر من الحق ٥ - حقيقة الوثنية وكيف ابتدأت ؟ - عظمة الكون ٨ - في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ١٠ - أكبر آيات الخالق هو الإنسان - كان الأقدمون أفهم منا لجلال هذا الكون ١٢ - معنى عبادة الأبطال ١٣ - ضلال منكرى البطولة ١٤ - عقيدة إجلال الأبطال فطرية في الإنسان - أبعد الإنسان من إجلال الأبطال هم الفرنسيون - والفرنسيون مع ذلك يقدسون فولتيرهم ١٦ - فضيلة إجلال الأبطال هي الصخرة الراسخة التي تمنع الدول من السقوط ١٧ - وثنية قدماء النرويج - جزيرة أيسلندة مقر تلك الوثنية ١٨ - أول من دوّن أخبار هذه الوثنية ١٩ - أول خواص هذه الوثنية هو الإيمان بأن القوى الكونية هي أرواح كبيرة مدهشة مقدسة - فرق ما بين نظر المتوحشين الكائنات ونظرنا إياها اليوم ٢٠ - جوهر هذه الوثنية ٢٢ - رأى وثنيي الشمال في خلق الدنيا ٢٣ - تشبيههم الحياة بشجرة

• تأثير البطل ٢٥ - تأثير أودين في سم الشمال ٢٦ - تاريخ أودين - رأى
سحرهم في أودين ٢٧ر٢٨ - كل نعت كان في الأصل سما - كيف صار
نوعاً منها ٢٩ر٣٠ - اختراع أودين حروف الهجاء وشعر ٣١ - إفراط
سم الشمال في حب أودين ٣٣ - إخلاص أمم الشمال في رثيتهم ٣٤ - فرق
بين رثيتهم في الأول وفيما بعد - عقابهم كما في الأد - الشجاعة هي
نظم أصول الشرائع ٣٥ - خرافات الاسخاندناف .

ملخص المحاضرة الثانية

البطل في صورة رسول

محمد - الإسلام

من أكبر العار القول إن محمداً كذاب - ومثل هذا القول نتيجة أجيال
الكفر وحبث القلوب ٤٩ - الرجل الكاذب لا يستطيع أن ينسى بيتاً من
الطوب فكيف يوجد ديناً - على المرء أن يسير في جميع أمره طبق قوانين
الطبيعة - محال أن يكون الرجل الكبير كاذباً ٥٠ - إخلاص الرجل الكبير ٥١ -
كلمات الرجل العظيم ضرب من لوحى - الهفوات لا تزرى يصدق الرجل
العظيم ٥٢ - من أكبر الهفوات أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات ٥٣ -
العرب وصفة جزيرة العرب - التدين - سفر أيوب كتب في بلاد العرب ٥٥ -
الحجر الأسود والكعبة - بشر زمزم ٥٦ر٥٧ - مكة ٥٨ر٥٧ - مولد محمد
(عليه السلام) ٥٩ - نشأة النبي رقيام جده وعمه بتريته وسفره الشام
والتقاؤه ببخيرا الراهب ٥٩ر٦٠ - أمية النبي ٦٠ - صدق النبي منذ فثائه -
الابتهام الصادق والكاذب ٦١ - عيشته الهادئة وقصته مع السيدة خديجة
٦٢ - إخلاص النبي وصدق نبوته وإنه كان نافذ البصيرة لا يتقيد
بالاصطلاحات - من مزايا الرجل العظيم نظره من خلال الظواهر إلى البواطن

وأنه لا يتقيد بالتقاليد والعادات ٦٣ر٦٤ - اختلاء انبى بنفسه واعتزاله الناس
شهر رمضان ٦٤ - ابتداء البعثة - حقيقة الإسلام وكلمة جاتي فيه ٦٥ر٦٦
الوحي وجبرائيل ٦٦ر٦٧ معنى كلمة محمد رسول الله - فضل السيدة خديجة
التي هي أول من آمنت به ٦٧ - الدعوة إلى الإسلام وما لاقاه النبي في ذلك
- المأدبة التي اجتمع فيها أربعون من أقرباء النبي وما أظهره على من المروءة
والنجدة وفضل على ٦٨ - استياء قريش من عمل انبى - إشارة أبى طالب
على النبي بإخفاء دعوته وعزيمة النبي - استمرار النبي في تأدية الرسالة
ووجوده الشدائد ٦٩ - تألب قريش على قتل النبي وهجرته بعد ذلك إلى
المدينة ٧٠ - الرد على الطاعنين على نشر الإسلام بالسيف ٧١ - عدل
الطبيعة ٧٢ - كان الإسلام خيراً من النصرانية في تلك الأوقات ٧٣ - إتيان
الإسلام على وثنية العرب والعقائد الذائعة في تلك الأيام ٧٤ - القرآن
وإعجازه ٧٥ - من فضائل القرآن الإخلاص - الإخلاص منشأ الفضائل
٧٦ر٧٧ - المعجزات في نظر الإسلام ٧٧ - الرد على متهمى الإسلام
بشهوانيته ٧٩ - تواضع النبي وتقشفه ٨٠ - مكرمات النبي - براءة النبي من
التصنع والرياء ٨١ - ما كان النبي بعباب - التلاعب بالحقائق من أفضع
الجرائم - من خلال الإسلام التسوية بين الناس ٨٢ - الزكاة في الإسلام -
الجنة والنار في نظر القرآن - الصيام في الإسلام ٨٣ - منزلة الإسلام في
نفوس المسلمين - تأثير الإسلام في العرب وفضله عليهم ٨٥ .

ملخص المحاضرة الثالثة

البطل في صورة شاعر

دانتي .. شاكسبير

العظيم يمكنه أن يكون عظيماً في كل فن ٨٧ - الفرق بين الشاعر والنبى
- ويل الذين لا يفقهون السر الإلهى الموجود فى الكائنات ٨٩ - فضل
الأنبياء والشعراء على الناس ٩٠ - الفرق بين الشعر الحر والكلام الحر -
حقيقة الشعر ٩٢ - لا يزال فى الناس غريزة إجلال العظيم على الرغم من
الشك والكفر والاستخفاف المتفانية فى هذه العصور ٩٤ و ٩٥ - إجلال
الناس لدانتي وشاكسبير ٩٦ و ٩٧ - غموض تاريخ دانتي - صورة دانتي
ودلالاتها على أخلاقه ٩٦ - مولد دانتي ونشأته ٩٧ - كل شعر لا يصلح أن
يتغنى به فما هو شعر - الشعر الكاذب مؤلم ١٠٢ - الطبيعة لا تكشف
أسرارها إلا للولوع بها والحب لها المخلص - الحب الصادق أول هاد إلى خبايا
الحقائق ١٠٥ - حديث الغادة فرانسيسكا وعاشقها ١٠٦ - من لم يعرف
القسوة لا يعرف الرحمة ١٠٧ - فرق عظيم بين ما يخرج من أعماق النفس
وبين ما يخرج من ظواهرها ١١٢ - العمل فى صمت خير من العمل فى
جلبة - قيمة كل امرئ ما يحسن ١١٤ - شاكسبير وعظمته ١١٥ - روايات
شاكسبير ١١٧ - أصبح قياس لمقدار عقل الرجل ١١٨ - قيمة المرء بمقدار
بصيرته - ما يجب على الشاعر الكاذب ١٢١ - أفعال المرء وأقواله دليل عليه
- البصيرة مستحيلة الوجود بلا أثر ولا أخلاق ١٢٢ - الطبيعة والحقائق
للخسيس اللئيم كتاب مختم - كان شاكسبير غير متعمد ١٢٣ شاكسبير
للإنكليز أفضل من الهند - ستندهب الهند ولكن شاكسبير لا يذهب ١٢٧ .

ملخص المحاضرة الرابعة

(البطل فى صورة قسيس)

لوثر - البروتستانتية - نوكس - البيوريتانية

من هو القسيس ؟ - القسيس الحقيقى ١ - كان لوثر ونوكس قسيسين
مصلحين ٢ - كما أن العظماء يتون الأديان كذلك قد يهدمونها وقد يكون
الهدم ضرورياً ٣ - الإنسان سائر فى درج الرقى ٥ - فساد العقائد وتفشى
الشك والإلحاد من أسباب إصلاح الأديان ٦ - معنى الوثنية وسبب مقاومة
الأنبياء إياها ٨ و ٩ - لوثر فى مقاومته مسألة الغفران وما شابهها
١٠ - من الخطأ الظن أن البروتستانتية تحت عبادة الأبطال والثقة
بزعماء الدين ١١ - البروتستانتية منشأ الملكية المصادقة - رأى الشخصى
فى العبادة ليس أمراً جديداً فى العالم ١٢ - ليست الفوضى نتيجة البحث الحر
ولكنها نتيجة الكذب وضعف الإيمان ١٣ - لا بأس على غير العظيم أن يعتقد
رأى العظيم - مولد لوثر ١٤ - أبو لوثر - لوثر وهو تلميذ
١٥ - موت « ألكسيس » صديق لوثر بالصاعقة وتأثير ذلك عليه
١٦ - لوثر وهو قسيس ١٧ - تأثير الإنجيل فى نفس لوثر - رؤية لوثر مدينة
رومة لأول مرة ١٨ و ١٩ - غواية البابوية إذ ذاك ١٩ - كان البابا يبيع الناس
عفو الله - تحكك أحد أتباع البابا بلوثر فى قريته ٢٠ - ثورة لوثر ضد البابا
وكتابه رسالة يرد بها عليه - مقاومة البابا للوثر وأمره بإحراق كتاباته
٢١ - حنق لوثر على البابا وإحراقه لائحة البابا ٢٢ - كان لوثر فى مقاومته
أضاليل البابا كالأنبياء فى مقاومة الأصنام ٢٣ - حفلة ورمز وظهور لوثر هناك
٢٤ - تأثير دعوة لوثر فى نهضة أوروبا ٢٥ - مما امتاز به لوثر ثورته فى وجه

لدين دون إزاحة الدماء - ومن مزايده التسامح - ومن مزايده الشجاعة ٢٥ -
مدة مزايده للوثر ٢٨ ر ٢٩ ر ٣٠ - وجه لوثر ودلالته على أخلاقه - آخر كلمة
للوثر ٣٠ - تشعب البروتستانتية ٣١ - رحلة القسيس تيندال إلى بلدة لوثر
وترجمته الإنجيل هناك ٣٢ - جامعة كامبرج وأكسفورد في تلك الأوقات -
تأثير الإنجيل في أدب الإنكليز - الإنكليز قبل الإنجيل ٣٣ - تأثير الإنجيل في
أخلاق الإنجليز ٣٤ - البيوريتانية في أول أمرها وأخلاق البيوريتاني
٣٥ ر ٣٦ ر ٣٧ ر ٣٨ ر ٣٩ - البيوريتانية في أمريكا ٣٩ ر ٤٠ - تأثير البيوريتانية
في أسكوتلاندا - نو كس في أسكوتلاندا تاريخ نو كس ٤١ ر ٤٢ - إخلاص
نو كس ٤٣ - شجاعته ٤٤ ر ٤٥ - نو كس مع الملكة ماري ٤٥ ر ٤٦ -
التسامح الحقيقي ٤٧ - مذهب نو كس ٤٩ -

ملخص المحاضرة الخامسة

« البطل في صورة كاتب »

جونسون - روسو - بارنز

الكاتب صنف جديد غريب من لبطولة ٥١ - الكاتب صنفان جيد وردى
٥٢ - طبيعة الرجل الكاتب ٥٣ - أكبر كتاب القرن الثامن عشر هو جيتا ٥٤ -
كلامنا الآن عن أكبر أبطال القرن السالف جونسون وبارنز وروسو - الشكوى
من اختلال نظام المجتمع ٥٥ - مسألة الكتاب والكاتب أصل كل اختلال ٥٦ -
صناعة الكتابة أعجب ما أبدع الإنسان - فضل الكتب ٥٧ - منشأ الجامعات
٥٨ ر ٥٩ - الكتب خير الجامعات الآن - الكتاب هم الكنيسة الفعالة في الأمم ٦٠ -
ما الأدب إلا جلاء لأسرار الله ٦١ - تأثير الأدب في الحكومة ٦٢ - الكتاب
أشرف نتاج ذهن البشرى ٦٣ - مع خطورة شأن الكتاب فإنهم في أسوأ حال

٦٤ - لا ضير على الحر أن يكون فقيراً ٦٥ - كيف يعرف الكاتب الكبير
لدى يستحق المعونة ٦٦ - من أسوأ الأحوال ترك الكتاب للصدف ٦٧ - داء
الفوضى الكتابية أصل سائر الأمراض فداوه تشفى المجتمع - في الصين يحاولون
اختيار ملوكهم من بين أدباقيهم ٦٨ - من أكبر الآفات لإلحاد والكفر - الإلحاد
في القرن الثامن عشر ٧٠ ر ٧١ - أصل الآفات الشك ٧٢ - الكفر المحض خير من
الشك ٧٣ - الإيمان نتيجة ذهن الصحيح - ليس الشك نفسه جريمة ٧٥ - مضار
الشك في كل شيء ٧٦ - أولى بالإنسان أن يهتم بأمر نفسه - وأحق الناس
بهذه النصيحة أولئك الذين يطوفون الأرض لإصلاح الناس ٧٨ ر ٧٩ في أزمان
الكفر كان يعيش جونسون وبارنز وروسو ٧٩ - جونسون ٨١ - حكاية الحقاء
٨٢ - تعاليم جونسون ٨٥ - كتابات جونسون - أسلوب جونسون قاموس
جونسون - العبرة بالمعاني دون الألفاظ ٨٦ - اللورد بوزيل صاحب جونسون
وأكثر مقدسيه - الخلطة لا تنهت بإجلال الأبطال ٨٧ - روسو - الجلد والصبر
هما أول شروط البطولة ٨٨ - أخلاق روسو - قصة روسو مع السيدة جنليز
٨٩ - حديث روسو مع زائره الريفى ٩٠ - مكانة روسو من الكتابة
٩١ - إساءة العالم روسو ٩٢ - روبرت بارنز ٩٣ - والد بارنز ٩٤ - بارنز
وهو صبي ٩٦ - بارنز أكبر نوابغ البريطان في القرن الثامن عشر
٩٧ - حديث بارنز الساحر ٩٨ - ميرابو وبارنز ٩٩ ر ١٠٠ الحكومة وبارنز - أهم
صفات بارنز الإخلاص ١٠٠ - إجلال الأبطال هو العزاء عن شقائهم ١٠١ -
وفدة بارنز على أدنبرج ١٠٢ - الشهرة ضياء يريك حقيقة الرجل ١٠٣ - ما عاناه
بارنز ١٠٤ .

ملخص المحاضرة السادسة

البطل في صورة ملك

كروموويل - نايلون

الثورة في العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

خلاصة أعمال المجتمع الإنساني هو الاهتمام إلى أعقل الرجال وتقليده الحكومة وإعطاؤه الخضوع والطاعة ١٠٥ - أعقل الرجال هو أيضا أكرمهم وأبرهم ١٠٦ - الأمن والآمال ١٠٦ - أصل كل فتنة جعل غير الكفء على رؤوس الأعمال ١٠٧ - موضوع حقوق الملوك المقدسة وبطلانه ١٠٨ - ١٠٩ - تفصيل حقوق الملوك ١٠٩ - الثورة الفرنسية حق وإن كان حقا ملتفعا في شواظ الجحيم ١١١ - ثوار الثورة الفرنسية وعدم احترامهم الأبطال ١١٤ - منهج الحرية والمساواة ومعناه ١١٥ :

المحاضرة الأولى

« البطل في صورة إله »

إنما يضمنى وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئا عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسم الحياة والأشكال التي تشكلوها في تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الأعمال - للكلام عن الأبطال وعمما استقبلتهم به أهالي أزمانهم وعمما صنعوا هم من جلائل الأمور - ولعل هذا مبحث عويص لا أنى موفيه حقه - مبحث لعمر الله قصي الغاية يشق على نزع الخطاطر مرماه ويقع وراء جهد الأوهام متناهية. وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بخلافه إذ في اعتقادي أن التاريخ العام - تاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم - إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسيرة والقادة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائما في هذا الوجود كاملا متقنا فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير ، فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام !

بيد أن من أسباب العزاء أن في ذكرى العظماء كيفما كانت نفعا وفائدة ، والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق ، فليس أحسن من مجاورته شيء - نور يضيء ، وكان يضيء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكننا نجم شبيهه يد الله بين أشباهه من مواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعاني الرجولة والشرف الكبير ، وهو الذي في شعاعه أنس الأرواح وروح النفوس ، ومتعة الخطاطر. وليس في ظنى أن أحدا منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد. وبقينى أن نظرة في

تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه وما أسعدنى لو أستطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معانى عظمة الأبطال وجلالهم ، أى من معانى البطولة ، والبطولة فى مذهبي هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس ، ما أسعدنى لو أتيت فى ذلك ولكنى محاول وباذل مجهودى .

لقد قيل - وصديقاً ما قيل - إن أهم ما فى الرجل دينه - والأمة مثل الفرد فى ذلك - ولست أذهب بلفظة الدين إلى النحلة التى يتخفها الفرد والمذهب الذى ينتسب إليه والقواعد المالية التى يعددها ويشهد بها ، فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا ما لا أسميه الدين ، هذه الإقرارات والاعترافات أبعد ما تكون فى الحقيقة من الدين إذ هو اعتراف وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديته - أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية - وذلك أقصى ما عنده . ولكن جوهر المسائل للرجل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشئ الذى يعتقد به حق الاعتقاد ويوفق به كل اليقين ، فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الكون الجسم الأسرار ، وفيما يتعلق بوجهه فى هذه الدار ووظيفته - ذلك هو دينه وربما كان إلحاده وكفره - هو اعتقاده أنه متصل بعالم الإلهيات أو بلا عالم مطلقاً - فإذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شئ يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة ، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ما ديانته أو ديانتهم . هل هى الوثنية أو تعدد الآلهة - أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلاً حسياً وعبادة القوى الطبيعية ؟ أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية ، أعنى بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة ؟ أم هى الشك والريبة ؟ هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا ؟ بل ربما كان إلحاداً محضاً وكفراً مبيناً . فعندى أن الإجابة عن هذا السؤال هو إعطاؤنا روح تاريخ

الفرد أو الأمة إذ أن أعمال الأمة أو الفرد إنما هى بنات أفكارهم ، وما تتحت ظواهر الآثار إلا من مستسر الضمائر . ومن ثم أقول : إن دين الأمة هو أهم ما لديها ، فجدير بنا فى هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه ، فإنه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كل شئ . وقد جعلنا أول أبطالنا « أودين » الرجل الذى كان يعبد قدماء السويد والنرويج وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار ، لنتنظر برهة إلى البطل فى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة .

* * *

حقاً لقد كانت الوثنية شيئاً من أعجب الأشياء لا يكاد يتصوره الوهم . وهل كانت إلا متكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل ؟ قد نبئت فى الحياة الغابرة فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت على أكناف الحياة غواشى قبابها ودواجى ظلالها ! بما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم أن ناساً عقلاء أيقاظاً صاحين يعيشون عيشة كنتك ويعتقدون عقائد كهاتيك ، أعنى يعبدون رجلاً منهم ! لا بل يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما إليها من أصناف الحيوان والجماذ ، ويصوغون لأنفسهم خليطاً مشوشاً من كل أضلولة وأبطولة فيخسبون فلسفة الكون - أما والله ما أحسب كل هذا إلا حديث خرافة .

بيد أنه لا شك فى أنهم كانوا يأتون ذلك . كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الكفرات الفظيعة المنكرة ويطمئنون إليها ويعيشون بها عجباً أى عجب ! وخليق بنا أن نظرق ملياً وتأمل والأسف ملء قلوبنا ما يوجد فى نفس الإنسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل . فإن ما أشرت إليه من مستنكر المدهشات قد كان فى الإنسان ولا يزال بل هو فى جميع الناس وفيما أيضاً .

بين الجدلين جماعة ليس لديهم من القول فى الوثنية إلا كلمة واحدة ، إذ يقولون هى باطل وغش وإنه لم يؤمن بها عاقل قط وإنما هى أكثوبة لفقت لخداع أناس لا يصح أن يسموا عقلاء ! وأرى من الواجب علينا أن تدفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر ، وإننى لأدفعه الآن عن

الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الإنسان دهرًا ما في هذه الحياة. فلم يك دين قط إلا وفيه عنصر من الحق ، ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينًا ما - ولا ننكر أن الأكاذيب والأكاذيب تكثر في الأديان ولا سيما في عهودها المتأخرة إذ يعتورها الوهن والاضمحلال. ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان - إنه ما كان قط للأديان حياة وقوة بل كان داعيًا ونذير آجالها - فاعلموا ذلك - أصلحكم الله - ولا تنسوه : فإني لأظن أن من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال إن دينًا من أديان المتوحشين كان منشؤه الكذب ، فإن الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويولد ، وإنما من دأبه أن يفني ما أصاب ويقتل كل شيء حتى لو حاولنا أن نخطط علماء بأمر ما فأتيناها من ناحية أكاذيبه ، كان ذلك جديرًا أن يخفى عنا حقيقته. وهي ما لا ينكشف لنا حتى نفى تلك الأكاذيب البتة كأنها أمراض ومفاسد واجب على كل امرئ استئصال شأفتها سراء من الأذهان والأعماق والأعمال ، إذ أن الإنسان - حيثما كان - عدو الأكاذيب بل لأرى الحق حتى في وثنية أهل التبت (من أقاليم الصين) أقرأ ما دونه الجهيذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » في حديث سفارته إلى تلك البلاد ، تجد أن هؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل كل حين إلى الأرض بشرًا يمثله ويحمل صورته وهو بمثابة اعتقادهم في بطريق أو بابا ، أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلاً هو أفضل الرجال قاطبة - وأن هذا الرجل يمكن الاهتداء إلى معرفته من بين سائر القوم : فأما أن الله يرسل في كل جيل رجلاً يمثله ، فهذا هو الحق الكائن في عقيدة هؤلاء ، وأما كون هذا الرجل يمكن معرفته من سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور. ولقساوسة هذه الأمة طرق إلى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم - طرق وايم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن إذ لا نفتأ نولي علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملوكية) وأسفاه !!... ولكن أرجع إلى ذكر الوثنية فأقول : إنه قد يرجح لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولاً أنها كانت في حين من الأحيان دينًا صحيحًا في اعتقاد أهلها ، فلنوقن كل

اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنتهم حق الإيمان ولم يكن بهم ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس أيقاظًا قد صورهم الله على صورتنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا مجال من الأحوال. لنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم لآمنًا بما كانوا به يؤمنون ولكنهم هم سواسية في سائر الأشياء. وإذا قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألوني ماذا كانت تلك الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوى الجدل - وهو قول أوجه - إن منشأ الوثنية هو شعر الشعراء ، أعني أن الشعراء كانوا يرون آراءهم في الكون ثم يخرجون تلك الآراء والإحساسات في رموز من الأقاصيص وضروب من الجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد جريًا على قانون أساسي من قوانين النفس البشرية ، وهو أن كل ما جرى في وجدان المرء من إحساس شديد لا يرى بداً من إخراجِه بواسطة النطق ، ومن رؤيته مَثَلًا لعينيه في شيء منظور حتى كأنما هو شيء حتى ذو حقيقة تاريخية ولا شك في أن هنالك قانونًا كذلك وأنه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرسلها وأشدها تأصلاً واستمكانًا. ولا شك أيضاً في أنه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى في أمر الوثنية. وإنني وإن شهدت بشيء من الصحة لتلك النظرية التي ترجع بأمر الوثنية كله أو جله إلى الرموز الشعرية ، لكنني لا أعدّها النظرية الصحيحة. وإنني أنشدكم الله : هل كنتم قط مؤمنين زمستريدين في ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم إن الأمر لأخطر من ذلك وأجل وأحوج إلى الجِد منه إلى اللعب. إن أمر الحياة من أكبر الجِد وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل إنه الجِد أمر من كل جد ، والحق أمر من كل حق.

فقد رأيت أن أولئك القائلين في الوثنية بأمر الرموز الشعرية وإن كانوا قد أخذوا في منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية. فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى في وجدان الناس وأنها عنهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين إنما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والإحساسات.

ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأيا معكوسا بقولهم عن النتيجة إنها السبب وعن الغاية إنها الأصل. فإن الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الأفاضل الشعيرة أول حاجهم وأكبر همهم ، وإنما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات ، وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة. وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون. أبدا أخرج الشاعر قصة موقنة جعلها رموزاً لمعتقدات جيله ؟ أتخسب أنها أقدم عهداً من تلك المعتقدات ؟ كلا بل كانت العقائد أولاً ثم أنشئت القصيدة رمزا إليها وتمثيلاً لها. فالعقيدة أصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها. ثم هو بهما بلغ فى مراتب الجدل وإنما هو لعب وفكاهة رهو من عبث الخاطر إذا قيس إلى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها. فقصارى القول أن الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لأمسيتها ، فعلى إذن فى شأن الوثنية أن تبحث من أين جاءت هذه الحقيقة - وماذا كانت ؟

تذكرون ما توهمه أفلاطون من أنه لو ولد إنسان فى حجرة فى خوف الأرض فترك ثمة حتى بلغ أشده وكمل عقله ، ثم أخرج بغتة إلى ظاهر الأرض فإذا الشمس بارزة فى موكب لألائها. ماذا يبلغ به العجب والاندعاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فىنا ساكناً ؟ ولكن ذلك الرجل يراه بعينى طفل قد برأهما الله من شوائب أكدار الحياة فرؤيتهما فى منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج. فليس عجيباً أن يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ بصره الشاقب إلى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخزله ساجداً. فاعلموا معشر الإخوان أن أول رجل مفكر بين شعوب المتوحشين - أول إنسان بدأ يفكر إنما هو كذلك الإنسان الذى تخيله أفلاطون جامعاً فى طبيعته بين الطفولة والرجولة. كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجاً صريح الطبع كالطفل ، مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديدة العدد فى اسم مركب من ثلاثة أحرف ، كما فعلنا نحن حينما سميناها

« كونا » و « طبيعة » وما شاكل ذلك. فطوبنا جلاله العظيم فى إنشاء لفظ حقير. ولكن الرجل المتوحش كان كل شئ جديداً فى نظره لم يخفه عنه حجب الأسماء والألقاب ، عارياً أمامه ساطعاً لعينيه مشرق الرونق سافر الحسن وضاء الجمال يحار فى كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان. فتأثير جلال الكون فى نفس ذلك الإنسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره فى نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبی فى العصور الأخرى. بلى أيها الإخوان إن للكون لو تدبر الإنسان واعتبر لموقعا فى النفس أى موقع ، وروعة فى القلب أى روعة. تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقتها وما يهترز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروض ، وتلكم الجبال الراسيات والأنهار الجارية والبحار ذات الجرحرة والضجيج والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصفاء هوجاء تحدد من السحب كل دجنة وطفاء ، أنا تسبح بالديمة المدرار ، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار. ما هذا أيها الإخوان ؟ بلى ما هذه أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئاً وأما الباطن فلا وريكم ما عرف ولن يعرف. هذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى إنما أولى بالرء فى مثل هذا المقام الإذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيد المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره ، أكثر مما يكتسبه المتعدين العالم بمنظاره وكيماؤه. ماذا صنع العلماء فى أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات ؟ هم يسمون البرق كهريسا ، ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحريز. ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذى أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وأيان يذهب ؟ لا أكذب الله قد أظهر العلم أشياء كثيرة ، ولكن بش ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرتة ، ويذل لعزته وعظمتة ، ويظفر على جوهه الهائل كريشة فى جهب الريح ، والحق يقال يا إخوانى إن هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات.

بل كفى بالزمن معجزة - بذلك الشيء الفائق العد والحصر الدائم الكر والمز المستمر الصمت والسكون ، دائماً يجرى ويتدفق عجلًا ساكتًا كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب ، وأنفاس لا تكاد تصلر حتى تبعد. أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلك جديرًا أن يلجج المستنثا فلا تنطق؟ وبماذا تنطق يا الله من هذا الكون الهائل ؟ ماذا كان يستطيع المتوحش القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه ؟ أليس أقصى ما نستطيع أن نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف لأف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخر ؟ هذا كل ما يمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره قوة في قوة في قوة ، فحيثما ألقيت البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية. وليست ورقة ملقاه على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول إلا وفيها قوة. وإلا فكيف كان يتأتى لها أن تعفن ؟ ولعمري ماذا يقول الملحد المفكر (ولا إخال إلا الحاد والتفكير مجتمعان) في هذه القوى الفعالة البدائية المخلقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تقتر ، ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية - ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة ، وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه هي صنع الخالق ! ثم يحى العلم بمنظاره وآلاته فيجعل قلبها ويدبرها كأنها هي حثة مينة توضع في الزجاجات وتباع في الحوانيت ولكن العقل الإنساني السليم الفطرة مازال يرى في هذا الكون شيئًا حيًا - شيئًا يحار فيه الذهن إلى الهوى المرجع ، أولى الأشياء بنا إزائه - مهما بلغ علمنا - أن نحنى الرأس له إجلالًا وننكس ابصر خشية ومهابة ونعبد إن لم يكن بالمتنطق فبالصمت !

وكذلك كان شأن الإنسان القديم المتوحش إزاء هذا الكون الباهر فقد كانت عين فواده ثاقبة الرؤية جليلة الإنسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم أمامها سحب الاصطلاحات والعلمييات فكان الكون في نظره إلهي النسبة بل هو الإله ذاته أما تنظر إلى ذاك المتوحش الغابر إذ يعسف البيد والفلوات قد أضل السبيل فإذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بلألاء أبهر مما يرى أهل هذه العصور فيضيء فواد ذلك الضل كما يضيء له السبيل ويشرق في نواحي

نفسه كما يشرق في نواحي الأفق وكأنه مقلدة في وجه السماء تنظر إليه من أعماق الأبدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسميهم عباد الكواكب ؟ هذا هو ما أراه سر الوثنية أعني إفراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقديسًا وعبادة وكذلك كان كل شيء في نظر أولئك الأقدمين رمزًا إلى شيء إلهي أو إلى إله.

وهل ينكر أن في فعل الأقدمين هذا عنصرًا من الحق ؟ أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصره في كل نجم بل في كل زهرة - إنها ظاهرة ؟ نحن لا نعبد الله الآن على هذا النحو ، ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته أنه يرى في كل مخلوق جمالًا إلهيًا ، وأن كل شيء صاغته يد الله إنما هو نافذة يشرف منها على أعماق الأبد ؟ نحن نسمى من كان له قلرة على استجلاء غوامض الجمال في كائنات الله شاعرًا ومصورًا ونابغة بعقربيا ، أفهل كان القدماء المتوحشون إلا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء في تعرف بدائع الخليفة ؟ وإن لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمال وما أدراك ما عملهم ؟ هو لا شيء !

وإذا كان كل ما نراه هو رمزًا من رموز الخالق إذن فأكرم رموز الخالق وأعظمها هو الإنسان ، إن جوهر النفس الإنسانية وذلك السر الكائن فينا الذي يسمى نفسه « أنا » - وانجلاه ما أجرأنا على صياغة الألفاظ لمعان تضمحل في سعتها الآفاق - هذه النفس هي نفس من الله ، وكذلك الإنسان هو مظهر الخالق في الأرض أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية لباسًا لذلك السر المجهول الذي نسميه الله ؟ قال الصالح « نوقلا » : ليس في طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا هو جسم الإنسان وحقا لا شيء أقلس من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين أيدي الرجال إلا خشوع الذات الإلهية بادية في صورة الإنسان ، فيما لمست جسم إنسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر

الله الذي لا ينال - ولا طاقة لنا بفهمه ولا ندري كيف نتكلم فيه بيد أنه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه إن شئنا وحسبنا ذلك وكفى.

هذه حقائق كان الأقدمون أسرع إلى إدراكها منا نحن ، نعم ؛ إن الأقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون إلى صفاء أنفس الأطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الأرض والسماء دراية وعرفوا كل شيء بمجرد وضع الأسماء والأصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللفظ في شأن الكائنات ينظرون إليها وجها لوجه ، والروح والإجلال حشو قلوبهم ، أولئك كانوا أفهم لآيات الله في كونه وأدرك لسرا الله في عييده ، هم كانوا يعرفون - ولا بأس في عقولهم - كيف يعملون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم كيف يعملون الإنسان وأعنى بالعبادة كما قدمت الإفراط في العجب والإجلال إلى ما لا نهاية له وذلك ما كان في طاعتهم إتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وأرجح ، وظنى أن عبادة الأبطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها ، وأن مذهب الوثنية الذي شبهته بغاية ملتفة قد نبئت من عدة جذور فكل إجلال لكونك من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغاية ولكن إجلال الأبطال هو أذهب تلك الجذور في الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب.

وإذا كانت عبادة النجم لم تغل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ! وعبادة البطل هي كما قلت الإفراط في إجلاله إفراطا لا حد له ، ولا أحسب إلا أن الأبطال ما يرحوا موضع إجلال الناس حتى في هذه العصور وإنه لم يجل في صدر الإنسان معنى أشرف من إجلاله لمن هو أعظم قدرا منه. ولست بمخطيء إن قلت إن هذا المعنى هو الأثر الفعال في حياة الإنسان ، أو قلت إنه الأساس الذي يقوم عليه الدين. لا أقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق - كل دين كان إلى وقتنا هذا. وهل ترون معشر الإخوان في ديتنا النصرانية إلا أنها عبادة وإعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات إنسانية عليا إلهية ،

هي ذات أشرف الأبطال قاطبة - ذات من لا أسميه هنا بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الأمر المقدس.

وإذا تخدنا من قمة الدين إلى منازل أخط وأدنى وجدنا في جميعها من احترام الوضع للشريف وولاء الحقير للجليل ما يماثل الإيمان في الدين. إذ الإيمان إنما هو الولاء لنبي أو بطل مقدس ، وماذا ترى ولاء الصغير للكبير الذي روح المجتمع إلا فرعا من عبادة الأبطال ؟ فعبادة الأبطال إذن هي أساس المجتمع ، والرتب والدرج الذي يقوم عليه التعاشر والتواصل هي ما يجوز أن نسميه « هيرواركي » أي حكومة الأبطال. فأهل الدرج والرتب في الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية كلها يمثل الذهب ، وإن كان الكثير منها لسوء الحظ مزورا ، فقد نحتل الأوراق المالية ونعيش بها وإن وجد بينها المزور. فأما أن تكون كلها مزورة فذلك ما لا يقام عليه ولا يحتمل ، إذن تتور الفتن وتقوم الثورات ويصاح بالديمقراطية والحرية والمساواة وغيرها إذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة لا ينال بها من الذهب كثير ولا قليل ، أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون لا ذهب ، ولم يكن قط ذهب. والحقيقة أن الذهب - وأعنى به عبادة البطل - موجود برغم كل شيء في كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الإنسان.

فشا في هذا العصر رأى باطل هو إنكار وجود الأبطال بل كراهة وجود الأبطال. أذكر لمعشر النقاد بطلا - الإمام « لوتار » مثلا فإذا هم قد انتبروا ينتقدونه - لا يأخذون في إجلاله بل في أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ! ثم يقولون إن ما ينسب إليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذي أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله - هذا والله أقسن وسخف ، أيقول النقاد الوقت هو الذي أحدث ذاكم الرجل ؟ وآأسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل أين العظيم ولا عظيم. تصرخ الأوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صيحة في واد ونفخة في رماد ، وما ذاك إلا أن البطل أو الفتى لم يكن وقت النداء موجودا ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم. وبعد أن

يحي صوت الوقت ولا يحجب تنهار أركانهم بنيانه ويعمه الخراب والتلف ، لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستنجد به !

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتى له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى - بين عقل يعرف به حاجة العصر ، وعزم يعضى به فى إبلاغ العصر حاجته ، وفى هذين صلاح العصر وفلاحه . ولكنى أشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانها الشاكة العاجزة وأحوالها المختلطة المضطربة يخلو بها سائق الشقاء إلى غاية التلف - أشبه كل هذا بحطاب يابس ميت ينتظر من السماء شهاباً يشعله ، وما الرجل العظيم مرسل من قوس الله يمحى فى صدره العزم ويغلى فى عروقه البأس إلا ذاكم الشهاب ، وما كلمته إلا شفاء الغلة والثام الجرح ومجتمع الأهواء ومستقر العقائد ، ثم لا يصيب الحطاب حتى يلتهب من كل جانب ناراً كناره . ولكن المنتقد يحسب أن الحطاب هو الذى أوجد ذلك الشهاب نحن لا ننكر أن الحطاب كان فى شدة الحاجة إلى الشهاب ، فأما أنه أوجد الشهاب ! يا لله من سخافة أولئك النقاد وحقهم ! أما أنه ليس أدل على حطة امرئ ولؤمه من عدم إيمانه بالعظماء ، ليس أدل على خسة جيل من الأجيال وضعته من عماه عن نور الله المقدس وإيمانه بالحطاب اليايس الميث هذا والله أقصى منتهى الكفر . إذ أن الرجل العظيم ما يرح فى كل آن مستنقذ جيله من وهلة البؤس والشهاب الذى لولاه ما شبت النار فى الحطاب ، وليس تاريخ العالم إلا كما قلت مجموع سير أبطاله .

أولئك النقاد الأصاغر يبدلون الجهد فى ترويع سوق الكفر وتشر أعلام الضلال ، ولكنهم لا يفلحون إذ مازال يظهر الرجل العظيم من آن إلى آن فيرمى بحقه باطلهم فإذا هو زاهق ، وإذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت العنكبوت أو أوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى أن إجلال العظماء فطرية فى طبيعة الإنسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن ، وإجلال العظماء بق ما بقى الإنسان . فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس ويحل ، على أنهما كانا فى القرن الثامن عشر أشد

العصور كفرة وفجوراً . والأمة الفرنسية الكافرة تتر من بفولتيرها وتظهر عبادتها الأبطال فى أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينها ويختنق بها . فحقاً إذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فإن الفولتيرية من أسفل أنواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته تقيض حياة المسيح وكان شيطاناً مريداً ، هذا مع أن أبعد الناس من فضيلة التقديس والإجلال هم فرنسيو هذا الجيل . وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شىء مذهبهم وشعارهم فليس فى نفوسهم موضع للإجلال والإكبار . ومع هذا فانظروا كيف كان صتيهم بفولتير . يدخل فولتير باريس عائداً من رحلة طويلة شيخاً فانياً متهدماً قد جاوز الرابعة والثمانين ، فيحسون أنه نوع من الأبطال أمضى حياته فى محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب - إنه بالاختصار ممن جاهد جهاد الأبطال وإن لم يسلك فى ذلك إلا خطة غريبة . نعم إنهم يحسون أنه إذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ، ففولتير إذن هو أكبر الناس - هو الإمام الأعظم الذى يقفون أثره ويتطلبون منزلته ، فهو فى الحقيقة إلههم الذى لا يصلح إلا هم ولا يصلحون إلا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة مارى أنتوانيت إلى الحارس الذى على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتكرونها فى أزياء خدمة الفنادق لتسهيل لهم رؤيته ، ويصيح الخوذى بقرسه : اسعدى أيتها القرس فإنك تسيرين بالمسيو فولتير ، وقد شبه أحد كتابهم تلك المركبة تحترق باريز بـ « نرجس مذنب » (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثراً طاهراً وذخراً ثميناً . ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل إلا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل وأجمل .

أجل إن البطل ما زال معبوداً منذ « أودين » إلى « جونسون » ومن المسيح إلى أحقر قسيس فى كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار لأنه ما منا إلا من يعشق الأبطال - يعشقهم ويحلهم وينحنى إكباراً لهم ، وهل ينبغى الاحتناء لغيرهم ؟ بل ألا يحس المرء أن فى إجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟

وهل جال في صدر المرء إحساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟ وأنه ليسرني ويشفى نفسى أنه ليس فى طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود أن تنهب من نفس الإنسان تلك الغريزة الفطرية - عبادة الأبطال. هذا وإن أجيال الكفر التى تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، وإنى لأرى فى غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التى تتلقى الدول الساقطة فى مهاويها فتمنعها من الضياع فى أعماق الخراب. فإذا انتهت الدولة المتدهورة إلى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيب نفسها للنهوض ، ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود إلى أحسن مما كانت عليه. وهكذا يظهر لى أن عبادة الإنسان للبطل هى الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور - هى النقطة الوحيدة الثابتة فى التاريخ الثورى الحديث وإلا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئاه.

كذلك أجد أن الوثنية روحها الحق وإن كان لها ظاهر مشوه. كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد. ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وإن اتخذت من الأشكال والأوضاع الحقير والمنكر ، وظنى أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لأنها (أولا) آخر الوثنيات عهداً إذا ما زالت مستمرة حتى القرن الحادى عشر. فمئذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكاندينفيا يعبدون «أودين» ، ثم هى هامة لنا من حيث إنها ديانة آبائنا أولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية فى عروقنا والذين نشبههم فى عدة وجوه. فعجبا أيها الإخوان أن يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف.

(وبعد) فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم لجملة أسباب ، ولنعلم أن ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان.

* * *

فى تلك الجزيرة العجيبة المنسماة «إيسلاندة» التى يخبر علماء طبقات الأرض أنه استثارها زلزال نارى من قعر البحر - وهى بقعة موحشة بباب جرداء

يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من أشهر العام مطوية فى أجواف العواصف السوداء إلا أن لها مع ذلك فى فصل الصيف لألاء جمال موحش قفر - وهى وسط العباب الخضم تسمو صعداً مكفهرة الجبين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب فى الهامة الشمطاء وتقرور فيها الينابيع الحارة حتى تغز مراجلها وتهدير (شقاشقها) إلى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لتكافح جيوش الجليد والنار - فى هذه الجزيرة وهى أبعد ما يرجى أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التى نحن بصدددها وعلى شاطئ هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الأنعام والإنسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليم وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوما شعراء أعنى ذوى صدور جياشة بالمعاني والسنة بها ناطقة ، فكلما تأملت علمت أنه كان يفوتنا شىء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الأسكانديناف ! الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالى «إيسلاندة».

وكان بالجزيرة فى أوائل أمر المسيحية قسيس نصرانى يدعى «سيمند» لعله كان لا يزال يتزع به عرق إلى دين آبائه الوثنية فأخذ يجمع عددا من أغانيهم القديمة - مما قد طال عليه القدم فأسمى حوشيا مهجوراً - وكان توحيديا صوفيا عليه مسحة دينية ، وهذه المجموعة هى ما يسميه أدباء الشمال «الألدار» أو الـ «أدا» الشعرية وهى كلمة مشكوك فى اشتقاقها ، لعل المراد بها «السلف» وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى «سنورو سترلسون» وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس «سيمند» فكتب فيما كتب تاريخا حافلا لعقائد الوثنية وجعله ثرا مفصلا بشذور من النظم فجاء كتابا يديعا موقفا بريئا من كل أثر للتعمل والكلفة وهو ما نسميه «عفو الخاطر» وهذا الكتاب هو المسمى بالـ «أدا الثرية» فبفضل هذين المؤلفين وشتى أغاني غيرهما جلتها «إيسلندى» وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والخواشى بين «إيسلندى» وغير إيسلندى مما هو لآن مستمر فى البلاد الشمالية قد

نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه ولنتناس قبل كل شيء أنها دين باطل بل نتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر أما يمكننا أن نعتبر لها ونرتاح إليها شيئا ما.

أن أول خواص هذه الوثنية في رأيي هو الإيمان الصريح بأن القوى الكونية هي أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة ، فتلك الأشياء التي تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يتعجبون لرؤيتها ويركعون لها إجلالاً ومهابة ، أعني أن ما نراه نحن العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانباً ومردة « جوتان » مخاليق جسماً شعناً غيراً شنع الصور لهم طبائع الشياطين والأبالسة والجليد والنار وزوادة البحر من هذه الجان والمردة ، أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهي آلهة وبين هذين الفريقين تقسم دولة الكون وهما يعيشان متفردين كل فريق في جهة ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجار) في السموات ويقطن المردة في بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهم ».

عجب كل هذا ، أنا لا أراه باطلاً ولا خرافياً ، وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسيره وسير عسيار الفحص عمقه وغوره كان رأيه فيه رأيي ، ففوة النار التي تخفى نحن ما بها من آية العجب في طي اسم كيماء نجعله حجاباً لرؤية هولها ، كان القدماء يرونها عفرتها سريع الحركة خفي المدب من قبيلة المردة « جوتان » . وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » - هكذا ذكر أحد رحالة الأسبان - النار وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعاً من الشياطين أو ضرباً من الآلهة بعضك إذا مسسته ويعيش بأكل الخشب . وكذلك أرى أنه ما كان في قدرة أي كيميائي أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعينها من الحمق والغباوة - ما هي النار ؟ - أما الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطاناً فظيلاً أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر - المارد « هيرم » أو « رايم » ، وهي كلمة بطل استعمالها إلا في بعض أودية « سكوتلاندة » وهكذا لم يكن

الجليد عندهم كما نراه الآن شيئاً ميتاً ، ولكنه شيطان حي نراه إذ أظلم الليل يسوق أفراسه البلق إلى كهف حيث يقبل عليهن بمشط شعورهن . وهذه الأفراس البلق هي سحب البرد ورياح الجليد ، أما بقره فهي جلاميد الثلج ، ثم إن هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفرته فتتفطر وتتصدع.

ولم يكن الرعد في تلك الأوقات مجرد كهرباء وإنما كان الإله « دونار » - (ثاندرا)^(١) إله الرعد ، وهو أيضاً إله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وإنما زحمة الرعد هي غضبه وسخطه . وما اجتشاد السحاب السود وازدحامها إلا تقطيب جبين ذلك الإله وكسر حاجبيه . وما الصاعقة تنقض من السماء إلا السنن اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الضخمة فوق قتل الجبال ، قدويها وقعقتها هو جلبة الرعد وتراه من غضبه ينفخ في لحية الصهواء فذلك خفيف الريح قبل الإرعاد ، و« بولدار » الإله الأبيض الجميل العادل المنعم (الذي وجد المبشرون الأول أنه أشبه شيء بالمسيح) هو إله الشمس . أجمل الأشياء الظاهرة . وإحدى العجائب والأسرار رغماً من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة في ظني هو ذلك الذي عثر على أثره العالم الاشتقاقي الألماني « جريم » ، وهو الإله « ونش » أو « وش »^(٢) إله الطلب الذي يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الإنسانية وأعمق أصوات الروح ، وإن لم تكن بعد دعاء مهذباً وصوتاً منقحاً . هذا أبسط آراء الإنسان وهو مع ذلك عنصر جوهري في أحدث مذاهب الدين.

وأذكر من باقي الآلهة « آجير » إله الزوادة ، وذلك لأن النوتية بنهر « ترنت »^(٣) ما برحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما في حالة المد - وهي حالة خطيرة - صاحوا « حذروا فإن آجير قادم » . عجباً لهذا اللفظ قد بقي بعد زوال

(١) كلمة إنكليزية معناها « الرعد » .

(٢) كلمة إنكليزية معناها « طلب » .

(٣) نهر بإنكلترا .

تلك القرون كأن دنيا طغى عليها الماء ففرقت في عبابه إلا ذؤابة قمة ما برحت لأبصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء الوثنية في العصور الغابرة يؤمنون بالإله آجير ، وما ذلك إلا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت في أنسابنا ، فلمنا مزيج من السكسوني والدانيماركي الشمالي. ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين إلا فرقا سطحيا مثل ما أرى بين النصراني والمسلم والوثني.

وعن إلههم الأكبر « أودين » ستتكم قريبا إن شاء الله. ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكاندينافية أو الشمالية : هو الإيمان بقوى الكون واعتبارها إلهية رائعة شخصية - أعني آلهة وأبالسة ، ولعله قول معقول ومفهوم. وكذلك كان الفكر الإنساني في طفولته يفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة ، وقد أرى في هذا النظام الوثني معنى حراً جزلاً شريفاً وساذجة قوية لم تهذب جد تهذيب ، مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها ، والحق يقال إن مذهب الوثنية الشمالية ما هو إلا فكر صريح قوى من الفكر العميق الحر ، يفتح في قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو أول خصائص الفكر لصحيح في كل آن. فلست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب ، إنما تتبين فيها قوة ساذجة وحقاً مألوفاً وإخلاصاً جماً كبيراً. وإنه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صورته ، منضودة دماه ، في أبداع نظام ، وأجمل نسق إلى بيوت الوثنية الشمالية ، تروح في أفئنتها آلهتها وتخمز النبيذ لتشربه مع « آجير » إله الزوبعة ، ثم يرسلون « ثورا » إله الرعد ليحضر الرجل من ديار الشياطين. ويذهب « ثورا » إلى تلك الديار ، وبعد الجهد الجهيد يأخذ الرجل فيلبسه على رأسه كفلنسوة ، وينقلب راجعاً وقد غاب تحت الرجل وبلغ الرجل مواطن قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثني ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء ، وقوة هائلة إلا أنها لم تهذب ، فهي كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة ، لكنها قدم عائرة وخطوة طائشة. فانظروا - أصلحكم الله - ماذا كان رأيهم

في خلق الدنيا.

لما تجاوب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه « بيمير » ، ثم اجتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا ، فأسا دمه فذلك هو البحر ، وأما لحمه فهو الأرض والصخور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيه مسكناً لهم أعنى الجنة أو « أسجارد » ، وجعلوا حجمته قبة السماء ، وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها في المشرق والآخر في المغرب وأصلها في الأرض وفرعها في السماء - آراء جسام مارديّة هائلة ما زالت بها العصور تنتهت جبروتها ، وتذلل طغيانها ونحوها عن الطبيعة المارديّة إلى الصفة الإلهية ، والثانية أقوى ولا ريب من الأولى. ما زالت بها العصور حتى حولتها إلى أفكار شاكسبيرية ، ومعان لوثرية^(١) ، فأولئك الوثنيون القدماء هم آباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا.

ويعجبني منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جبرها في مملكة الموت ، ثم يسمو ساقها صعوداً إلى السماء فينشر ذوائب فروعها على جميع أنحاء الكون ، وهذه هي شجرة الوجود. ويجلس عند أصلها في مملكة الموت ثلاثة أفضية (جمع قضاء) : الماضي والحاضر والمستقبل ، يروون جذورها من البشر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من إيقاظ وأزهار وأثمار ، وسقوط أوراق وأزهار وثمار. ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال. تمتد أفرعها بكل هذه الأمور في جميع الأمكنة والأزمان. أليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة إنسان ، وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الأمم ، ووسواسها صوت الحياة صادراً عن الأبد إلى الأبد. فإذا تنفس في خلاها النسيم فتلك زفرات القلب الإنساني ، وإن صاحت بين أفئنتها العاصفة فذلك صوت الآلهة. هذه شجرة الوجود. هي الماضي والحاضر والمستقبل. ما كان وما يكون وما سيكون. تصريف فعل « يكون » تصريفاً لا نهاية له ، فإذا

(١) نسبة إلى لوتر رأس المذهب البروتستانتي .

تأملتم معشر الإخوان كيف أن جميع الأفعال البشرية تتسلسل وتتصل ، وليس واحد منها إلا آخذاً بعنق الآخر متداخلاً فيه . وكيف أن الكلمة التي ألقاها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم . إذا تأملتم كل ذلك رأيتم أنه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم هذا ما أجمله وما أجله إذا قستموه باستعارة أهل هذا العصر التي تشبه الوجود بمكيئة « مكيئة الوجود » ؛ بل أرى تشبيه الأقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبئ ! حقا إن مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب يخالف لما نعتقده نحن في الطبيعة ، فمن أين أتى ؟ من أفكار أولئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالي وهبه الله قوة الفكر - أول شمالي نابغة عبقرى كما ينبغي أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش في العالم من رجال غير ذوى فكر ، لم يك منهم إزاء هذا الكون الرائع المائل إلا العجب الأيكم كالذى يحسه الحيوان ، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث للتعجب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الإنسان ، حتى أتى الرجل المفكر الكبير - الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقداً الأفكار فى جميع الأذهان ، وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحاني فإن ما يقوله قد كان كامناً فى نفوس العامة وكاثوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطلقوا به ولكن لا سبيل . فما هو إلا أن ينطق ذلك البطل حتى تشور جميع الأفكار من مكانها كأنما هت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة أشرع إجابة فرحة به فرح السارى بالصباح . ولا غرو فإنما هو خروج من العدم إلى الوجود - من الموت إلى الحياة - فها سقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فإنه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شاكل ذلك ، وإن حسبه أهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبيها وإلهها ! والفكر متى انبعث فلن ينم بعد مبعثه أبداً ، بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طاقة بعد طاقة ، ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله ، فإذا بلغه لم يكن ثمة مجال للنماء ، وإنما يقلع ذلك الغرس ويخلى مكانه لغيره .

ونحسب أن مثل هذا الرجل كان موجوداً فى أمة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الإله أودين - وكان لهم أستاذ وإماماً فى أحوالهم الروحانية والجسمانية ، وبطلاً كبيراً لا تقدر قيمته ، أفرط إجلال الناس له حتى صار عبادة ، ولا جرم فإنه أهل لذلك ، أفما كان أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل ، وفضائل أخرى كانت إذ ذاك من المعجزات . فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم ، أما فسر لهم لغز هذا الكون ، وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة ؟ وانطلق الوجود وأحيا الحياة ! فهو منشئ الوثنية الشمالية . وأكبر ظنى أن أودين هذا أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه ، كان ولا شك رجلاً يعيش بين الرجال ، وهو ما كاد ينشر رأيه فى الكون حتى ثار فى جميع الأذهان مثل رأيه تماماً ، فكأنما كان مكتوباً على صحائف الأذهان بالحبر المغطى ، فما هو إلا أن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان . وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكر على أعالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئاً آخر أحسب أن فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية ألك « أدا » وذلك أنها ليست نظاماً فكرياً واحداً متماسكاً ولكنها مجموعة نظمات شتى الأصول والأزمان ، ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظمات وكيف تتقلب من صورة إلى صورة بما أدخله عليها مفكر بعد مفكر ، إلى أن لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب الـ « أدا » كلا ولن يعرف ما صنعه « أودين » نفسه وماذا عسى أن يعرف من الأنباء عن « أودين » ، بل أنى يعرف عنه أنباء وكيف يكون له تاريخ . وعجيب أن يكون « أودين » هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشراً مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ، ويمشى على مثل أرجلنا وأقدامنا . عجيب أن يكون مثلنا حذوك القذة بالقذة ثم يكون قد أتى كل هاتيك اللدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع إلا اسمه أودين : إذ أن لفظة

« ودي داي » (١) أصلها « أودين زدای ». ولعل في هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ، وليس فيما رجم فيه المرحومون ما يستحق أن يذكر.

قد زعم المؤرخ « سنورو » زحما لم يختل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أو القحة ، وذلك أن أودين كان أميراً وفارساً بطلاً في بقعة بقرب البحر الأسود له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته. ثم إن بلادهم ضاقت بهم فحفوا إلى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار. وإن هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرهما ثم آل به الأمر إلى أن اتخذ أهل إسكاندينفيا إلها معبوداً ، واعتبروا أتباعه الاثنى عشر أبناء له وأخوة كذلك ، هذا ما لا يشك فيه المؤرخ « سنورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكا » وهو آخر من أهل الشمال أشد ثقة برأيه من « سنورو ». لا يصعب عليه أبداً أن يختلق لكل خرافة من خرافات القدماء أصلاً وحقيقة ، ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدنيمارك أو غيرها. ويجيء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون وهو يا للأسف عالم ومحتس ، فيضع تاريخاً لزمان أودين إذ يقول إن أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد ، وبما أنه هذه الأقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن ، فلا حاجة ببى هنا إلى تفنيدها بل حسبي أن أقول إن تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وأزمان مديدة ! ولا أرى أودين وتاريخ وجوده ووقائع وسائر تاريخه إلا شيئاً قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفات من غابر الأعوام .

يجيء بعد ذلك المؤرخ « جریم » الألماني فينكر وجود « أودين » بالمره ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول إن لفظة « فوتام » التي هي أصل كلمة « أودين » المعهولة علماً على الإله الأكبر لدى جميع الشعوب النيتونية في كل مكان - هذه اللفظة التي تتصل حسبما زعم « جریم » باللفظة اللاتينية

(١) إنكليزية معناها يوم الأربعاء .

« فادير » واللفظة الإنكليزية « ويد » إلخ - معناها القديم « الحركة » « القوة » ، فهي الاسم اللائق للإله الأكبر لا لمخلوق . قال جریم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم النيتونية ، والنعوت المشتقة منها كلها في معنى مقدس وأكبر وما شاكل - حسن وأسم الله ما قال المسيو « جریم » ثم لا يسعنا إلا الإذعان للسيد المذكور في جميع المسائل الاشتقاقية . فلنقرر ولنقتنع بأن كلمة « فوتام » أو « أودين » يراد بها « الحركة » و « القوة » . فما الذي يمنع أن تكون اسماً لرجل بطل محرك كما أنها اسم للإله ؟ فأما من حيث إن النعوت المشتقة منها كلها في معنى مقدس وأكبر . أليس قد اشتق الأسبانويون من اسم بطلهم الكبير « لوبى » حينما غلا بهم تقديسه لفظ « لوبى » نعتاً لكل شيء أفرط جماله حتى قالوا بسنان لوبى وورد لوبى وغادة لوبى : فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهي نعت من نعوت الأسبانية معناها ملائكة الجمال أو إلهي الجمال . ولقد قال آدم سميث في مقالته على اللغة : إنه ما من نعت إلا وكان في الأصل اسماً لشيء شارك الشيء الأصلي في صفته ، فكلمة أخضر مثلاً كانت في الأصل اسماً لشيء شديد الخضرة . ثم إن الناس كلما أبصروا شيئاً فيه خضرة - عشياً مثلاً - قالوا عشب أخضر ، وما نزال نقول ساعة ذهباً وخاتماً حديداً فكل النعوت في زعم « سميث » كان أصلها أسماء أشياء . ولا يسعنا أن نعدم رجلاً ونقضى عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولا شك في أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول أستاذ وقائد . وحقا لقد وجد في وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يصصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت ، بل بطلاً مصوراً من لحم ودم !

فأما كيفية صيرورة الرجل « أودين » إلهاً - الإله الأكبر - فهذا ما لا أحسب أن أحداً يجب أن يتفلسف فيه ، وقد قلت إن أهل عصره لم يعرفوا لإجلهم إياه حلاً ، بل لم يكن لديهم إذ ذاك ميزان يزنون به الإجلال . فإن أردت أن تتصور إجلالهم ذاك فتوهم إجلالاً لبطل من أكبر الأبطال وحك إياه

من صعب الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد وحتى يمتلئ به وعاء صدرك ويطفح. أو ربما كان ذاك الرجل «أودين» منحة الله العقل الكبير وبعث في ذهنه نوراً من لدنه وفجر في نفسه ينبوعاً من منه أصبح يرى نفسه سراً من الأسرار ، ولغزاً لا يحل ، وشيئاً يوجب الرعب يحش في نفسه هو فحسب ، إنه ربما كان إلهي المنشأ ، أى شعبة من القوة الخدي والذات العليا المسماة فوتان أو أودين . (معنى القوة العظمى) . أنا لا حسب أن ذلك قد كان منه غشاً أو تدليسا ، إنما هى حقوة وهو أصدق ما سمع . والحقيقة أن كل ذات نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذا هو — فيحال عليه طور في أعلى قمة وأنا فى أسفل حضيبض ، ويظل ولا شئ أشكل عليه من نفسه . ثم ترى أن رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى آخر مما يحدث نتيجة ، فإذا أبصر الناس قد عكفوا عليه بقدره وأحس هو فى أنه حرارة وجدان شريف ، ووفدة شعور طاهر كبير وخليطاً مشوشاً من ظلمة منحة ونور وهاج ، ثم نظر فإذا حواله كون هائل يقطر من جميع أنحائه ماء حس . فهذا وقد علم أنه لم يسبقه إلى هذا المقام العلى إنسان — خبرونى ستحكم الله ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه «أنا قوة كبيرة» ثم الناس يجمعون يخيّبونه «بلى قوة كبيرة !» «فوتان» أو «أودين» !

أذكروا ما مجرد من الدهور وتقدم العهد من التأثير العظيم فى مثل هذه الأمور ، وكيف أن الرجل الذى كان أثناء حياته عظيماً تبلغ عظمته بعد الممات سيرة أمثاله ، وظلمة القدم من شأنها أن تجسم ما يصير فيها وكذلك إذا كان شئء انحلت عجة فى الفؤاد وإجلال ، استفحل فى الذاكرة وتجسم فى الخيال .

مما يالكم إذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق ، فلا تاريخ ولا كتاب لا رفعة ولا نقش فى حجر اللهم إلا صخرة صماء على سبيل الأثر هنا وهناك .

حي والله إنه لولا الكسب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء حيله أربعون عاماً ضرباً من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام ! إنه لا

فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فإنها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء ، ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة . حسبنا أنه لم يكن صميمها بزور ولا جنون ، وإنما حق ومعقول .

ويزعم أن «أودين» اخترع حروف الهجاء وكان يأتى بها ضروباً من السحر . فهبوا ذلك صحيحاً ، أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع منذ أقدم الدهور إلى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شئ أكبر من إبراز كوامن الأفكار بعلامات ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقاً ثانياً لا يقل غرابة وإعجازاً عن الأول ؟ ثم ألا تذكرون ماذا كان اندهاش ملك «بيرو» المسمى «أنا هولبا» عندما رأى الحروف الهجائية ؟ وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد أحراسه من الجنود الأسبانين أن ينقش على ظفره لفظة «ديوس» ليمتحن بها الجندى الذى إلى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة فإذا كان أودين قد أوجد الحروف فى أتمته فما باله لا يأتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ «سنورو» أيضاً أن «أودين» اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا — أصلحكم الله — أنفسكم فى هذه العصور عصور طفولة الأمم — فى تبلج صباح الشعوب الأوربية ، إذ يشرق فى جميع الأنحاء لألاء جديد ندى ، وإذ أوربا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة ، وكل نفس بها رجاء . رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعاً جما ونوراً عميقاً ! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الأقوياء ، وكان لهم فى «أودين» فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم شاعر ونبى ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع . وكذلك سمى الرجل الجليل فى كل آن يكون بطلاً من جميع جوانبه ، بطلاً قبل كل شئ فى روحه وفكره . وهكذا كان ذلك البطل المتوحش «أودين» بالنسبة إلى أتمته ، كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير ، وتلقى الحياة الإنسانية كما كانت حينذاك ، ثم قال كلمته فى

هذه وذاك فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية أولية ، ولكنه بطل عبقرى كبد النفس شريف الخلق. فإذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان إعجاب أولئك القرون ؟ حقا لقد كان عندهم بطلا بل نبيا بل إلها ، أو بعبارتهم هم « فوتان » أى « أودين » ومعناها القوة الكبرى ، والفكر رعاكم الله فكر فى أى صورة بدا وعلى أى شكل ظهر حتى لأحسب أن « أودين » هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم. وحسبكم برهانا فكره الكبير فى قلبه الوحشى العميق !. أفلا تترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ إنكليزية لا نزال نستعملها ؟. وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع.

فجدير بنا أن نرى فيه نموذج الرجل الشمالى وأشرف بنى جلدته ، ثم ما كاد يظهر فى قومه حتى تقهرت قلوبهم له عن إخلاص الولاء وأصدق العبادة ، فهو الجذر الذى أنبت أشياء جمّة ، ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة النيوتونية. حتى أن كثيرا من أسماء بلادنا واسم يوم الأربعاء كما ذكرت مشتق من لفظه « أودين ». أفلا تترون بعد ذلك أن آثار الرجل قد تجاوزت إلى بلادنا ، وأن أفرعا من فروعه قد امتدت إلينا ومن ذلك الجذر ذيك الورق.

فإذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره ، فهذا ظلّه الواسع المديد ما زال ينشر أعلامه على تاريخ الأمم النيوتونية جميعه ، لأنه متى سلمنا أن أودين كان وقتا ما إلها أمكننا أن نفهم أن نظام أفكار الأقدمين أو عندم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ، ولبس هيئة جديدة ، إذ جعل جميع الأمم النيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجل وعلم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورايه رأيهم. وكذلك شأن الرجل الكبير فى كل حين. أو ما تترون فى العقائد الإسكاندنافية التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل « أودين » ؟ نعم الفكر فكر كيفما

كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثا وما تاريخ العالم إلا مجموع سير أبطاله !

بيد أنى أرى فى صورة ذلك التاريخ القديم شيئا مرققا للأفئدة ، وهو إفراط أولئك القوم المتوحشين فى حب بطلهم وإن شاب ذلك الحب سذاجة وعجز. نعم إنه وإن شابه منتهى العجز فلقد كان فى منتهى الوفاء والشرف ، وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الإنسان. وأما لو أمكننى أن أفهمكم ما لم أزل أعتقد منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وزوج تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا. لكان لكم فى ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات. نحن لا نعبد أعظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط فى إجلالهم بل نفتصد يا للأسف فى إجلالنا لهم ألام اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر ، ولكن خلوا العالم من العظماء أشر وأنكر وأدهى وأمر.

وكذلك ترى فى مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلا وقيمة ثمينة ، وهو وإن لم يكن اليوم بحق فقد كان فى يومه حقا. أليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة ، يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا فى الدنيا ، هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهلنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكرا لله الذى رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا إشرافا على كونه وأصبح رؤية ، ولكن لا تحسبوا أنكم بلغت القمة فإن رأيكم وإن فضل رأينا لكنه ما زال جزئيا ناقصا ، والأمر أعظم من أن نتاله مدارك إنسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان. وكأني بالإنسان بعد أن تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض ، لا يزال يجد أن أقصى جهده هو الإمام بطرف من أطراف هذا الكون ، فإن الأمر كما قلت أكبر من الإنسان وليس فى وسعه أن يفهمه ، وكيف وهو شئ عديم النهاية .

الإيمان بأن الكون شئ إلهى مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ، هو عنصر خرافات الإسكندنافية وسائر

الخبر موت. ولعل الوثنية الإسكاندنافية أصدق في هذا الأمر من جميع ما عداها إذ لإخلاص أكبر خواصها. وهذا الإخلاص هو عزائفا على خلو ذلك المذهب مما يزين وثية اليونان من الرقة والتهذيب ، فقد أحس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأمنون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظي ، وقلوب صحيحة مخلصه جمعت بين معنى صفوة والرجولة ، إلى سداجة في شرف إحساس وعمق في نشاط وصفاء وإجلال في شغف وإخلاص في شجاعة ، فله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم. وكذلك ترى أن هذا الإيمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية ، فأما الإيمان بعظمة الإنسان وواجباته الإلهية والأدبية وإن لم يكن مفقوداً من الوثنية ، فهو العنصر الأهم في الأديان والأطهر والأصفى. وكذلك ترى أن الإنسان يذهب في أول أمره إلى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ، ثم يعرف أنه لا قوة في الحقيقة إلا القوة الأدبية وإن أهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والحرم إلا بعد تصرف الدهور الطويلة.

أما من حيث الخرافات المذكورة في كتابهم المسمى الـ «أدا» فهي كما ذكرت آنفا أحدث عهداً من مدة «أدين» ، ولعلها لم تكن في نظر أولئك الأقوام إلا ضرباً من اللهو والفكاهة ولم تكن إنجيلاً لهم ولا تورا. إذ أن العقيدة كما قدمت لا بد أن توجد أولاً ثم تزدهم حولها الأفاصيل الشعرية التفاف الجسد بالروح. ولا أحسب العقيدة الشمالية إلا أنها كانت قبل نظم الأشعار حية فعالة في نفوس أهلها ، وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأنمى كلما كانت أسكت وأصمت.

ومما يرى في كتابهم الـ «أدا» ذلك الكتاب المظلم ، يؤخذ أن رعوس العقائد لم تكن إلا ما يأتي الإيمان بالمنتحيين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل في ساحة الوغى وحومة الحرب ، ثم الإيمان بالقضاء المحتوم وهو أن من قضى عليه أن يموت قتلاً فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ، ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعاً. أليست هذه الثلاثة هي أعظم أصول الشرائع العظمى شريعة لوثر وشريعة محمد ؟ بل أزيدكم وشريعة نابليون

أيضاً ، بل هي سنة الإنسان أينما كان وكيفما كان ، وهي الصلك الذي يؤلف نظام فكره أجمع ، والخيطة الذي منه ينسج ثوب عقيدته. وهؤلاء المنتحيون يسوقون الشجعان الذين قضوا في معترك القتال إلى قاعة «أودين» ، أما الأرقعة الأحمساء والجنباء الأذلاء فينبذون في ديار «هيلا» إنه الموت. هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان أولئك الأقوام يعتقدون أن الشجاعة رأس كل شيء ، وإنها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازب ، وأنهم يستوجبون سخط «أودين» ويستزلون عقابه إذا هم لم يشجعوا في جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون في ذلك معنى عالياً كبيراً ؟ حقا إنه لواجب أبدي وفرض سرمدي حتى اللحظة ، كما كان حقا في تلك العصور أن يكون الإنسان شجاعاً ، وما زال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف. وحقا إنه ينبغي لنا أن نقنع دابر الخوف فإنه لا سبيل إلى العمل حتى نصنع ذلك. فإذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقاً أن تحبث نفسه ويفسد طبعه ، وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وأفكره زوراً وباطلاً لصلورها عن نفس ذليل وقلب جبان. ولذلك أرى أنه لو استخلص لباب المذهب الأوديني من قشوره لألقى حقا إلى هذه الساعة. كيف لا وإنما أول واجبات الإنسان أن يكون كما قدمنا شجاعاً ، وأن يعصى قدما في سنته ، ويكون رجلاً في كل ما يحاول ويحاول. ثم هو في جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره. وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته في كل آن. ولا شك في أن شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جداً ، وقد روى المؤرخ «سنورو» أنهم كانوا يرون الموت في غير مواطن الحرب عاراً وسية.

تسيل على حد الظبية نفوسنا وليسست على غير الظبية تسيل وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيلا فإذا أحس أحدهم دنو الأجل واقتراب الموت الطبيعي ، أحدث الجراح في بدنه تولفا بذلك إلى «أودين» ليفسح له في جناته مقاما. وكان الملوك إذا

أشرفت عليهم منايهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا في سفن ، ثم يرسل السفينة في
اليوم متشورة القلاع تدب في خشب نار بطيئة المسرى ، فإذا انساب بها زأخر
التيار وهبت له الريح ، تاجحت في بدنها النار وطار في أركانها شواظها .
وكذلك يلقي البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح أهواء قبرا - شجاعة وحشية
قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة - وخير من لا شيء . ثم أي نجدة روعاء وهمة
قعباء وأي عزيمة ومضاء قد كانت شوك البحر من أولئك الشماليين ! لكأني
والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلي الشفاه غير شاعرين بأنهم
قد أوتوا منتهى البسالة والنجدة - يكافحون البحر الثائر وعفاريت أمواجه
وشياطين حيتانه ونيبانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهما . أولئك آباء
بحارتنا : رالي وبلاك ونلسون ! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترمع بعضائهم
أعمالهم شاعر كهوميروس ، إلا إنني أرى مآثر أغاممنون (أحد أبطال اليونان في
شعر هوميروس) تتضاءل في جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطال
الشماليين ، رجل مثل « رولف » أو « رولو » أمير نورماندى ذلك الملك
البحرى الفاتك ، فإني أرى له الآن يداً في حكومة إنكلترا وإن كان قد مرت
عنى عهده القرون والدهور .

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان في البحار ومن
الخروب والوقائع أثناء عدة أجيال ، لأن ذلك لم يكن إلا تنازع الرئاسة ليعلم أى
أمة أقوى قسود . ثم رأيت أن من أولئك الملوك الشماليين من كان يلعب قاطع
الشجر ، أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات ، وفى ذلك معنى وأيم
الله كبير . ولقد أخطأ المؤرخ « سكالدر » حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان
أمرهم قاصراً على الحرب ، بدليل أن الحرب وحدها لا ترزق أمة ولا تخرج شعباً ،
وكيف وثارها قليلة ونحيراتها نذرة ! وإننى لأحسب أن انخارب الصادق يكون
كذلك الغابى (١) الصادق ، أعنى أنه يكون أيضاً المصلح الصادق والمفكر الصادق

(١) أعنى قاطع الغاب .

والعامل الصادق ، لا يدع أمراً إلا ويتناوله برفق وصدق ، وما ذلك إلا لأن
الشجاعة الصادقة هى الأساس لكل هذه الأمور ، والشجاعة الصادقة شىء
والقسوة والفظاعة شىء آخر ، فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه
أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشى من قوى الكون ليدللوا لنا
الطبيعة ! أو لم نسر نحن أبناءهم فى ذلك الطريق الذى نهجوه لنا ؟ إذن أفلا يعد
الله تلك اهمة وهاتيك الشجاعة ؟

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة وإجابة القوم إياه ، لإصابة
قوله هوى فى نفوسهم وظنهم أن كلامه وحى جاء به من السماء ، وإنه لذلك
إله - يظهر له أن هذا هو أول بذرة نبتت منها اديانة الشمالية وفروعها من
الخرافات على اختلاف ضروبها وألوانها والرموز الشعرية والقصائد والقصص
والأناشيد والأغاني إلخ . أقول نبتت ! عجباً عجاباً ! إنما يقال نبت للشىء الخى .
وقد قلت إن هذا المذهب الوثنى لم يك إلا ظلمة حالكة يبرق فى جوفها ذهن
أودين كالنجم فى الديجور ، نعم ولكنها ظلمة حية . تدبروا رعاكم الله ذلك .
هذه الظلمة هى الذهن المتوحش الجاهل - ذهن تلك الأمة البربرية الشمالية يصبو
ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر إلى ما شاء الله فى فطنته
ونطقه ! نعم إن الفكر يذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ، ثم لا تزال تنمو وتنمو
كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما لا نهاية
لعددده . وذلك أن البذرة تخرج شجرة ، فأى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض
صار فى الحال جذراً لشجرة جديدة تنبت فروعاً فتصير جذوراً ، وهكذا إلى ما
شاء الله ، والفكر حى لا يموت ، وأول من فكر من الرجال على ظهر هذه
الأرض فهو بادئ الجميع - ثم الثانى والثالث . بل كل مفكر صادق إنما هو من
قبيل « أودين » أو إن شئت فقل إنما هو « أودين » على النكرة ، ثم هو قد بعثه
الله ليعلم الناس رأيه فى الله وفى الكون والإنسان ، لينشر ظل صورته على
أجزاء من تاريخ العالم .

أنفا ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً إلى جهة الشمال» فيستمر الرسول في سبيله حتى يصل باب مملكة ويرى بولدار يجادته ، فإذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه ألا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه . وقد أبت ملكة الموت أن تطلقه ، كلا ولو أرادت ذلك الإلهة طرا . ثم إن امرأته تطلب من أجله أن تموت لنفسه في ديار الموت فيجاب طلبها ، ويبقى الزوجان معا آخر الأبد . ثم يرسل « بولدار » خاتمه إلى « أودين » وترسل زوجته « نانا » خاتمها على سبيل الذكرى - واسفاه ووارحمته ؟

والحقيقة أن الشجاعة ينبوع الرحمة - ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب . وقد قال الميرخ « أهلاند » أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم في إله الرعد رفيقا مؤنسما ؟ وألا تخاف ولا تذعر من رعده ، بل ترى أنه لا بد لحرارة الشمس وللصيف الحار الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالي يرتاح ويستأنس إلى « ثورا » ويحب ويحب سيفه القاذف بالصواعق ، ويلعبه ويداعبه ، وكان ذاك الإله عنده هو إله الحرارة الشمسية أيضا ، أعنى إله العمل والأمن والخير والبركة ، وصاحب الفلاح ورقيقه في الغرس والحرث . ثم إن « ثورا » نفسه لا يرتفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية ، وما يزال يذهب إلى ديار الشياطين ليذلل غفاريث الثلج والجليد ويقهرها ، وفي بعض هذه الأقاويل ما فيه من الفكاهة والضحك .

فمن ذلك ما ذكرنا من أن « ثورا » يذهب إلى ديار « المردة » ليحلب مرجل « هيمير » حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير ، فبدخل عليه « هيمير » شيخ الأبالسة والحيتة مرسعة بالبرد . وكلما رمى ببصره غموذا من الغمء انقلب من حلة نظرتة . وبعد طويل صخب وعريادة يأخذ « ثورا » المرجل فيلبسه في رأسه فإذا هو قد بلغ قدميه ، ذلك لأنه مرجل مارد - « هيمير » الذي كأن كل بقرة من بقره هضبة من الثلج .

فأما مزايا ذلك المذهب الشعري فهذا ما لا موضع له هنا ، كلا ولا كبير أهمية . وقد توجد أشعار نبوية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو أضافها إلى قواعد الدين أناس متأخرون ، وما أحسب أنه قد بقي من أشعارهم إلا الأغاني . وأمثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من يترنم بالأشعار شأن المصورين المحدثين لا يبرحون يصورون ، لا من صميم القلوب كما كان قديما المصورين وكما هو الأصل في التصوير والباعث عليه ، بل ربما ليس من القلوب ألبتة فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جرای » أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب بخيبة الشاعر بون ، إذ ترجم « الإلياذة » فلم يواته الشعر على إسرار روح هوميروس ، وحسب جرای أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروح والرعب فصورها كذلك ، ولم يدرك أن أهم عناصرها هي وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها ، إلى أنس لا وحشة وانسراح لا انقباض ، وشيء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة . وكان القوم غاية في السذاجة لم يميلوا في تصوير آفتهم ووقائع هذه الآلهة إلى ما مال إليه إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية ، فكأنى بأولئك الشماليين لا يجدون في وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهورين مرتعدى الفرائض أمام مدهشات المرسح . ثم يعجبني جدا سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون من أن « ثورا » إله الرعد يقطب جبينه في حق صادق ، ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ، ثم أجد كذلك الرحمة بادية في أجمل مظاهرها في خرافاتهم تلك ، فمن ذلك أن « نولدار » الإله الأبيض إله الشمس الكريم النعم الجميل يموت ، فلم يدعوا في الطبيعة شيئا إلا تقبوا فيه عن دواء . ولكنه مات وقضى الأمر فتبعته أمه « فريجا » رسولا اسمه « هرمودر » ليبحث عنه . ويطوى الرسول تسع ليال وتسعة أيام يحب في أودية منخفضة مظلمة ، ومنعرجات معتمة مشككة ، حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبي . ويقول له الحارس « نعم ، لقد عبر « بولدار » ههنا

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آنسوا داراً ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولوجه فإذا مكان حال فأقاموا به . فلما سجد الليل راعهم ضجيج رضوضاء فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفز للقتال ، وجعل صاحبه يجران هنا وهناك فرعاً يلتصق مخرجاً ، فوجدوا غرفة صغيرة فعادوا بها وأقام ثورا بالباب يترقب عدوا مهاجماً ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارد حسيم ولكنه مسالم . المارد « سكريمير » وكان نائماً ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألحقها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الإبهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يالها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكريمير » صاحبه سحابة اليوم يحمل حقيقتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه اتبه وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلاً : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » يديه جميعاً ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيره وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكريمير » دخل بأصحابه باب حبيقة المردة وكان يوم هو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأساً وسألوه أن يشرب ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثاً طوالاً وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أوماً له إلى قطعة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل - انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها . فعانقها ثورا وجهه وكد فما فعل شيئاً .

ولما هموا بالرحيل تبعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تحجل فإن فى الأمر سرّاً أنا كاشفه لك . فأما الكس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جراً ، ومن ذا الذى يا ثورا

هذه أفكار وأيم الله ماردة هائلة الجسمامة ، غير أنها تحتاج إلى أن تراض وتقبل حتى تصير أفكاراً شاكسيرية ودائنية^(١) وجائنية^(٢) . ثم أتى أبصر نسبة قريبة بين « ثورا » إله الرعد و« حاك » قاتل المردة « وبين « هندائين » و« بين الأحمر » الإيرلندى التى جاءت فى نقاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلخيم العصور الوثنية ، بل إنى لا أجد « هامليت شاكسبير » إلا قرعاً من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا ما لا نزاع فيه ولا ريب ، نعم إن هامليت أو أمليت قد ورد فى خرافة قديمة من أساطير الأولين ، تحدثت عن مقتل ملك يصب السم فى أذنه أثناء نومه إلى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسيرية . خرافة قديمة أخذها أولاً الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منها قصة دانيماركية ، ثم تناول شاكسبير ما صنعه « ساكسو » فصور منها ما ترونه . فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صدفة !

وحقا إن فى هذه الأغاني الشمالية معنى صادقا شريفاً شأن كل قول يتداوله الرواة وتوارثه القرون ، وليس هو مجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ولكنما شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة . وأرى فى قلوب أولئك القدماء جدّاً صادقا وإطراقاً فى غير ضجر ولا شكوى ، وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبدية والإلهام ما رآه الناس فى جميع العصور بالروية والتفكير ، وهو أن الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة ، وكذلك رأى فلاسفة من كل أمة وملة .

نعيش نوم والمنية يقظة المرء بينهما خيال سارى ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظمة ، أن « ثورا » يذهب إلى « أجمارد » - حديقة أرض المردة يصحبه اثنا من أتباعه « ثيالفى » و« لوكى » وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون فى سهول وقفار يرس

(١) نسبة إلى داتى أكبر شعراء إيطاليا وأعظم رجاءاً قاطبة .

(٢) نسبة إلى جانيلى أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجاءاً على الإطلاق .

صخور وأشجار ، حتى إذا حن الليل آسوا داراً ، وكان جانب من جوانبها كله باب فوجدوا فإذا مكان خال فاقاموا به . فلما سجد الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورا » معونه واعتور الباب متحفزاً للقتال ، وجعل صاحبه يجران هنا وهناك فرعاً يلتصق به مخرجاً ، فوجدوا غرفة صغيرة فعادوا بها وأقام ثورا بالباب يتربص عدواً منه جما ولا عذر . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شجيرة مارد حسيمة ولكنه مسالم .. المارد « سكير مير » وكان نائماً ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألصقاها إلى جانبته عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الإيهام ولم يكن للقفازة صوت لسائر الأصابع . يا لها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكير مير » صبحهم سحابة اليوم يحمل حقيقتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه اتبته وحك وجتته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلاً : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » يديه جميعاً ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شجيرة وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكير مير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهو وشراب ، فتناولوا « ثورا » كأساً وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرر فيه ثلاثاً طويلاً وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أومأ له إلى قطعة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد إلا إحدى أقدامها . فقالوا له : ما أنت يا هذا برجلى - انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها . فعاتقها ثورا وجهه وكد فما فعل شيئاً .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تحجل فإن فى الأمر سرّاً أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزراً ، ومن ذا الذى يا ثورا

يستطيع أن يشرب البحر ؟ وأما آخره التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تنتف حول الأرض فتمسك أجزائها وتضم أركانها ، فقل لى أكنت محاولاً يرفعك إياها أن تخرب العالم ؟ وأما العجوز فهذه هى الدهر والفهم والدوام ، ومن ذا الذى يصارع ذلك ؟ لا إنسان ولا إله فإنها غلاية لكل شىء . وأما لضربات الثلاث التى ضربتها فتأويلها أن تنظر إلى هذه الأودية الثلاث « فهى من صنع ضرباتك » فنظر « ثورا » إلى رفيقه فإذا هو المارد « سكير مير » وهذا مارد هو الأرض ذاتها ، وما قفازته إلا أحد الكهوف ، وأملس المارد فلم يبق له ثمر . ثم إن ثورا التفت لينظر حديقة المردة فإذا هى قد صارت هواء ولم يبق إلا صوت المارد يهتف به ساخراً : « أولى لك ألا تعود إلى ديار المردة » .

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الأقاويل النبوية الجدلية ، ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إبريز ؟ نعم ذهب أنقى وأصفى مما يوجد فى خرافات اليونان ، وإن كانت أجود صنعة وأرشق عرضاً . وقد أرى لذلك المارد « سكير مير » فكاهة جميلة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوينة السوداء ، ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » وهى فكاهة تجرى فى دماغنا حسيماً يحيل إلى لأنى أكاد أسمعها الآن من أقاصى غابات أمريكا يصدق بها كاتبها الكبير « أمرسون » .

ومن الرائع الكبير من أفكار القوم ذاك الذى فى الصورة الآتية ، وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخراب الكون ، ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وأبهى ، وأرض أنضج وأحلى ، وإله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعاً . فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة والبعث ، وهذا فيما أراه القانون الأساسى لكل مخلوق أحدثه الدهر وأقامه فى دار الأمل^(١) . قانون قد نفذ إليه نظر ذوى الإخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الإنسان .

بحر الآن إلى الخرافة التي يذكر فيها آخر ظهور « ثورا » في الأرض . . . حكمة هذا الباب ، ولعلها فيما يخيل إلى آخر هذه الخرافات عهداً وفيها انتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من عهود الوثنية . . . سيرة بلاد النرويج ، وهذا فحواها : بينما الملك « أولاف » أمير النرويج تولى كانت له اليد الطولى في هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية في البلاد . سائحاً في حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر إلى ثغر ويثب لعل في الرعية أو يصلح من أمورها ، إذا بغريب بادي الوقار أصهب اللحية نيل الصورة مهيب الطلعة قد طراً ، ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعاه ، ولكنه ما لبث أن غير لهجة كلامه فحاطب الملك قائلاً : نعم أيها الملك « أولاف » ، ما أجمل هذا الشاطئ يزهو في رونق الضحى ، وما أندى حضرتي وأبهى نظرتي . فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان ولكن اذكر أنك ما كنت ممتعاً بذلك لولا ما مهد لك « ثورا » من أمر البلاد ، وما وظأه لك من شأن الملك ، فكم كلفه دونه المردة ، وكم دافع عنه الأبالسة . وكم لاقى في ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصب ، والآن إذا استتب لك الأمر تناسيت « ثورا » ودفت ذكره . فيا أيها الإنسان اتب من رقتك وكن من أمرك على حذر ! « قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك وحاشيته فإذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مسرح العالم !

وإني لأرى باعث حزن وشجن في ذلك الصوت . . . آخر أصوات الوثنية الذي فنى معه « ثورا » والعالم الشمالي بأكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فيلأ الفناء مصيره ، وما من شيء حبيب إلينا عزيز علينا إلا ونجى بالقراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحاس ، ويروعننا بنواه يوم وداع .

وكذلك كان لأولئك الشماليين الإجماع في تقديس الشجاعة (هكذا يمكن أن نعرف وثنيهم) ما كفاهم ديناً وشرعاً ، وما تقديس لشجاعة بالأمر حين ، ثم لا أحسب إلا أن عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آباؤنا شيء مفيد ، ذلك أن الذين لا يبرح منه في نفوسنا - وإن لم نشعر بذلك - أثر ، فشعورنا به حسير أن يجعل صلتنا بالماضي أكد وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضي تعلمون ميراث لنا وأى ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التي هي مجموع كل عصر وكل أمة فعلنا بالجميع نحير من جهلنا به . وقد جاء في كلام « جاتي » أن رجلاً اسمه « مايستر » سأل أستاذه بأى الأديان الثلاثة أنت مؤمن ؟ فأجاب « بجميعها ، لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق » .

إلى إفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر إلا الهيئة التي يكتسونها هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادقان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بهل ومجانين ، وما الحياة إلا سحق وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخاف .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالراء والمرحمة : (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً ألبتة من أقوال أولئك السفهاء ! فإنها تتأليج حيل كفر ، وعصر جحود وإلحاد ، وهي دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح في حياة الأبدان ، ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا والأم ، وهل رأيت قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجيباً ؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الخير والخص والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذي يبنيه بييت وإنما هو تل من الانقراض وكتيب من انحلال المواد ، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تهوار أركانه فيهدم فكانه لم يكن . وإنني لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تحجب طلبته ، وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً ، وعنة

المحاضرة الثانية

(البطل في صورة رسول)

(محمد - الإسلام)

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة .. الوثنية الشمالية إلى دين آخر في أمة أخرى .. دين الإسلام في أمة لعرب ، وما هي إلا نقلة بعيدة وبون شاسع بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره . في هذا الطور الجديد لم ير الناس في بطلهم إلهاً بل رسولا بوحى من الإله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل . فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل : أكان من أي ناس قط أنهم عمدوا إلى رجل يروونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على أن هذا أيضاً لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ متبهي العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وخشية فاحشة . ولكن دعنا نقل إن الرجل العظيم ما يرح في جميع الأزمان لغزاً من الألغاز لا ندري كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا حيل من الأجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبله كإله أو كنبي أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر . ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحية كما لو كان من خلال نافذة . فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعني من ذات الله فهو جنس واحد : « أودين » أو « لوتر » أو « جونسون » أو « بارنز » وأرجو أن أوفق

بوالله - ومصاب أن ينخدع لناس شعوبا وإنما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتمل لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحقيق مصابها بالغير لا به . وأى مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية وأشبابها من الفتن والخن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة ! » .

أما الرجل الكبير خاصة، فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً، فإني أرى الصديق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة . وعندى أنه ما من رجل كبير - ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كرمويل - كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصديق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول . أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء . بل أقول إن الإخلاص - الإخلاص الحر العميق الكبير - هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يقتخر للناس بإخلاصه . كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله - هذا إخلاص سطحي وقح - وهو فى الغالب غرور وفتنة ، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به ، بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلص ، أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد . هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروجه وتهوله .. حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالاتها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقه ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . هو يرى الكون مدهشاً وخيفاً وحقا كالمرت وحقا كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخطوا فى غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنها هى مكتوبة بحروف من الذهب لا شك فيها ولا ريب . ها هى ! ها هى ! فاعرفوا - هذاكم الله - أن هذه هى

أول صفات العظيم ، وهذا حده الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافى الجوهر كريم العنصر .. فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسميه شاعراً أو نبياً أو إلهاً . وسواء هذا أو ذلك أو ذلك فقد نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء .. نعم هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات، وسخيف الأوهام والآراء . كيف ؟ وإن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعراً كان أو فيلسوفاً أو نبياً أو فارساً أو ملكاً ألا تراها ضرباً من الوحي ؟ والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شيء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائق والصغائر . وما الرسائل التى أداها إلا حق صراح وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملقق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفتقر عنها قلب الطبيعة ، فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات - وأى إنسان لا يخطئ - إنما العصمة لله وحده - فإنه ليس فى طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى ، وهى أنه رجل صادق ونبي مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الحقوق ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا الحقائق الكلية - الحقوق - أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ؟ إن أكبر الحقوق عندى أن يحسب المرء أنه يرى من الحقوق . ما بال الناس لا يذكرون نبي الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام ؟ ألا ما أهون أمر الذنوب وأصغر خطر الأغلاط - الجزئيات والقشور - إذا كان ليأبها كريما وسرها حرا شريفا ، وكان فى التوبة النصوح والندم الصادق ووخر الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسينات ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟ إنما ألام الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه يرى من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهى فى نظرى مطلقة من الوفاء والمروعة ، بعيدة عن التقى والبر واحق - أو هى ميتة - أو إن تشأ فقل هى بقية بقاء الرمل الجفاف الميت . وإني أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون فى مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء فى معارج المكرمات ، وعلى حرب العقل والهوى - حربا طالما يتهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركهلقى مشفيا على الانقراض ، ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبدا باليكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذى لا يترج يتحدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الإنسانية !! ما أشد خطبها بين ضعفا وقوة شهواتها ! أو ليست حياة الإنسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عشرة إلا لأخرى وبين هذه وتلك نجيب وعبرات وشهيق وزفرات . وإنما الأمر الهام هو أيفطر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وإنا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام الباب حقا والصميم صحيحا ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان .

* * *

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على غام وفاق فكان غمة شبه قريب بين وعورة جبالها وعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم . وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من

اللين والدمائة كما كان يسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء . وكان الأعرابي صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا تخالها بحرا من الرمل يصطلى بحمة النهار طوله ، ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليلاه .

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط اليد والقفار ، يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكاء القلوب حداد المخاطر خفاف الحركة ثاقبي النظر . وإذا صح أن الفرس هم رنسيو المشرق ، فالعرب ولا شك طليانه . والحق أقول : لقد كان أولئك اعرب قوما أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ . وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مئواه وينحدر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه . ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه القرص . وكان العربى أغلب وقته صامتا فإذا قال أفصح : ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود فى مرارة الجدة وخالفوهم فى حلاوة الشمالك ورقة الظرف وفى ألمعية القرينة وأريحية القلب . وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد ، حيث كانت تقام أسواق التجارة فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأحود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفافة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ، ويجلدون لرناتها أية لذة فيتهاقون على المنشد كالقراش ويتهاكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بخذايرها ، ألا وهى التدين . فإنهم منذ كانوا ما برحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته . فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع

وجوهه . فإن مصوغات الله ما برحت بوجه ما رموزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال ، أو « أسرار الجمال الشعري » ، كما اصطلاح الناس على تسميته ؟ وقد كان هؤلاء العرب علة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه منبع عقلمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد وأى تقوى وإخلاص قد كان هؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق انتقاد أن « سفر أيوب » أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب . ورأى فى هذا الكتاب فضلاً عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسوها - عمومية تخالف التعصب والتحيز . وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بعرق فى كل نفس ، ويمت بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت يفضى إليه متتهى السبل ، وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الأنوف . والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل - حياة الإنسان وفعل الله به فى هذه الدار . وقد أتانا بذلك فى أنصح بيان وأشد إخلاص وأحسن سهولة . وإنى لأتبع فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجمل الخشوع ، فهو الحق من حيث جثته ولنظر الراسب فى قرارة كل شئ وصميم كل أمر - مادي وروحاني . ألا تذكر ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذى أودع الرعد حنجرته » « فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله أجود الاستعارة ، وما أحسب أن فى عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه . ذلك إلى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل . وما قرأت فيه قط إلا حسيت قلب الإنسانية يترغم شجى ووجداً ، ودمع الإنسانية يفيض حرقة وكمداً . فيا لها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة - رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم ، وإلا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار . وما أحسب أن فى جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيسة .

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » . وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال : إنها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاماً . وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » : إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات . فإذا صح ذلك فلا بد أن إنساناً قد بصر به ساقطاً من الجوى ! والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ، تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تفيض .

بلعمومة لا ظل فى صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوم ترى الآل فيها يلطم الآل مائجاً وبارحها اسموم للوجه الطم أطل إذا كافحتها وكأنتى بوهاجها دون اللثام ملثم وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها . والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وصفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التى ترسل كل عام ، والتى يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصاييح ، وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وتوقد تلك المصاييح لتشرق تحت النجوم المشرقة فتعم أثر الماضى هى ! ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ! ومن أقاصى المشرق إلى أخريات المغرب .. ومن دلى إلى مراكش تتوجه أبصار العديد المجمع من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم . نعم لى والله من أجل مراكز المعمورة وأشرف أقطابها .

وإنما من شرف البئر زمزم وقسية الحجر الأسود ومن حج القبائل إلى ذياك المكان ، كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتاً ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها . وموقعها - من حيث هى مدينة -

سوء حاداً ، إذ هي واقعة في بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال ممتدة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يختار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ، ولكن الذي اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم إن أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعي التجارة ، فأول يوم يلتقي فيه الحجيج تلتقي فيه كذلك التجار والباعة . والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم يكن في الحساب . لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل ما مر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال . وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الأرستوقراطية عليها صبغة دينية . ذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظيمة فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة ، وكانت لقريش في عهد محمد ، وأسرته محمد من قبيلة قريش . وكان سائر الأمة مبدداً في أنحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء وربما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف علني إلا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنيتهم مذهب واحد ، وإلا رابطة الدم واللغة . وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طويلاً حاملي الذكر غامضي الشأن - أناسا ذوي مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذي يشاد فيه بذكرهم ويطير في الآفاق صيتهم ، وما ذلك ببعيد . وكأنما كانت وثنيتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال وأذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة - أعني حياة المسيح ووفاته ، وهي التي

حدثت انقلاباً هائلاً في جميع سكان العالم - فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حاضهم أن ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه قبل مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير على قلبه ، وكان يقول ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عنه - وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل .. على أحسن نظام عربي .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه ، وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذلك الذي حدث من قبل هذا التاريخ بضع سنين - رحلة إلى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره - أعني الديانة المسيحية . وإنني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجيوس «بحيرا الراهب» الذي يزعم أن أباً طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما . فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره إلا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها . ولكن الغلام كان له عيتان ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت في ثانيا ضميره ولو غير مفهومة ، ربما ينضجها له كره الغداة ومر العشي ، وتحلها له يد

من فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعن هذه الرحلات
سبيل حمد أوائل خير كثير وفوائد جمّة .

... لا ... شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبداً ، وكانت
... العبد إذ ذاك في بلاد العرب . ويظهر لي أن الحقيقة هي أن
... الخط والقراءة . وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها
... معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ويتلقى بفؤاده من هذا
الكون العاصم ... ، وعجيب وأيم الله أمة محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم
ولا من ... إلا ما تيسر له أن يصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات
صحراء العراء . ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا
حديثها لأنه ... بنفسه غنيا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان
آخر ، ولم ... من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء
والعظماء ... أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية فى ظلمات الدهور — من
كان بين ... بينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ،
ونما هنالك ... بين الطبيعة وبين أفكاره .

ولو ... منذ فتائه أنه كان شابا مفكرا ، وقد سماه رفقاؤه الأمين —
رجل الصدق ، والوفاء — الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا أنه ما
من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة . وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير
الصمت ... حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل
وإخلاص ... لا يتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهته ، وكشف ظلمته ،
وأبان حقيقته ... دافئته . وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيتاه طول
حياته ... ليبدأ صارم العزم بعيد الهم ، كريما برا رعوفا نقياً قاضيا حرا
— رجلا ... مخلصا ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم
البشر والطلافة ... ميد العشرة حلو الإناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على
العموم ... ابتسامته مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون
ابتسامته ... لب أعماله وأحواله — هؤلاء لا يستطيعون أن يتسموا .

وكان محمد جميل الوجه وضئ الضلعة حسن القامة زاهى اللون ، له عينان
سوداوان تتألآن ، وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى يتفخ ويسود فى
حال غضبه ، كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء «لوانترسكوت»
وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبيض فى محمد وأظهر . نعم
لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادقا نثية . كان
ذكى اللب شهم الفؤاد .

ألودعيا كأنما بين جنين — به مصاييح كل ليل بهيم
ممتلئا نارا ونورا . رجلا عظيميا بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذب معلم ، وهو
غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله فى الحياة وحده فى
أعماق الصحراء .

وما ألد وما أوضح قصته مع خديجة وكيف أنه كان أولا يسافر فى تجارات
ها إلى أسواق الشام ، وكيف كان يتجه فى ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة ،
وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو . ولما زوجت منه كانت فى الأربعين
وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه .
ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب
وحدها ومما يطل دعوى القائلين إن محمدا لم يكن صادقا فى رسالته بل كان
ملفقا زورا أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة
المضمنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة
وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا
التاريخ تبدئ حوادثه وشواذه حقيقية كانت أو مختلفة ، وفى هذا توفيت
خديجة . نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يفتن بالعيش الهادئ الساكن . وكان
حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به . ولم يبت إلا
بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان
هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأننا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا شهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وأيم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير أين القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وبجيلة ، وحاناً وبراً ، وحكمة وحجى ، وإربة ونهى — أفكار غير الطمع المنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف وتلك نفس صامته خيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين . فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسرون طبق اعتبارات باطلة ، إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفت بحالوف الأكاذيب ، ويتوشح بعتيق الأباطيل . لقد كان متفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات . لقد كان سر الوجود يسطع لعينه كما قلت بأهواله ومخاوفه ورواقه ومباهره ، لم يك هنالك من الأباطيل ما يجلب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يتاجيه « هأنذا » . فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعية ، فإذا تكلم فكل الأذان برغبتها مصغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام مد عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحلاته وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار : ماذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كوناً ؟ وما هى الحياة وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود لطور أو تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهر ، ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره .

وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه . فقد أحس ذلك الرجل القفرى أن هذه كبرى المسائل وأهم الأمور ، وكل شيء عديم الأهمية فى جانبها . وكان إذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب لفاسد لم يجله . وقد قلت إن أهم خصائص

البطل وأول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال أصره إلى الباطن ، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات بينهاها جيدة كانت أو رديئة . وكان يقول فى نفسه : « هذه الأوثان التى يسمها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء . ما هى إلا رمز له وإشارة إليه . وإلا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع ، وما هى لرجل والأصنام ، وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب . لو عبدها الجحاح من عدنان والأقيال من حمير ؟ أى خير له فى هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ إنه فى واد وهم فى واديهم يعمهون فى ضلالهم ، وهو مثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينه الحقيقة الهائلة . فإما أن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجيبها يا محمد أحب لا بد من أن توجه الجواب . أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثابه ؟ حق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصورالجه ؟ وأين تصوير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيبة مفضض الطرف ؟ أو فى ملك كسرى وتاج دمبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا — إذن فلتضرب صفحاً عن مذبح الجائرين القاتل إن محمداً كاذب ، ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحققاً ، فلتربأ بنفوسنا عنه ولنترفع . وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعاداتهم ، ونعمت العادة — أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد !! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامته ، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية . « هل حبنا تلك عادة ونعمت — فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه فى غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى ، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها . بما كان خلوته ، فقال لها : إنه بفضل الله قد استجلي غامض السر واستبان خامن الأمر ، وإنه قد أنارت

وخلق الشك وبرح الخفاء . وإن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا
 حجارة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه
 حقا ويرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له ، وستار
 لنور الأبدى والرواق السرمدي . الله أكبر والله الحمد : ثم الإسلام وهو
 اسم الأمر لله ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هي
 في الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ،
 ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤم فلنلتقه بوجهه مبسوط ونفس معتبطة
 راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو . ولقد قال شاعر الألمان وأعظم
 عظمائهم « جابتي » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون . نعم كل
 من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم ، وما قيل إن منتهى العقل والحكمة ليس
 في مجرد الإذعان للضرورة - فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما
 يأتيه الإنسان مكرها - بل في اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هي خير ما يقع
 للإنسان وأفضل ما يناله ، وأن الله في ذلك حكمة تلتف عن الأفهام وتدق عن
 الأذهان ، وإنه من الأفن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانا
 لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عن
 إدراكه . وإن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة .
 نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكون وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل
 مصيبا وظافرا وحرًا وكرما وسائرا على النهج الأقوم وسالك سبيل السعادة ما
 دام معتصما بمجلد الله متمسكا بقانون الصبيغة الأكبر الأمكن ، غير مبال بالقوانين
 السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الريح والخسارة . نعم هو ظافر إذا تبع
 ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي الكون ومحير الدهر - وليس بظافر
 إذا فعل غير ذلك . وحقا إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هي الاعتقاد
 بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شيء غيره صالح ! وهذا يا إخواني هو روح

الإسلام ! وهذا هو أيضا روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من
 النصرانية ، والإسلام والنصرانية يأمرانا أن نتوكل على الله قبل كل شيء ، وأن
 نقطع النفس عن الشهوات ونهني القلب عن الهوى ، وألا نجتمع في عنان المنى
 وأن نصير على لبث والأسى . وأن نعرف أننا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من
 الله كل ما قسمه ونعدها يدا بيضاء ونعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال
 وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول « إنا بقسمة الله راضون ولو كان ما
 قسم لنا المتون » .

فمن فضائل الإسلام تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من
 السماء على بنى الأرض . نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل فأنار
 ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران
 والهلاك وقد سماه محمد « عليه السلام » وحياء و « جبريل » وأينا يستطيع أن
 يحدث له أسماء ، ألم يجئ في الإنجيل أن وحى الله يهبنا الفهم والإدراك ؟
 ولا شك أن العم والنفاذ إلى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من أغمض
 الأسرار لا يكاد المنطقيون أن يلمسوا منه إلا قشوره . وقد قال نوفاليس :
 « أليس الإيمان هو المعجزة الحققة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد إذا اشتعلت
 روحه بلهب هذه الحقيقة الناطقة بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على
 الناس علمه لم يترك إلا أمرا بديهيا ، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجاه من
 الخلاك والظلمة ، وكونه قد أصبح مضطرا إلى إظهارها للعالم أجمع - هذا كله هو
 معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصديق الجلي والحق المبين .

ونخيل إليه أن الصالحة خديجة أصغت إليه في دهشة وشك ثم آمنت وقالت
 « إني وربي إنه الحق » . ونتوهم أن محمدا شكر لها ذلك الصنيع ورأى في إيمانها
 بكلمته المخلصة المقدوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من
 قبل ، فإنه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشا من أن يجد له شريكا في
 اعتقاده . ولقد قال نوفاليس : ما رأيت شيئا قط أكد ليقيني وأوثق لاعتقادي من
 انضمام إنسان آخر إلى قبي رأيي . نعم إنه لصنيع أغر ونعمه وفيرة . وكذلك ما

عن محمد يذكر خديجة حتىلقى ربه حتى إن عائشة - زوجه الصغيرة المحبوبة
التي اشتهرت بين المسلمين المناقب والفضائل طول حياتها - هذه
سيدة صديقة الجمال والفتنة سألته ذات يوم أأنت الآن أفضل من خديجة ؟ لقد
« يا أم المؤمنين قد ذهب جمالها وأراك تحبني أكثر مما كنت تحبها .
« يا أم المؤمنين » كلا والله لست أفضل منها ، وكيف وهي التي آمنت بي
« يا أم المؤمنين » ولم يك لي في هذا العالم إلا صديق واحد - وهذا الصديق
هو من به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلى ، وهؤلاء الثلاثة أول من

وحيي يذكر رسالته لهذا ولذا كما يصادف إلا جحوداً وسخرية ،
حتى إنه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى
البعد وبس التشجيع ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث
أدب مادية لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن
يذيعها في سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأبهم بمد
إليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة ، وثب على وكان
غلاماً في السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في أحد لهجة
إنه ذاك النصير والظهير ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعاديه وكلهم
قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ، ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه
غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى
لعجب المضحك ، فانفض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل
كان نهاية في الجد والخطر ! أما على فلا يستعنا إلا أن نجبه وتعتشقه فإنه فتى
شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده بنجدة وحماسة ،
وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة بركة ولطف ورأفة وحنان جدير
بها قرسان الصليب في القرون الوسطى . وقد نل بالكوفة غيلة ، وإنما جنى ذلك
على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله وقال قبل موته حينما

أمر في قاتله « إن أعش فالأمر إلى ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن
تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تغفوا أقرب إلى التقوى » .

وكان في عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش حراس الكعبة وخدمة
لأصنام ، وانضم إليه منهم رجالان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ . وسرى أمر محمد
بطء ولكنه سرعان على كل حال ، وكان عمله بالصبح سيئ الوقع لدى كل
إنسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذي يزعم أنه أعق منا جميعاً ، والذي يعنفنا
ويزمينا بالحق وعبادة الخشب ؟ وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به
وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم وألا يسخط القوم ويشير
غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته . فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس في
يمنى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يطهره الله أو أهلك فيه ما
تركته » . كلا فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها لشيئاً من عنصر الطبيعة ذاتها لا
تنضله الشمس ولا القمر وأى مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن
تظهر برغم الشمس والقمر ما دام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قريش جميعها وبكوه
سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد من أن تظهر ولا يسعها إلا أن تظهر . بذلك
أجاب محمد ، ويقال إنه « اغرورقت عيناه » : لقد أحس من عمه البر والشفقة
ودرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنه أمر صعب المراس مر
الموافق .

واستمر يؤدي الرسالة إلى كل من أصغى إليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة
إقامتهم بمكة ، ويستعمل الأتباع هنا وهناك وهو يلقي أثناء كل ذلك منابذة
ومناوأة ومناصبة بالعداوة وبجاهرة وشرّاً بادية وكامد ، وكانت قرابته تحميه
وتدافع عنه . ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة فوقع خير ذلك العزم
من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه ، فنصبوا له الأشرار وبشوا الحبائل
وأسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم . وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو
طالب ، وتعلمون - أصلحكم الله - أن محمداً ليس بحاجة إلى أن ترثي له وحاله
التيكراء إذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ، ولكن اعرفوا معي أن حاله إذ ذاك

من نخلة والبلاء كما لم ير إنسان قط ، فلقد كان يختبئ في الكهوف ويفر
مشكراً إلى هذا المكان وإلى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تهدده الخوف
وتوعده الهلكات وتغفر له أفواهها لمنايا ، وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى
صغيرة - كاجفال فرس من أفراس ثباع محمد - فلو حدث ذلك لضاع كل
شيء ولكنه أمر محمد - ذلك الأمر العظيم - ما كان لينتهى على مثل تلك
الخال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متآلبين عليه جميعا
وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة قتمروا به ليقتلوه ، وألقى المقام بمكة مستحيلا
هاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة أي مدينة
النبي وهي من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صحور وقفار ، ومن هذه الهجرة
يتبدئ التاريخ في المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهي
السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا
كبيرا ، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا
قفرا وخطة نكراء موحشة ، فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا
ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبه فبهيات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به
من عوابس الخطوب ، ويحيط به من كالحات الحن والملمات . وهكذا شأن كل
إنسان في مثل هذه الأحوال ، وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة
والموعظة الحسنة فقط . فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته
السموية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة له ، حتى أرادوا أن يسكتوه
فلا ينطق بالرسالة - عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم
دفاع عربي ولسان حاله يقول : وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أي
فتيان هيحاء نحن ! رحقا رأى . فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق
وشريعة الصدق ، وأبوا إلا عماديا في ضلالهم يستيحيون الحريم ويهتكون الحرمات
ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر .
وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا . فليجعل الأمر

إذن إلى الحسام المهند والوشيج النجوم وإلى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء !
وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد لم
يسترح غمضة عين ولا مدر فوق ، وكانت النتيجة ما تعلمون !
ولقد قيل كثيرا في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك
دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجرأوا . فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا
السيف ، ولكن ما هو الذي أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأي
الجديد أول ما ينشأ . يكون في رأس رجل واحد والذي يعتقده هو فرد - فرد
ضد العالم أجمع . فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام في وجه الدنيا فقلما والله
يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسما تقتضيه الحال .
أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ؟ وحسبكم ما
فعل شارلمان بقبائل السكسون . وأنا لا أحفل أكان اقتصر الحق بالسيف أم
باللسان أم بأية آلة أخرى . فلندع الحقائق ننشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو
بالتار ، لندعها تكافح وتحاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما
كان يستحق أن يهزم ، وليس في طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها بل ما هو
أحط وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعديل
وما أقسط ، وما كان أعمق جذرا في الحق رآه أعراقا في الطبيعة فذلك هو
الذي ترونه بعد الفرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

أقول الطبيعة أعديل حكم ، بلى ما أعديل وما أعقل وما أرحم وما أحلم .
إنك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب
مخلوطة بقشور تين وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقياء ولكن لا بأس عليك من
ذلك ، وألق الحبوب بجميع ما يخافها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة
فإنها لا تعطيك إلا قسحا خالصا نقياً . فأما القذى فإنها تبلعه في سكون وتدعنه
ولا تذكر عنه كلمة ، وما هي إلا برهة حتى ترى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك
الذهب الإبريز ، والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقياء ، وأغضت ، بل إنها
حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم تشك منها شجوا ولا نصيبا . وهكذا

... في جميع شئونها فهي حق لا باطل، وهي عظيمة وعادلة ورحيمة خنوع،
... لا تشترط في الشيء، لا أن يكون صادق اللباب حراً الصميم، فإذا كان
... حخته وحرصته أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه. فترى لكل شيء
... طبيعة روحاً من الحق. أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو
... شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تحيى فيمما بعد؟ أغنى
... حقيقة مزيج من حق وباطل، نور في ظلام وتحيينا الحقائق في أثواب من
... المنطقية ونظريات عنمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة صحيحة
... ثم لا بد من أن يحيى يوم يظهر فيه نقصها وخطوها وجورها فتموت
... نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبداً ويتخذ
... ظهر وبدناً أشرف، وما يزال ينتقل من الأثواب والأبدان من حسن إلى
... وحيد إلى أجود سنة طبيعة التي لا تبدل. نعم إن جوهر الحقيقة الكريم
... لا يموت، وإنما النقطة العذبة والأمر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة
... قضائها هو هل هذا روح حق وصوت من أعماق الطبيعة؟ وليس بهام
... الطبيعة ما نسميه نقاء شيء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي. ليس
... الأمر عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك هو: أفيك
... فأنا وأكدار أم لا؟ وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا؟ أو بعبارة
... تنبيهية ليس السؤال أمام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا، بل أفيك قمح؟
... أقول بعض الناس إنه نقى؟ إني أقول له «نعم نقى - نقى جداً ولكنك قشر -
... لكنك باطل وأكثوبة وزور وثوب بلا روح، وبمجرد اصطلاح وعادة، وما
... تمتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة، والواقع أنك لا نقى
... ولا غير نقى وإنما أنت لا شيء والطبيعة لا تعرفك وإنما منك براء».

نحن سمينا الإسلام ضرباً من النصرانية، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى
القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لأيقنا أنه كان خيراً
من تلك النصرانية التي كانت إذ ذاك في الشام واليونان وسائر تلك الأقطار
والبلدان - تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بوضائها الكاذبة وتترك

القلب ببطالانها قفراً ميتاً: على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً
، ويفضله فقط آمن الناس بها. وحقا إنها كانت ضرباً كاذباً من النصرانية
كالدعى بين الأصلاء، ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية وليست
بمجرد قضايا قفرة ميتة.

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة، ومن وراء مذاهب اليونان
واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم - نظر من القفار والصحارى
بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الأمر وصميمه فقال في
نفسه: الوثنية باطل، وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها
الذباب أخشاب لا تضر ولا تنفع، وهي منكر وفطيع: كفر لو تعلمون. إنما
الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلقنا ويده حياتكم وموتكم، وهو
أرأف بكم منكم، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم، كنتم تفقهون.

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه، فبريهم النارية لجدير أن
يكون حقاً وجديراً أن يصدق به. وإن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء
الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان - روح
تلبس أثواباً مختلفة وأثوابها متعددة وهي في الحقيقة شيء واحد، واتباع هذه
الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر «الكون» جارياً على قواعد
الخالق تابعا لقوانينه لا يحاول عبثاً أن يقاومها ويدافعها. ولم أعرف قط تعريفاً
للواجب أحسن من هذا، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا
فإن الفلاح في ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح): وجاء محمد
وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخاطب بالحجج الماثرة، وماذا أفاد ذلك
وماذا أثمر؟ أما أنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها،
وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى. لقد جاء الإسلام
على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها، ربح الحق أنه حقيقة
خارجة من قلب الطبيعة وما كاد يظهر الإسلام حتى ارتقت فيه وثنيات العرب

وحديث النصرانية وكل ما لم يكن بحق فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام وذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأدواق في الأمم المختلفة . هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة . ولذلك لا عجب إذا قلت إن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وحبالا من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أدواقهم من الملازمة ، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورواقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم ، وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها ، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستشارة به فى غياهب الحياة . وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالى ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الألوفا من خلق الله وفى قلوبهم اثنى عشر قرناً فى كل آن ولحظة ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب . والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » ومثاله أنه طائفة من الأخاديع والتزويق لفقها محمد لتكون أعتاراً له عما كان يرتكب ويعترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فإننى لأمقت كل من يرمى محمداً بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل ، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها لأفكار الطوال فى اختلاوات الصامتات ،

وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً . وقل ما نطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخصب يعجله عن رؤية القول وتنميق الكلم . ويا لها من خطوط كانت تطيح به وتطير ، فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطياً لرحى حوادث مثلاطمت متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن - حروب مع قريش والكنار ، ومخاصمات بين أصحابه ، وهياج نفسه وثورانها - كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذوق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط . وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر ، يطفو بها الوجد ويرسب ، وتدور بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبه نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتلم الجائش كأنه تنور فكر يغور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقاً وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والإخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حبيته إلى العربى المتوحش ، وهى أولى فضائل الكتاب أياً كان وأخرتها ، وهى منشأ فضائل غيرها بل لا شىء غيرها يمكنه أن يعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته ، ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم . أجل لقد كان محمد فى شئون الحياة عين بصيرة ، ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع أذهانها كل ما أبصره ذهنه ، أنا لا أحفل كثيراً بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأننى أرى لها فى الإنجيل شبيهاً ، ولكنى شديد الإعجاب بالنظر الذى يتفد إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يبدنى ويعجبنى ، وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتیه من يشاء .

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال : حسبكم بالكون معجزة . انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من أين جاء ، وهو مسخر في السماء كل سحابة كمارد أسود ، ثم يسح غمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا . ويعرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا . أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلب لنا وهي فخر لكم ، والسفن - وكثيرا ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليم لها حاد من الريح ، وبيننا تسير إذا هي وقد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح معجزات وأى معجزات بعدها تريدون ؟ أليس أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغرا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل » ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات « وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم ، وتموتون فتصبحون غير موجودين » ثم وهبكم الرحمة « لقد أدهشتني جدا هذه الجملة فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ؟ هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة . وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف الاحكام وأكرم الخصال ، وأتبع في عقله راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا ، أو فارسا بطلا ، أو ملكا جليلا ، أو أى صنف من أصناف البطل .

نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أى معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعظم المفكرين حتى أسم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا الكون الصلب المادى إنما هو فى الحقيقة لا شىء - إنما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر القضاء لا غير . وكان يقول هذه الجبال الشامخات ستتحلل وتذوب مثل السحاب وتفتنى ، وكان يقول الجبال أوتاد الأرض ، وأنها ستفتنى كذلك يوم القيمة ، وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء منثورا فتتعلم . وكان لا يزال واضحا

لعينه سلطان الله على كل شىء ، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورنق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة ، والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يروونه شيئا مقدسا ، بل لا يروونه شيئا واحدا وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية . فسرعان ما تنسينا الكيماويات والخصائيات ما يكمن فى الكائنات من سر الله . وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إنما . وإذا نسيت ذلك فأى الأمور يستحق الذكر ؟ إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية - بقلة ذابطة نعم ، وما أحسب العلوم - لولا ذلك - إلا خشبا يابس ميتا وليس هو بالشجرة النامية ، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح ثمدك بالخشب إثر الخشب فيما ثمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولا إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذيلة .

وقد قيل وكتب كثيرا فى شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جورا وظلما . فإن الذى أباحه محمد لما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعل . والدين المتمدن بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة . إقامة الصلاة خمسا فى اليوم ، والحرمان من الخمر ، وليس كما يزعمون كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولة ، لأنه من أفحش الطعن على بنى آدم والقدر فى أعراضهم أن يهتموا بأن يباعث لهم على محاولة الجلال وإتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة التماس الحلوى من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فإن أحسن آدميين لا يخلو من شىء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر بمئنه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به ، فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى . وليست أمنية أحقر آدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتي عملا شريفا وفعلا محمودا ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم

إنه إنسان فريه سبيل المكرمات والمحامد فإذا هو قد تأجج قلبه حماسا ،
 وأعدت نفسه غيرة ، وصار في الحال بطلا . وما أظلم الذين يتهمون الإنسان
 بغير ما به ميل غصته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة . إنما
 معرفات الإنسان وجاذباته هي الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدم ما
 سمع من زبادة الفضل تلك نارا تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقص ،
 وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعي الشرف والعظمة .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور
 ونخطئ إذا حسبنه رجلا شهويا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ - كلا ، فما
 أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت . لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه
 وما كله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ،
 وربما تابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وإنهم ليدكرون - ونعم ما يذكرون -
 أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرومة ومفخرة ؟ فحبذا محمد
 من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار شاهر الليل ، دائب
 في نشر دين الله غير طامع إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو
 سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وديكم وإلا
 فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توفيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما ، وما
 كان ممكنا أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوفاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون
 به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة
 وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعمر المقادة صعاب الشكيمة .
 فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلکم وأيم
 الله بطل كبير . ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبيل والفضل لما خضعوا له ولا
 أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بناته . وظننى أنه لو كان أتبع ضم بدل
 محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصورجانه ، لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار

ما قاله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون عضمة وهكذا تكون الأبطال .
 وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة - صوت فؤاد يهيم بين الرجاء والخوف
 أن يصعد إلى ربه . ولا نحسب أن شدة تدينه أزلت بفضله ، كلا بل زادت فضلا
 . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزئ غلامه : العين تدمع والقلب
 يوجع ولا نقول ما يستخط الرب . ولما استشهد مولاه زيد « ابن حارثة » في غزوة
 « مؤتة » قال محمد : لقد جاهد زيد في الله حتر جهده ، ولقد لقي الله اليوم
 فلا بأس عليه . ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها - وجدت
 الرجل الكهل الذى دب في رأسه المشيب يذوب نلبه دمعا ! فقالت « ماذا
 أرى ؟ » قال « صديقا يبكى صديقه » مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال تروينا
 في محمد أخا الإنسانية الرحيم - أخانا جميعا الرعوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى
 وأميننا الأول .

والى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا
 رجلا مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه : ولم يك
 متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله
 وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المين قياصرة الروم وكاسرة العجم يرشدهم إلى
 ما يجب عليهم فذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل
 الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل
 كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا
 يفتخر بالثانية . إذا كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره . ولم يكن
 وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل
 اليوم إلى غد . وظلما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير إلى موطن
 القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد والبحر ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يابئ
 إلا يوما . فماذا تنزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حرا .
 وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية ، إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة
 عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

كل ذلك قد حاول في أشد إخلاص وأحد جد أن يخرجهم للناس
عم ، فأخرجهم وصورة في صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثواب لبسته
حقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أى أسلوب
صورة .

حتى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف
روحانية وأعلاها ، فأعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه
، ألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم . وما زال
ذلك ديننا يؤمن به أهله من حبات أفدتهم ، ولا أحسب أن أمة من
الدين اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم — إذ يوقنون به كل
، ويواجهون به الدهر والأبد ، وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة
المرّة « من السائر ؟ » فيجيبه السائر « لا إله إلا الله » وإن كلمة التوحيد
والتهليل لقرن آناء الليل وأطراف النهار في أرواح تلك الملايين الكثيفة ،
الله هاء ذوى الغيرة في الله واتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند
والمالاي فيهدمون أضراليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ، ونعم ما

الله أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيى به من
أمة هامدة وأرضها مدة . وهل كانت إلا فئة من جولة الأعراب حاملة
عرب الغلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ،
الله هم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول قد استحال
والعموض نباحة ، والضعفة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع
الله وعنه ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق
وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح للدولة العرب رجل في
الدين في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبها عديدة ودهورا مديدة
والنبل والمروءة ، والبأس والنجدة وروث الحق والهدى على نصف
وكتاك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة

في في درج الفضل ، وتعرج إلى ذوى خد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها
بيمان . أنتم ترون في حالة أولئك الأعراب وعصمهم ، كأنما قد
واعت من السماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يصر بها فضل ولا يرجى
فيها خير ، فإذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ميت ، وإذا هي قد
انجحت واشتعلت واتصلت تارها بين غرناطة ودهلي ؟ ولطالما قلت إن الرجل
عظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالحطب ، فما هو إلا أن
يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

المحاضرة الثالثة

البطل في صورة شاعر

(دانتي - شاكسبير)

البطل في صورة نبي وبطل في صورة نبي هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمن بعد ذلك تبدأ . وهما يدلان على جفاء في الفكر وغلظة في الفهم يحوهم مجرد تقدم العلوم الطبيعية . ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والإعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه إليها أو ناطقاً بصوت إله ، إلا إذا كانوا عائشين في عصر حال ألبنة من الأوضاع العلمية الطبيعية . نعم لقد انتضى زمن الآهة والأنبياء وجاء الزمن الذي يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وأبهة وإن لم تت أقل فضلاً وحققاً ، أعنى صورة الشاعر ، والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جدير أن تنتج أقدم العصور وأحدثها .

بطل نبي شاعر - إلى غير ذلك من شتى الأسماء نعطيها للرجل العظيم في شتى الأزمان والأمكنة . وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق ، وحسبما برعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العزم ! أو على هذه القاعدة يمكننا أن نعطي كثيراً من الأسماء غير ذلك . وإنني لأوقن بأنني لا أحسب أن هناك رجلاً عظيماً لا يمكنه أن يكون عظيماً في كل فن ، فالشاعر الذي لا يستطيع إلا أن يجلس إلى براعه وقرطاسه فينظم قصيدة ، مستحيل عليه أن ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع إلا إذا كان هو نفسه فارساً أروع . ولا أحسب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع في نفسه بين السياسي والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وإنه قد كان يمكنه أن يكون - بل هو بالفعل - كل هذه . ثم لا أفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل « ميرابو » صاحب القلب الكبير المتوهج ، المتأجج

تاراً ، المفعم دموعاً ، أن يكون شاعراً ينظم القصيد والميكيات التمثيلية والمقطعات ، فيفرغ بها القلوب والأكباد لو قد سافته الأحوال والأسباب إلى ذلك . والأمر الأول الجوهرى هو أن يكون الرجل عظيماً . وإن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعة ، وقد أذكر قواد لويوز الرابع عشر فيخيل إلى أنهم كذلك شعراء . وإن في كلمات القائد تورين ما يماثل أقوال سامويل جونسون حكمة وبلاغة . فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل ، وما كان لأمريئ قط أن يجل ويُعظم بغيرهما . أو لا تذكر أن الشاعرين « بترارك » و « بوكاشيو » كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسنان القيام بذلك ؟ أم لا تحسبون أن الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابو » لأتى ما لم يستطعه ؟ ولا نعلم أى عمل من الأعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند إليه .

ولست أنكر أن لكل امرئ طبيعة خاصة واستعداداً فطرياً ، وأن هنالك فروقاً في الغرائز ، ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر وأكبر . وما عظماء الرجال في ذلك الأمر إلا كأصاغرهم ، فإنك لتتناول الطفل الممكن تصديره أى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجاراً أو بناء ، ومتى أصبح هذا أو ذاك بقى كذلك طول عمره . وإذا كنا لا نزال كما قال « أديسون » نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخيم الجثة شديد القوى عليل الشوى عادى الألواح كأنه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لا يحمل إلا خيطاً وإبرة يخف محمولهما على النملة . على أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعي . وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير ويم يحترف ؟ - يصير غازياً أم سلطاناً أم فيلسوفاً أم شاعراً ؟ إنها المناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وما عليه إلا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيحة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به في شأن الرجل العظيم . إن بين الشاعر وبين النبي في نظر المتأخرين فرق كبير ، ولقد كان مدلولهما في بعض اللغات القديمة واحداً . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبي .

... أنه مازال بين النبي والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح
... واحدا من حيث إن كليهما يتفد بصره إلى سر الكائنات المقدس .
... « جاني » السر الجلي ، الجلي لكل إنسان ولا يكاد يراه مع ذلك
... السر الإلهي الكائن في كل كائن - المستقر في باطن « الظاهر » كما
... « فيشتي » - السر الذي ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة إلى الرياض
... في ظواهر الإنسان وأفعاله ، إلا ثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر . نعم
... السر ينهي في كل زمان ومكان موجود ولا ريب ، وربما أغفله الناس في
... معظم الأوقات والجهات إذ يحسب الكون الذي هو « فكر الله المحقق » شيئا
... عاديا تافها هامدا كأنما هو شيء جامد تولى صنعه التجار والحداد . ولا داعي هنا
... للإكثار في ذلك الموضوع ، ولكني أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك
... ولا يؤمنون به ، ويل بهم وأسف عليهم ، ويا يؤس للحياة إذا كانت غير
... مشفوعة بذلك !

ولكني أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله ، فإن « الفاتيس » أعنى
الشاعر أو النبي يأخذى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ، ولكنه نفذ إليه ببصرته
، وإنما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض .

هذه هي إبداء رسالته إلى الناس أن يخلو لنا غامض السر - ذلك السر الذي
هو إليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق ، فإذا نسوه فقد ذكره مسوقا إلى ذكره
بأقوى دافع من ذات نفسه ، عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر فهو ليس بتابع
لمعتاد القول ولكنه رجل نظارة مبتدئ محقق ، فهو لا يستطيع إلا أن يكون مخلصا
. ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش في صميم الحقائق ، انجهد في
الله الجاد في شئون الحياة والكائنات . ولو عبث العالم طرأ فإخلاص أول
أسباب شاعريته ونبوته ، وهكذا يشترك الشاعر والنبي في إدراك سر الله الجلي
فهما من حيث ذلك واحد .

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبي قد تناول هذا السر المقدس من وجهة
نظر الخير والشر - المحذور والمباح . وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن

والجلال وما شاكل : فأحدهما اضادى إلى ما تفعل . وثانيهما الدال على ما
نعشق . على أنهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان لا يمكن الفصل بينهما وفصم
عروتهم . ولا يخلو النبي أيضا من تتبع الجمال أيا كان ، وإلا فكيف له أن
يصرنا ما يجب علينا إتيانه ؟ ولقد جاء في التوراة - وهو قول نبي - آية حذيرة
أن تحسب كأبدع ما نظم شاعر وهي : « انظر إلى زهر الرياض فإنك لا تراه
يكدح ولا يغزل ولا ينسج ، وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود
الحسن ما لم يكسه سليمان في ريعان سلطانه » أليست هذه الآية ثمرة البصيرة
النافذة إلى أعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون ألوانه في
أقشب من مطارف الأمراء وآنف من حلل الملوك وهي بعد نائمة من الشرى
المواضع والثراب المتطامن ، كأنها عيون الملاح ترنو إليه من خلال بحر الجمال
الباطن . وهل كان للأرض أن تصوغ هذه الأزهار لو لم يكن الجمال جوهرها
رغما من ظاهرها الجعد المتليد ؟ ومن ثم قال « جيتا » قولاً استكره الكثيرون
وهو : « الجمال أفضل من الخير ، والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وإنما قصد
إلى الجمال الحق الذي يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات
« بولونا » ، وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبي .

قليل في شعراء الأعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا
الغاية القصوى . وهذا القول وأيم الله إن كان ظهره الصدق فهو في الواقع
أخلووعة . إذ الحقيقة أنه ليس في جميع الشعراء كام . وإنما الشعر عرق يجري
في طبيعة كل امرئ لا يخلو منه ، وكل إنسان يجد فهم قصيدة فهو في أنشاء
قراءتها شاعر ، وما القواد الذي يرتاع لتلاوة جحيم « دانتى » إلا من طينة فؤاد
ذلك الشاعر وإن كان بعد أقل شاعرية . ولم يك غير شكسبير بقادر على
اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة - حكاية الشاعر « ساكسو
جراماتيكاس » . ولكنه ليس من إنسان إلا ويستطيع أن يصنع قصة ما من تلك
الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو
ضعفه . وأرى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محمود كما

من ولدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه حتى نضع أمره بينهم كالغرة في الفرس البهيم والأبلق وسط الدرهم . حسير أن يسموه شاعراً . وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم فإن من شعراء قد برز في مضمار الشعر حتى بز القراء وحلق في سماء الخيال حتى صار ينظره ، أجمعوا على إجلاله وسموه شاعراً عاماً . على أن مثل هذا الحكم ليس في الحقيقة إلا مسألة ذوق ورأي خاص ، فإن في جميع الشعراء بل في جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك . وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء ثم لا تحسبن أن الأعظم الأفضلين منهم : أمثال شكسبير وهوميروس : إلا ملائقين من النسيان حظوظهم ، ولا بد من يوم يصبح أمرهم فيه نسياً منسياً .

ولسائل أن يسأل : أى فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعري ؟ فالأجوبة على ذلك كثيرة ، ولا سيما ما كتبه نقاد الألمان في ذلك الصدد وفيها الذى لا يفهم لأول وهلة . فمن ذلك قولهم : إن الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ، ثم هو ينفذ هذه الخاصية أعنى عدم النهاية على كل شيء بنفسه أو يصوره . فهذا الكلام وإن لم يكن محكم ولكنه جدير بالذكر ، إذ كان إنما قيل في موضوع مبهم مثل الشعر . ثم هو لا يخلو من بعض المعنى إذا توصل وتدير . أما أنا فإننى أجد معنى جما في التعريف القديم للشعر وهو إنه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى هو ضرب من الغناء . وحقاً لو اضطر الإنسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزاً ذلك التعريف القديم ، فإذا كان نظمك موسيقياً لا في اللفظ فقط بل في اللب والمادة وفي جميع الأفكار والمعاني والنظام والتسق ، فهو شعر وإلا فلا . والمعنى الموسيقى هو ما إذا خرج من ذهن نقاد إلى لباب الشيء وأدرك مكنون سره ، أعنى النغمة الكامنة في جوفه - أعنى ما يستمر في ضمير ذلك الشيء من موسيقى الالتفاف والوثام - من تلك الموسيقى التي ليس إلا بفضلها يوجد ذلك الشيء ويكون أهلاً لأن يوجد في هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شيء موسيقى ، أعنى أنه إذا بدا

للناس بدا في منطق موسيقى ، أى بدا في صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء غويصاً عميقاً ، إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير غناء بالقلم أو باللسان ؟ والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى عمق ، الذى يذهب بنا إلى شواطئ الجهول فيتركنا ننظر برهة في ذلك البحر .

أجل إن في جميع الكلام حتى في أكثره استعمالاً لشيئاً من نظم والغناء . وليس ثمة قرية في العالم مهما حقرت إلا ولأهلها نغمة قد حصر بها منطقهم وكلامهم - فهذه اللهجة هي النغمة التي يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم إن اللهجة ضرب من التشديد والترنم ، وما من قوم إلا ولهم لهجة خصوا بها وإن كانوا لا يقطنون إلا للهجات غيرهم . ثم اذكرو أيضاً أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوباً موسيقياً . بل أرى كلام الغضبان صوتاً من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشيء عميق فهو غناء ، بل يظهر لي أن الغناء هو لبابنا الجوهري ، وإن كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فإنما هو لقائف وقشور وأغلفة ! نعم الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء ، ولقد كانت اليونان تقول في خرافاتها إن للفلك في مسيره موسيقى . ولعل ذلك كان دليلاً على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات اباطنى ونظامها الداخلى ، وإن روح أصواتها وتعبيراتها لم يك إلا غناء وموسيقى . وعلى ذلك فسنسمى الشعر : فكراً موسيقياً ، والشاعر هو الذى يفكر على هذه الصورة . وأساس ذلك هو في الحقيقة قوة الذهن ، وإنه الإخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً . انظر إلى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقياً ، فإن قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك أن تنفذ إليه .

ويظهر لي أن الشاعر - كاشف أسرار الوجود بنغماته - ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جداً عن منزلة النبي ، إذ يرون عمله تافهاً ووظيفته صغيرة . فكان البطل عندهم أولاً إلهاً ثم نبياً ثم شاعراً ، أليس في ذلك دليل على انحسار الرجل العظيم في أنظارنا على توالى الزمن ؟ فإننا نراه أولاً إلهاً ، ثم ذا وحى إلهي ، ثم لا نرى فيه بعد ذلك إلا ناظم أشعار جميلة ورجلاً نابغة وبارعاً وما

أشبه ؟ هذا هو الظاهر لي ولكني أحمل نفسي على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك ، شعورا مني بأنه لا يزال في بني آدم الإجلال المفرط — لم ينقص مثقال ذرة — للعظمة والبطولة في أية هيئة بدت وأي اسم أعطيت .

وقد أعلم أنه إذا كنا الآن لا نرى في الرجل العظيم إليها ولا نبيا ، فما ذلك أن أربنا في الله وفي ينبوع الضياء الأقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الأوفر الأوفر في قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لأنه قد سما وطاب . وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه . ولا أنكر أن الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور قد أحدثت ضررا عظيما في هذا الأمر الأجل الأعلى بإضعافها في نفوس الناس إجلالهم للبطل ، حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للإجلال . وهذه أسيكم الأم العقائد وأنكاهها وأوحىها مغبة . ولن يكون مع اعتقادها إلا اليأس المطلق من الإنسانية وسائر أمورها وأشائها . ومع كل ذلك فانظروا إلى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جنود المدافع . هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم إياه ما لم يصبه كثير من الأنبياء وجبايرة الملوك . ثم انظروا إلى الشاعر بارنز كيف كان إذا اطرده به بحري الخديت استوقف الأميرات وخدم الإضطرابات بسحر بيانه فلم يبق منهم إلا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره ، وأنه هكذا تكون الرجال وإلا فلا ! فترون من ذلك أنه قد كان يكمن في قلوب هؤلاء تقوم و... لم تصرح به ألسنتهم ويمنح من خلال حركاتهم — وإن لم يظهر ساطعا حيا — أنهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لا يجدونها لسائر الرجال ، في ذلك مزج الكثيف الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التي تستوقف العين قرة بهر من الدموع ، وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع ، أو تشعر بحر أيضا بذلك ؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من أدران الشك والاعتقاد وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوما ما — نعم نعم بلست قدوب من رذيلة الإيمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الإيمان بالجوهر

الصادقة ، إذن فأى منزلة تكون مثل الشاعر بارنز في نفوسنا وأي محبة وإكبار تمجيد ؟

وعلى كل ذلك ألا ترون أن لدينا شاعرين هما وإن لم يتالا منزلة الألوهية ، فقد نالا في هذه العصور على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية ؟ نعم إن شاكسير ودانتى لوليان من أولياء الشعر حرام على كل إنسان أن ينال مقامهما الشريف بأدنى إساءة ، وهذه نتيجة وصل إليها العالم بالإلهام والفترة رغما مما قام في طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر . ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية ، وكلاهما قائم في فضاء الدهر كراهب في فضاء القفر له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب في جيله وقومه .

غربته العلى على كثرة الأهم — بل فأضحى في الأقربين غريبا لا مثيل لهما في سائر الشعراء تباركا عن الأنداد والأقرن ، يحفهما في نظير العالم نور من الجلال ورويق من الكمال فهما مقدسان وإن لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس . وهكذا ترون كيف أن ما أودع نفوس البشر من فطرة إجلال البطل ما يزال يحيا في قلوبهم برغم انتشار السحرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر ، وسنلقى نظرة في تاريخ هذين البطلين .

لقد ألقت عدة تراجم لدانتى ، وجملة حواش وشروح لكتابه ، ولكنها على العموم قليلة الثمرة . أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شيء وقد باد معظمه حتى لا يمكن تداركه ، لم يك دانتى في زمانه إلا رجلا صغير الشأن شريدا طريدا مكسور الفؤاد مهيب الجناح قليلا اهتمام الناس به مدة حياته . وأساء من ذلك أن معظم أبناء ذاك الخمول والبلاء تراها على علاقتها قد بادت على ممر خمسة قرون ، وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح ، فكتابه هو جل ما نعرفه عنه . كتابه وصورته المنسوبة إلى المصور « جيوتو » التي إما نظرت إليها لم يسعك إلا الشهادة لصانعها بالإحسان والإحادة أيا كان . أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجود لكبدى وأقرعها لأحشائي ، وأرى آية الحزن والألم وآ -

الغور كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادى فى رقعة المصور منفرداً وحيداً لا يحفه شئ من الأثاث والمتاع ، إلا ما يرفرف عليه من روح الوحشة - أرى كل ذلك عنواناً على تاريخ دانتى ! وظنى أنه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة - وجه محزون مفتت للفؤاد أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان ، لا كما تكون فى الرجل بل كما تكون فى الطفل . ولكن قد خالط هذه المعانى الرقيقة معان أقسى وأمر ، معانى وحشة وسخط وألم فى تجلد وتعزز ويأس فى رفعة وكبرياء . روح رقيقة هواء قد بيست آية البأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر إليه من وراء سحج من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقاراً وازدراء ، لا كازدراء الإنس بل كازدراء الآلهة للشئ الذى يذيب حشاه ويأكل فؤاده ، كأن ذلك الشئ هو أحقر ما يكون وأدنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشئ ، وإن كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب . إنما هو وجه رجل مناذاً للندى مناصب لها معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقاً بضاعتها أبداً نافقة ، ورحى ما تبرح العمر دائرة . وهل هى إلا محبة تحولت حنقا لا يفتر ولا يستريح ، متمهلاً مطرداً ساكناً كحقيق إله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ! هذا هو دانتى ، هذا هو صوت عشرة قرون خرس ، هذا هو الرجل الذى صدى لنا صوتاً عن الجحيم والجنة !

وأرى هناك مطابقة بين ما عرفه عن حياة دانتى وبين صورته وكتابه . ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من أعمال إيطاليا فى عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على أحسن نظام كان إذ ذاك . وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى ، وله قدم راسخة فى بعض أبواب العلم . ولم يدع دانتى فيما نظن شيئاً يتعلم حتى حصله ، وكان ذا فهم صفى مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح . وكان قد أتقن من العلم ما جاء فى الأزمان القريبة من عصره ، فأما ما بعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد إليه سبيلاً لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل . وسلك فى حياته المذاهب المعتادة فصحب جيش بلاده فى حربين .

وذهب مرة سفيراً إلى بعض الولايات ، وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان قد عرف فى طفولته صبية حسناء فى مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها أحياناً وكانت تمتد بينهما صلات على بعد . وكلكم يعرف ما كان من أمره معها ، وما كان من الشتات والفرقة ، ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل : وهى تشغل جزءاً عظيماً من كتاب دانتى ومن حياته أيضاً . ويظهر لى أنه لم يحب قط غيرها إنساناً وكان حبا من صميم الأحشاء . وأن فؤاده ما برح بناحيها - والقبر ما بينه وبينها - ويتزع إليها وهى مع الله ماتت ، وزوج من امرأة أخرى ولكنه لم يسعد . وشتان ما بينه وبين السعادة !

ولسنا متوجعين لدانتى أسفين لما أصابه ، فإنه لولا تلك المصائب لما كان دانتى إلا أحد قضاة بلده ، ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحداً ، ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها ، والعشرة القرون التالية المصغية (لأنه سينم طربعا بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة - كتاب دانتى - وتخسر للذم مسموعها . نعم لا أسف ولا حرقة ولا حسرة ، وكيف وإنما أراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف وأسمى . ولعلنا لا نعرف أيهما الأسعد الأهنأ - عيشته المرة الأليمة ؟ أم عيش هادئ عادى ؟ والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعنى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل .

وبينما دانتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاة ، إذ ثارت فتنة أدت إلى نفيه وسائر حزبه ، فكذب عليه منذ ذاك الشقاء والويل ، وانتزعت أملكه وأصبح وهو :

نساء عن الأهل صقر الكف منفرد كالسيف عرى متناه عن الخلل
وكان يشعر وفى حشاه جمة تتوقد ، بأن ما لقيه من أفحش الظلم وأفظع الجور ، وحاول جهده أن يرجع إلى وطنه وثروته ، ولم يدع وسيلة إلا اتخذها حتى السلاح ، ولكن عبثاً حاول ، وما زاده اجتهاده إلا خطباً على خطب ومحنة

فوق حمة فأهذر دمه ، ونودى متى قبض عليه أعدم إحراقاً . هكذا وجد في بعض الآثار . وألقى أيضاً رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين ، رداً من دانتى على اقتراح قدمه إليه قضاء بلده يعدونه بالعفو والعودة إلى منصبه وأملأه ، إذا هو قبل أن يقدم معذرة وغرامة . فأجاب في عزة وكبرياء « إذا أنا لم أرجع برىء الساحة موفور الكرامة ، فلا رجعت أبداً » .

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار يتنقل من مضيف إلى مضيف ، ومن محل إلى محل ، منطبقاً عليه قوله : آه ما أوعر المسلك وما أحشن الطريق ! » ولم يكن دانتى بالجليس المتع ، وأنى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال ؟ كلا ولا كان دانتى صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجاد والأحزان والأشجان يجدير أن يلهى الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرتة ، وقد روى عنه « بترك » أنه لما كان فى بلاط الأمير « كانديلا سكال » وقد لامه ذلك الأمير على إطراره واكتابه وصمته ، أحابه بحجاب خشن . وكان الأمير إذ ذاك وسط بحانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فأقبل على دانتى يقول له : « أليس عجيباً أن ترى ذلك الماخن المسكين يجتهد ليجمع فى مقاله متاعاً ولذة ، وأنت على ما بك من عقل وحكمة تطوى اليوم فالיום والشهر فالشهر مطرقاً صامتاً لا تقوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتى : « لا عجب . لو لا تذكر المثل : إن الطيور على أشكالها تقع ؟ فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأحوبة للمسكتات والكلمات الموجعات والصمت والإطراق ، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك . وكذلك ما زالت الأيام بدانتى حتى أفهمته أنه أصبح ولا مأوى له على ظهر الأرض ولا ملاذ ولا ملجأ ولا أمل ، وأن الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى أنحائها شريداً .

كانما هو فى حل ومرتعلى موكل بفضاء الأرض يذرعه وإنه ليس تحت نجوم الفلك نلب يتبض رحمة له ، أو حشا يخفق وجداً عليه ، وإنه لا نخل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجاغت جتج بالطبع إلى الآخرة ، وتوجه وامتأ خياله بصورة العالم الأبدى - ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها إلا ظلاً كاذباً يرفرف عليه ، وناجته نفسه : أما وطنك « فلورنس » فلست ناظراً آخر الأبد ، وأما الجحيم والجنة فسوف ترى ! وماذا وطنك والأمراء وماذا العالم والحياة ؟ تلك لا شىء ! وكذلك إذ أصبح دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل . وكذلك أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومراح أفكاره . والآخرة سواء حسبها الناس شيئاً معنوياً أو شيئاً حسياً فإنها ما برحت أهم أمورهم ، ولكن دانتى كان يعتقد أنها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور . فلم يشك دانتى فى أنه سيصير طبقات الجحيم وينظر بها بركة « مالبولوج » كما يشك أحدكم فى أنه يصير القسطنطينية لو أصبح على شاطئ البوسفور . فلما أفعم فؤاد دانتى من هذه الأفكار والخواطر ، وظال عليه تأملها فى سكوت ، وتدبرها فى صمت ، طفح بها إناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر .. كتابه المسمى « القصة المقدسة » أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتى ، بل من أعظم ذواعى الفخر أنه استطاع أن يخرج ذلك الكتاب الأجل فى منفاه ومحنه ، وأنه لم يك فى طاقة « فلورنس » ولا فى قدرة أى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين إتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها . وكان يشعر بعض الشعور أنه عمل جليل كأجل ما يستطيعه امرؤ ، وكان ذلك لبطل الضخم يقول فى شدة بأسائه وأزمة نكرائه إذا أمضيت عزمك ظفرت - كل من سار على الدرب وصل - وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جداً ، وكان نصبها شاقاً حتى قال : « هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » . أجل لقد أحرز دانتى قصبات السبق بالكد والألم لا بالدعة والعبث . بل بالجد العلقمى والجهد الناصب . كيف لا ؟ وإنما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه . وكذلك معظم

نراه إلا كطينين

لمى إننى لأجس
ولعل نزية اللغة
برى على ميزان
وخرجوها من
عمقها وحرارتها
فى كل شىء .
وهذا أيضاً من
حير والجنة .. فى
عامة باذخة على
لمقه دانتى وملاؤه
تنى ؟ وهى أشد
لقد خرجت من

كل نفس
ها هو الرجل
فى جحيم الحزن
كون مصدرها إلا
والفضيلة العليا ..
السوداء . أليست
لم مصفاة النفوس

قبلك بأسبك

الكتب الخلية تنقش يامساء كتابها ، والكتاب مودع سيرته جميعها . وكانت وفاته بعد أن أكمله عملة يسيرة ولما يطعن في السن — وربما قضى في السادسة والخمسين من عمره ضحية الحزن والكمد .. هكذا يقال . وهو الآن مدفون حيث لا تقي مسيته في بلدة « رافينا » . ولما مر على وفاته قرن صب أبناء وطنه حنينة من أهالي « رافينا » فأبوا كل الإباء ، وعلى قبر دنتي هذه الآية : « هأنذا — دانتى — مدفوناً بعيداً عن وطني ومسقط رأسي » .

قلت : إن قصيدة دانتى غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزير عميقاً ، ومعبداً بذلك عين الحقيقة . وقد قال « كولريج » في بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب . تجري في أثناء لفظها حلو النغم : فلا بد من أن تكون ذات معنى جليل شريف ، لأنه ما زال أبداً بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ألفه وشبهه . والشعر القديم الجيد .. شعر هوميروس مثلاً ، كله غناء . بل كل شعر حر غناء . وأن كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت في لفظ طنان فيه عتوق لقواعد النحو ، وأذى ومصاب على القراء . وإذا كان في رأس أحد الناس خاطر فما باله لا يبيديه في عبارة سهلة قريبة .. أعنى في جملة ثرية ؟ بل ما باله لا يستريح أو يخرج ملتوياً معتدً تنطق به القافية ؟ أما أنه لا حق له قط في النظم : الغناء بالقوافي حتى تتمثلت فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد ، فيصبح صوت منطقته بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها موسيقياً . إذن فله علينا أن ندعوه شاعراً ونصغى إليه على أنه غريد الناطقين وهزار اللافتين ، والأدعياء في ذلك كثيرون . ولذلك كانت قراءة النظم على القارئ الأريب عملاً شاقاً إن لم نقل عملاً لا يطاق ! وما أقبح النظم الذي لم يكن هناك ضرورة إلى نظمته .. الذي كان أولى له أن يلقي إلينا معناه في وضوح واختصار من غير تقطيع ولا زينة ولا طنين . وإني أنصح إلى كل من أمكنه أن يقول أفكاره ألا يغنيها ، وأن يفهم أنه لا مجال في الأبحر الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعراً . وكما أن الغناء الحر بلدنا ويطربنا فكذلك الكاذب منه يؤلنا

ويوجعنا ولا يقع منا إلا موقع الضوضاء الموقوتة المنكرة ، ولا نراه إلا كطنين أذيات أو دوى النحل .

وحسب دانتى فخراً أن أقول : إن قصته هي غناء حسن . بلى إني لأجس نوزن الموسيقى يضرد في جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد . ولعل لمزية اللغة الإيطالية دخلا في ذلك ، بل أرى حركة اللسان في تلاوتها تجري على ميزان فكأنها ضرب من لرقص . ولكن السبب الأكبر في ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد ، فحررها ومادتها من الموسيقى . وهي بفضل عمقها وحرارتها وخلاصها موسيقية ، وإنك ما تعمقت قط إلا أصبت الموسيقى في كل شيء . ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب ، وهذا أيضا من حسن الموسيقى . وكأنما أركانها الثلاثة : الجحيم ومكن التطهير والجنة .. في تواجدها الأركان الثلاثة لقصر مشيد ، وكأنها كنيسة قديمة عامة باذخة على وجهها آلة الروح والجلال والهيبة . هذا هو العالم الذي خلقه دانتى وملاؤه بالأرواح بين منعم ومعذب — هذا هو عالم الأرواح خلقه دانتى ؟ وهي أشد أشعار الدنيا إخلاصاً ، فالإخلاص هنا أيضا مقياس الفضل . ولقد خرجت من لباب لبه فهي ما تزان تبلغ لباب ألبانها .

أرغمت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبية إلى كل نفس وكان أهل فيرونا إذا بصروا به في إحدى الطرقات قالوا . ها هو الرجل الذي كان في جهنم ! بلى وحالتي الخلق لقد كان في جهنم .. في جحيم الحزن والكربة والبلاء ، ولقصص التي تخرج من القلوب مقدمة لا يكون مصدرها إلا اشقاء والبئس والبوعة . أوليس الفكر والعمل الحرأيا كان والفضيلة العليا .. أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنها نتجت من لزوجة السوداء . أليست عهودا صادقا كمجهود الأسير إذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصفاة النفوس وراووق للطباع .

وقد هذبتك الحادثات وربما صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

إلا قطعة من صميم عقل الرجل ، وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطيباني الحاد السريع الناري الصامت الشديد القوى ، وحر كاته الرشيدة المقتضية وثوراته الساكنة العظيمة .

لأن التصوير وإن لم يكن من القوى الظاهرية السطحية ، ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه ، أوجد رجلا يحسن الوصف تجد رجلا فاضلا ذا قيمة ، فإنه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن في فؤاده حب يلقيه على ذلك الشيء فيكون سببا إلى التعمق فيه وإنه لم ينظر .. لو لم يكن ذا جد وإخلاص . والرجل العديم الفضل لا يستطيع أن يصف لك شيئا فإنه يضعفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ، ولا يقف إلا عند الأكاذيب الباطلية . أو لا يمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الأشياء ؟ - استبانته بالامتزاج بها الناشئ عن محبتها ولا يحداب نحوها . وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا للولوع بها الذي كله إخلاص لها وصباية إليها . وقديما كان الحب أول هاد إلى خبايا الحقائق . الحب الصادق الصالحى الراكز على أساس العقل والحكمة لا الكاذب التمل الطائر بأجنحة الخديعة والطميش . لأن الحب الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجلية للغوامض المستبطنة للدخائل . ولن ترى الرجل البليد الإحساس الكليل إلا محجوبا عن أسرار الأمور لا يلبس منها سوى القشور . وهذا هو الواقع حتى فى المسائل العملية ، فالرجل الذكى الأريب هو ما أبصر من الأمر المراد إتيانه النقطة الجوهرية ، فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلال الناصع الذى كأنه رهبان الحريق فى الليل البهيم ، هو كل ما يمتاز به وصف دانتى وتصويره ، بل تراه أيضا شريفا جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية أتيت ، ثمرة روح شريفة جليلة . نظروا إلى ما ورد بالقصة من حديث العادة « فرانسيسكا » وعاشقها - ذلك الحديث المذيب الفؤاد المقت الأكباد تجلوه كأنه منسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى ، أو كأنه صوت ناي جم النواح مبجوح الأنين يناجى حبات القلوب

بلى يحيل إلى أن شعر دانتى قد سبك فى تنور روحه ، وبودقة قلبه . أم يتركه « مبدأ » عدة سنين ؟ وأن الدقة لتعثر قصته جميعها لم تغادر منها فقرة ولا جملة . فتراها لذلك أصدق ما يكون وأجلى وأنصع ، وتراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر أنعم نحته وأجيد صقله . وهل هى « روح دانتى » تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون من أبدع قوالب الشعر وأعجب . وثنا لله ما هو بالعمل السهل وإنما أمر عظيم وخطب جليل . . . حبه أمر نفذ وعمل أكمل .

ولعل حدة هى مميزات دانتى ، فما هو بالرجل الواسع الصدر السمع النفس ولكنه رجل خبيق الطعن متحيز . . . بعض هذا راجع إلى طبيعة العصر ، وبعضه إلى طبيعة . . . فترى أن ملكات دانتى وقواه الذهنية قد تجمعت وتكتفت حتى أصبحت حدة نارية ، وشعورا عميقا فهو ينفذ فى جسم كل شيء حتى يرسب فى قرنته . ولست والله أعرف فى الوجود شيئا له مثل هذه الحدة . انظروا إلى تصويره الأشياء أبروا أن له أقوى قوة بصرية ، فإذا نظر إلى الشيء عرف حقيقة فادها وحده ، وتذكرون صفته لقاعة « دانت » بالحجيم إذ قال : « ذروة حمراء ! حديدة محماة جهرية التوقد مخروطية ، تنهوج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصع هذا الوصف وما بينه وما أوضحه لأول وهلة ، ثم إلى الأبد : وهذا عنوان الرجل فإن فى دانتى لأخصر إنجاز واقتضاب فى دقة وإحكام ، وإنه ليقذف بالحلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى . . ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول .

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ما أرى شئ تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها ، حتى ليخيل إلى أنه يحز فى الشئ بقلم من نار ، فيقول عن المارد المنتفخ حينما ارعوى لزجر فرجيل : « إنه كالشراع الخطم عموده بغثة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول : « بوجه مشوى » ثم انظروا ما ذكره من (الثلج الناري) المتساقط على المعذبين (تلج ناري بلا روح بطيء مصمم دائب لا يننى ولا ينتهى) ولا أحسب هذا التصوير

بـ رقة الشكوى وذلة الوهنى ورتة التكللى . وأشجى ما فيه أن الحبيبين
عذاب الجحيم معا ، فحبذا ذاك الاجتماع سلوة فى الشقاء وعزاء فى
الحر . لقد كان الشاعر صديق والد « فرانسسكا » هذه ، ورعا جلست تلك
فى ركة دانتى صيبة بريفة من كل عيب حسناء سمحاء ، ولكنها إذا
ماتت فى حياتها أبى دانتى إلا عدل الجزاء فجعلها فى جحيمه بحيث تعلمون .
بـ شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبتها . يا لها رحمة
فى قسوة ، وعفو فى شدة ، وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن إدراكها دانتى .
بـ أقبل رأى القائلين بأن كتاب دانتى لم يكن إلا هجاء فاحشا أراد أن يسئ به
إلى من أعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم . وأحسب لو أن رجلا حمل فى قلبه
حنان الأم الرعوم ورأفتها فذاك هو دانتى . ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف
الرحمة أيضا ، والذي تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة حين أو تصنع للرحمة قصد
الافتخار . وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دانتى ولا أكثر حبا ، وإن بين
جنبه لحشا خفاقا ، ووجدأ وإشفاقا ، وفؤادا ملتاعا ، وولها ونزاعا ، كحنين
النايات والعيدان لينا لينا ، أو كمهجة الطفل . ويشوب كل ذلك مرارة الحنق
ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الخط وعثرة الجذ وجور القضاء ولؤم
الزمن ، وصباية وحنين إلى حبيبته « بياتريس » ولقاءهما فى الجنة ، ونظره فى
عينيهما النجلاوين تشرفان بشعاع النور المقدس - وقربه منها .. من الغادة التى
طهرتها حياض الفردوس وصفاء الأبدية . كل هذا شبيه عندى بأغاني الملائكة .
ولعله أصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شيء ، فلقد نفذ بجدته إلى كل جوهر
ولب . وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل إلا ما يعثور
جميع ملكاته من الحدة . وهو فوق كل ذلك كبيرا من حيث الصلاح والنقى
وذلك أساسه وعنصره . فاحتقاره للدينية عظيم ، وأسفه على أولى البؤس والبلاء
عظيم كعظمة حبه ووده . وهل الأسف والاحتقار إلا حب قلب تحول عن جهته
وأحيل عن طبيعته . ويقول فى كتابه عن الجنة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم

: « لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة إليهم ثم نضرب صفحا » . يا له احتقار
فى ترفع ونفرة فى سكوت وأنفة فى صمت وإعراض ثم قوله يذكر فئة من
المعذنين : « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل إلى أن دانتى يعرض بنفسه
فى هذه الجملة ، فلقد أتى عليه حين من الدهر كان قد يئس من الراحة حتى
راحة الموت . ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكسوم شعاع أمل أنه
سيلقى بعد كل ذنب الجهد والمصائب والكمد راحة القبر ، وأن القضاء نفسه
لا يمكنه أن يجرمه « هذه النعمة » . مثل هذه الكلمات كانت فى ذلك الرجل ،
وأراه فى الحدة والنشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظير إلا فى أنبياء
بنى إسرائيل . فإذا أردت مثل كلامه فانظر فى التوراة العبرانية .

ولا أوافق قوما يفضلون الجحيم فى قصة دانتى على قسميها الآخرين ،
ومرجع هذا التفضيل هو فى ظنى « بيرونية »^(١) فى الشرق والمشرق . ولعل
القسم الثانى « مكان التطهير » أبرع من الجحيم وأسمى . أجل ما أشرف ذلك
الجل - جبل التطهير - فهو رمز لأشرف أفكار هذا العصر .. رمز لبراعة الإنسان
بالتوبة . وإذا كانت الذنوب من وخامة العقوبة كما تعلمون ، والجحيم من
العذاب والألم كما تعهدون ، أليس جديراً أن يكون فى التوبة منجاة للمذنب
وبراة ؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية . ثم ما أبدع ما وصفها دانتى وأبرع ، إذ
قال : إنه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق أمواه تترقق ، ولمع
أمواج تهتز وتنفق فى بريق الصباح ولمع الضحى . فهذه صورة تدل على تحسن
الحال ، وهذا ولا شك فجر الأمل والرجاء قد لاح ، والأمل حى لا يموت وأشد
ما يكون فى الحزن ، كالشهاب أسطع ما يكون فى فحمة الديجور .

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلي
وهناك حين يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون الثابون وقمة الجبل
فى عليين دونها باب الجنة . وماتنى أنفاس هؤلاء الثابين المستغفرين تنصاعد إلى

(١) نسبة إلى بيرون - يراد طريقة بيرون وهى كراهة العالم .

مرش الله ويقولون لدانتى حين يرونها : استغفر لنا ربك . ولا يأكلون فى ذلك الجبل صعوداً وارتقاءً ومشقةً وغناءً ، وقد أدنى الكلال خطاهم وأنضى الكد أدانهم وأسوأ وشاحوا فى ذلك الصعود ولما بلغوا القمة . ولكنهم مواظبون وحادون حتى يبلغوها وعند باب الفردوس ، وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين . وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع ، وترنح الجبل غرباً ووجف سروراً وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا فى نظرى تصوير لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الأخريين وأرى « الفردوس » أحد أركانها موسيقيا صامتا وغناء ساكنا ، وهى المنكرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ، ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثل نصرانية القرون الوسطى ، وهو شئ جليل حر الجوهر طول الدهر . ولعله لم يتمثل فى نفس إنسان كما تمثل فى نفس دانتى ، إذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحي فى الحجر . وما دانتى إلا نبي أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر . وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية إلى العالم الخفى ، حتى لنجدنا بعد سبعة أبيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لا ريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى ، وما كانت الحياة الدنيا عنده إلا سبيلاً إلى حياة أخرى خير وأبقى . ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ، ولا الآخرة بأقل حقا من الدنيا . وإذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم أرواح . أو ليس فى كل امرئ روح ؟ نعم لقد كان ذلك بينا له جلياً ، ولقد كان يعتقد وينظره ، فهو من أجل ذلك شاعره ، والإخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتى وجنته ومظهرهما إنما هما فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون . ولعل ناقدًا يقوم فيقول لنا ما قصة دانتى إلا ألحوبة شعرية وضرب من

اللاهوت والعبث . كلا والله إنما هى أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهى تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتى من أن الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذان عليهما مدار كل شئ . وإن الخلاف بينهما ليس هو أن الخير أفضل من الشر . مذهب المثاليين الذين يرجعون فى كل أمر إلى الحساب والوزن والمكسب والخسارة ، بل إن الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب ، وأن الشر هو الخبيث المحرم إتيانه تحريماً كلياً لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل ، فأحدهما للآخر كالحياة للموت ، كالجنة للنار . نعم ما شعر دانتى إلا رمز لذلك ، ورمز للعدل السرمدى والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت فى تلك القرون رمز . ولكنها فى نظر دانتى ونظر تلك الأجيال عين الحقيقة التى لا ريب فيها ولا شك ولا نزاع ، التى يعتقدونها الناس من صميم أفئدتهم . ولقد قلنا من قبل إن الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والأقاصيص المنظومة . ولا أحسب أن أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتى مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا إليه وبمجرد عبث وصنعة ، فإذا رأى ذلك أهل العصور الآتية فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية إنها البيان الحق لما كان يجيش فى صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه — بيان كان فى وقته حقاً صادقاً ، وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية — فرقا كبيراً لم تكن الوثنية إلا تمثيلاً لظواهر الكون وأفعال الطبيعة ، وحياة الإنسان وطبائع الأشياء وتقلباتها ، وتصرفات شئونهما واختلاطهما فى هذه الدنيا . وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب الإنسانى — قانون الأخلاق والآداب . فكانت إحداهما للطبيعة الحسية بياناً عاجزاً ساذجاً لأفكار الإنسان الأولية ، إذ كان أهم الفضائل هى المشجاعة — الاستعلاء على الخوف . ولم تكن الأخرى للعالم الحسى بل للعالم الأخلاقى ، فإن لم يكن من الفرق سوى ذلك فأى فضل بين وارتقاء عظيم .

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصر دانتى صوتها فى ذلك الشاعر الكبير ولسانها ، و« القصة المقدسة » من براع دانتى ولكنها فى

منه بمائة عشرة قرون نصرانية ، وإنما أنعمها ذاتي وأكملها . وتلك ما زالت
تستأجر الخداد بالآلاته وأدواته وصنعتة وحذفه .. قل والله نصيبه هو فيما
من رائع صنعتة . وإنما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعي
الآلات ، مشغى أساليبها وأبوابها ، وكلهم قد صنع معه ما صنع ، وتلك هي
في كل أمر . فذاثي هو لسان القرن الوسطي ، ومن خلال سطروره يلذ
تصورات أفكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء . ويرى
من بعد موسيقيا أبدى ما دعا الله داع وما ترغم في الأيك مسجاع . وما
تست سامية الجميلة الرائعة إلا ثمرة ما ذكر جميع الصالحين من قبله ، ولو
توشت ، وهل خلا هو من الفضل ؟ أما إنه لو لم ينطق لبقى الطيب
من تكمه الأفكار كماثا مكتوما - لا أقول ميتا : بل حيا صامتا .

١. متى ذكر حال أليس هذا الغناء للغزى هو غناء روح من أكبر الأرواح ،
٢. حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتى شيء خلاف الوثنية
٣. خلاف النصرانية التي هدمها الإسلام بقصرى الشام — وإنما هي أجل
٤. عتق الناس انبرى لها ذلك الشاعر فغناها وألبسها ثوبا لا يليه الدهر .

تبقى على الزمن الباقي من الزمن : أليس خليفا بنا أن نفرح بذلك الكتاب
الذي يتتبع به سبيل الآلاف المؤلفة من السنين ، لأن فرقا عظيما بين ما
منعنا من تعمق أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها ، فالخارجي هو
الذي يولد مع الصبح وتموت مع المساء ، وتزول كالظلال بزوال
الشمس ، وما تزال تتلون وتشكل بتلون الصروف وتشكل الأحوال .
والذي يولد في غد وآخر الأبد وما يزال ذوو النفوس الحرة
في كل زمان ومكان يجدون في ذاتي هذا أخا وصديقا وحلا
من روجه وأرواحهم من النسب ، وبين قلبه وقلوبهم من الصلة

وَمَا يَكُنْ نَسَبُ هُنَاكَ فَمِلُونَا مَاءٌ تُحَدِّرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعا من أصل واحد ، أصبح
الأمم الذي يقدح في نفسه كذلك في نفوسهم ، والأمل الذي يرب في روحه
يذب أيضا في أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالنار والعيان إذا حن وهتف خفقت
جوابا وأنت وعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح في منفاه بسانت هيلينا إلى
قصيد هوميروس ويسر جدا بما فيه من الحق والصدق . وبين القارئ والمقروء كما
تعلمون عدد نسئين ، وأقوال أنبياء الله الأقدمين ما تريح تخالط نفوسنا لخروجها
من نفوس قائلها ، وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر عبوده الوحيد .
ودانتى في عمق الإخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء ، وأقواله كأقوالهم خارجة من
القلب . ولا عجب إذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلص شيء أخرجه
أوربا لأنه ليس أخلص من كلمة الحق شيء . وكل ما بالقارة الأوربية من كنائس
ومعابد ونحاس وحديد ومبان مشيدة وثيقة ، فمهم بلغت من المثانة والرسوخ
فهى قصيرة العمر في جانب غناء قلبي كهذا . وظنى أنه سيبقى حبيبا إلى القلوب
شهيا إلى النفوس وقد زالت جميع هذه الأشياء عن أوضاعها ، وليست محدثة
وتألفت في تراكيب جديدة وانعدمت ذاتها وإن لم تنعدم مادتها . وإن ما
صنعت أوربا وما أتت لكثير جدا : مدن كبيرة بدول مجيدة وعقائد وشرائع
وطوائف ، آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قيسى آية دانتى إلا شيئا قليلا .
ودلكم هوميروس حتى الآن يخاطبكم وجها لوجه . ولكن أين دولة اليونان ؟
بادت من القرون العديدة ، وذهبت وزالت ولم يبق منها إلا كتب أنقاض إن
تسلها عن سائف مجدها لم تحر غير السكوت جوابا . حلم كان ومضى . دولة
أصبحت فى الشرق . كأنها رفات أميرها أغاممنون ! وكذلك قد كانت
اليونان ، وهى اليوم لا تكون إلا ما نطقت .

وماذا نقول للقوم السائلين : « ما فوائد دائتي ١٩ » إنه سؤال غريب لا يسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب . حسبنا القول بأن العقل الذي أمكنه أن ينغمس في عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمت غناء حسنا ، جدير أن يكون قد أثر أكبر لأثر في صميم الحياة وقلب الوجود . وإنه ما زال دال الدهر ينبوع

سبیر
سان
عالیہ
کل
بہا
—
ادی
ی .

سبیر
حولم
ری
لاق
حولا
شش

من
لها
أ
هر
ن
نزه
ت
سلا

الغناء لما فى النفوس من جذور كل خير ومكرمة ، يغذيها بطريقة لا يهتدى إلى فاسدها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس مقدار ما تسقط عنا من نفقات الشمع والبتروزل ؟ والخلاصة إن دانتى أجل من أن أقدر قيمته .

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا ، نراه نحن أنه تأثيرهم — تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ، ... كل امرئ صنعه فما ثمرته إلا حسب عناية غيره وسيثمر ثمرته . وليس ... أخرجت أعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب ... الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفاة ، أم ... غارية من كل هذه — خفية صامتة — نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه ... هى الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة إلا ما أحسن ، وإذا ... أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فإنها كاهباء ، وما ... الملك إلا أكذوبة وباطل وحرص هالك وسقط متاع مهما أحدثت أعماله ... من الضجة والجلبة ، ومهما قل من مضارب السيوف وأدار من أقداح ... ومهما قبض من الآجال والأموال ، وملك من أعنة الرجال والأحوال فى الحقيقة لم يكن . ألا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! ... الله من عالم ودولة ! لا يريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ... من الصراخ وأجدى ، وخير من الضجة وأبقى .

كما أن الله أرسل دانتى ليصور لنا فى أشجى الغناء والنغم ديانة القرون ... أو حياتها الباطنة . فكذلك أرسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة ... كما كانت إذ ذاك ، وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة والمروعة ، ... المشارب والمطامع والمطامح ، والأساليب الدنيوية للتفكير والعمل ... كما أنا نبصر فى هوميروس يونان القديمة ، فكذلك سيكون شاكسبير ... آلاف السنين المعرض الواضح لأوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية

ودنيوية ، نعم لكن يك دانتى أدى إلينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن . وكأن الله أبى إلا أن نعطي لبدن أيضا فأعطاناه على لسان شاكسبير . وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى — تلك الحياة الشريفة العالية — حد الكمال ، وآذنت بالاضمحلال السريع أو البطيء كما نراها الآن فى كل مكان ، أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم التسميم فى الشجر ، وغرد الببل فى القمر . رجلا كفتان — دانتى عميق حاد فائر كأنه ما يحجوف الأرض من النار ، وشاكسبير واسع هادئ بعيد مرمى البصر قصى مدى النظر ، كأنه الشمس نور الأرض الظاهري . أحدهما ثمرة إيطاليا ، والثانى بمحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقط الصدفة إلينا ذلك الرجل ؟ وظنى أن شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس بحيث إنه لو لم يخرج من قريته بسبب ما أتى من سرقة الغزلان ، لكان له فى عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ما عداهما . وكان قد عاش ومات ولم تفتح أغلاق خزائنه ، ولم تكشف أسرار دفائنه ، فحرم العالم أكبر شعرائه قاطبة . نعم لولا تشرده عن وطنه لذلك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروى . ولكن إن كان شاكسبير هذا قد جاءنا عفواً ، ألم يجئ ذلك العصر — عصر الإصابات — أيضا عفواً كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحيى وتذبل وتنضّر ، كالشجرة التى جعلها الوثنيون فى الشمال رمزاً للحياة الدنيا — ولكنها تذبل وتنضّر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين أزلية ونواميس أبدية ، لا تظهر عليها ورقة إلا بميقات : لا يظهر عليها بطل إلا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الأسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق إلا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات أجمع ، مستحيل فصله عن سائر الأجزاء . وليست كلمة أو فعلة لرجل ما إلا ومنشؤها العالم أجمع . ولا بد أن تعود بالتأثير آجلاً

« لا ظاهراً أو باطناً في العالم أجمع . أجل ، هـى شجرة « أجدر أن تزيل »
« أرسلها في مملكة الموت وذرى فروعها في الجنان ! »

• مهد إليصابات هذا وشاكسبير من بعض الوجوه ثمرة العصور السالفة -
• إلى كاثوليكية القرون الوسطى . وإنما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية
• من بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التي سجع بها دانتى . لأن الدين
• إذ ذاك كما هو الآن وكما يكون في كل آن روح العمل - كان الحقيقة
• الجوهرية في حياة البشر . ومن العجب أن ظهور شاكسبير لم يكن إلا
• « تسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التي شاكسبير من ثرائها - بقدر
• استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ ديناً وثيق العرى - ومع ذلك فقد ظهر
• برغم البرلمانات ولوائحها . لقد أرسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال
• بالبرلمانات . فإن للملوك والأميرات مذهباً وللطبيعة كذلك مذهباً .
• البرلمانية حقيرة برغم ما تحدث من الجحلة والدوى . إذ أى لائحة أو
• كانت قادرة على إخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا اللوائح بالقصور ،
• صحائف الاشتراك ، ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطين الحق
• ! إنما جاد ذلك العصر الإليزابيثي بمجده وشرفه من غير ما ظلالع
• ، ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شاكسبير منحة
• جائزة الدهر ، أدها إلينا الحظ في سكوت ، فتناولناه في سكوت . كأنما
• صغير الشأن قليل الخطر ، وإنه في الواقع النعمة لا تقدر ، وإنه لا يحسد
• ولا يحصر .

• « سفوة الأدباء في جميع الأقطار الأوروبية ، وأعظم الفحول من النقاد
• والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن شاكسبير سيد شعراء العالم
• الأطلاق . والحق أقول : إنى لا أعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة
• القوى إذا تأملنا جميع صفاته في أى إنسان آخر . تبارك والله تعالى عن
• الك العمق الساكن والنفس الجليلة الصافية تتردى في جوفها صور جميع
• الإنسانية واضحة كأنها البحر العميق . وقد قيل إن في تركيب روايات

شاكسبير - فضلاً عن سائر الفضائل والمزايا - آية على أنهم مماثل لما جاء في
كتب بالون « النظام الجديد » « نوفام أورجنام » وهذا حق ولا غرابة فيه ،
وربما كان أئين إذا نظرنا إلى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العارية الجافة التي
أحدث منها شاكسبير رواياته البارة الرائعة ، واجتهد أحدنا أن يصنع من تلك
المواد اليابسة ثمينة ما صنع ذلك الشاعر الأكبر ! حجارة وأخشاب وحديد
مذاكم بعضها فوق بعض في أفسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل
قصراً موثق الأركان ، مونتق البنيان ، تتلى في أصغر أجزائه آية الأحكام
والصناعة ، حيثما ألفت البصر لم تلق إلا إتقاناً وإحساناً ، فكأنما ظهر في الدنيا
وحده بقانون أبدى في فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى . وما هو إلا أن ننظر
إليه حتى ننسى الانقراض المبعثرة والأخلاق المشوشة التي صاغ منها وصور ، وإن
كمال تلك الصناعة التي كأنها صنعة الطبيعة نفسها لنحنى فضل الصانع وتغيبه .
ولنا أن نصف شاكسبير في ذلك بأنه أكمل من كل إنسان وفوق كل امرئ
بطبقات ، فإنه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال ، والمواد التي يصوغ
بها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والأحوال ، وما نظرقه
في ذلك بالسرعة القصيرة ، ولا غناء في تلك ، وإنما نظرة طويلة حمة الشعاع
غزيرة الضياء ينير إشراقها الموضوع كله - وعين ذات إبطار دائم - ساج
ساكن ، أو بالاختصار عقل كبير . وعسى أصبح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن
تجعله يصف لك في قصة أمرا جليلاً كان أبصره ، فنظر أى تمثيل وصورة يقدم
لك ، وأى حادثة هـى في نظره أعظم وأجل فيبرزها ، وأى أمر أدنى وأقل
فيخفيه ، وما هو أحسن ابتداء واستهلال ، وأعجب غلص وانتقال ، وماذا أبرع
تقسيم وتبويب ، وأبدع تنسيق وترتيب . وكيف يكون حسن الغاية ، وجودة
النهاية ؟ فإذا حملت الرجل على إبداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد ،
وكددت أسباب عقله منتهى الكد ، إذ لا بد له أن يهـم الشيء الذى يحاوله ،
ويبصر الأمر الذى يزاوله ، وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أتراه
يضع الكلام في مواضعه ؟ ويجعل اللفظ إلى لفته وقريبه ، والمعنى إلى شكله

وسببه ؟ وهل أرسل روح النظام في تلك الأنقاض المبعثرة والأحطاط المشوشة
مردم الفوضى نظاما ، والخلاف ودماء ، وألف أعناق الشوارد ، وجمل شمل
! وهل أمكنه أن يقول للشيء كن فيكون ؟ هل أمكنه أن يقول ليكن ثم
شيء تحول به عالم السديم نظاما ؟ أما إنه ليستطيع ذلك لو كان الضياء في عقله
والشعاع في نفسه .

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضا براعة تصويره للأشخاص والأشياء ،
لا سيما الأشخاص . نعم لشدة ما تنجلي عظمته في ذلك وتستبين . ولا
أحسب أن إنسانا يمثله في تلك القوة المخترعة الخادعة . فإذا نظر إلى الشيء لم
ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم له . فكان ذلك المنظور يتحلل
أمامه في ذوب من الضياء فتتكشف به دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمى
ذلك إبداعا واختراعا وخلقا - خلقا شعريا وما هو - لو تأملت - إلا النظر الدقيق
المستوعب للشيء الخفي بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب الخفي
استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا . ثم أما ترون في
شاكسبير أيضا فضائل الحكمة والعظة ، العبرة والشجاعة ، والمروءة والصرافة ،
والحلم والعفو ، والصدق والصدق ، تلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذلة
العقبات ، اغازمة المشتقات للخروج من كل قحمة عزاء ، وورطة تكراء . عظمة
ويمين الله في سعة السموات والأرضين ، وعقل يمثل لك الحقائق كما هي لا
كما يحرفها الأذهن المنحرف عن الحادة ويجورها الفكر المصلود عن القصد ،
فكأنما والله عز وجل شاكسبير المرأة المستوية إذا كانت أذهان غيره من الكتاب
والشعراء المرأى المقعرة الخدباء . أعني أن شاكسبير رجل يعدل في النظر ويسوى
في الرأي بين جميع الأشياء والبشر - رجل كريم عادل . براعة والله وقوة ،
وحلال وعظيمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت
إلى أوثيلو إلى فولستاف ، إلى روميو إلى كوريالاناس ، ونأديته إياهم في أكمل
خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم في حبه ومعذرتهم ، وسعته إياهم جميعا بلطفه
ورحمته - حبذا هو أخو البشر وشقيق الإنسان ، وما كان ذهن باكون ليقاس

بذهن ذلك الشاعر ، فإن الأول على كماله وعظمته من حيلة أدنى من
- طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس إلى ذهن الشاعر الأكبر ، وإن
شاكسبير في التاريخ الحديث مثيلا قط ، وليس منذ أيامه حتى الآن من
إلا رجلا واحدا هو « جيتا » فإنه أيضا نظار إلى حقائق الأمور
الأشياء . ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو في شاكسبير إذ قال : «
شاكسبير كالساعات الشفافة الوجود - بينما تريك ساعة في وجهه هي
أيضا تريك النواذب والآلات في ضمائرها المكشوفة وحشائها » .

العين البصيرة ، هذه هي انكشافه لبواطن الأمور : والكامن في
النظام والانتلاف - الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف لأشياء من
من المعاني الموسيقية تحت تلك الضواهر الخافتة الخشنة . نعم لقد أولت الطبيعة
بكل شيء مهما قبح ظاهره غرضا هو للعين البصيرة واضح بين : فإني هذه
لأشياء خبيثة دنيئة ؟ إنك قد تضحك من تلك الأشياء وقد تبكي ، وقد تعد بينك
وبينها الصلات والأسباب كيفما كانت ، أو على الأنبل يمكنك أن تتعد عنها
وتنصرف ، وتعرض وتنحرف ، حتى يحين أن تقتلها وتمحوها . والله العظيم
هو أول مواهب الشاعر ، فإذا أوتى ذلك فقد صار شاعرا - شاعرا ، فإن لم
يؤاته ذلك فشاعرا بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب - ثم يكتب أو لا يكتب
هذا أمر ثانوي يتوقف على الصدف - ربما على أدنى الصدف ، ولكن القوة التي
تمكنه من أن يبصر لباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام (لأن كل كائن
نظاما في جوفه وانتلافا موسيقيا في ضميره ، وإلا قدا كان يتماسك ويذوب) ما
هي نتيجة عادات ولا صدف ، ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا العقل العظيم
كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل إنسان هو - أسطر ! فإذا
عجزت عن ذلك فلا فائدة هنا لك في استمرارك على نظم القصائد وتفصيل
القوافي ، ولا حاجة هناك إلى ذلك الطنين والموتى وتسمية ما - شاعرا ،
وأولى لك أن تقطع من ذلك الأمل وتنفض يدك من هذه الأمنية ، فإذا شئت ،
فإن لك في غير الشعر مجالا ومندوحة ، في التجارة مثلا أو الصناعة أو الزراعة ،

حدثت ذلك . وأنت فاضل ما أحدثت صنعتك وأحسنست عملك أيا كان ،
كون حلالا طيبا كريما ، ولا عار في العمل المتقن ما لم يكن خبيثا ،
ريححة العقل ، فالعقل هو أجل النعم كما فقدته أشد المحن .

حسن دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها
وحقيقة أن قيمة المرء بمقدار بصيرته . ولو سئلت أن أعرف ملكات
الإنسان فقلت إرباء عقله على كل عقل لكنت قد أدركت الغاية وبلغت
المراد . هي في الحقيقة تلك الملكات التي نذكرها كأنها أشياء شتى ، كأن
الذكاء ، والخيال وإدراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان ، وهذه غلطة مبنية ،
فسمع أيضا أن للمرء « طبيعة ذهنية » و « طبيعة أخلاقية » كأن هذين
كل في ناحية . أما إنه لا باعث على استعمال تلك الألفاظ المختلفة إلا
الاعتناء ، وأرانا إذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال
كلمات المتفرقة . ولكن لا ينبغي أن نتجمل الكلمات حتى نصير أشياء ،
فإن هذا السبب إلى خطئنا في هذا الأمر وضللنا . وإنما يجب علينا أن لا
نكر أن هذه الأقسام ليست في الحقيقة إلا أسماء ، وأن طبيعة المرء
هي - القوة الحية الكامنة فيه - هي شيء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ،
فسميه خيالا وإدراكا وذهنا ومفكرة وبصيرة وغير ذلك ، إنما هي صور
للقوة الباصرة ، وكلها شديد اتصال بعضها ببعض .. دليل بعضها
على بعض ، حتى لو عرفنا أحدها لأمكننا أن نعرف الباقي . وما أخلاق المرء إلا
تلك القوة الحية التي بها يعمل وبها يكون . وكل أفعال المرء - لو
دليل عليه ، حتى ليتمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون
الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنايه ، فإن جنبه أو إقدامه ليلدو لك
لقظه . وما كلمة الرجل أو رأيه بأقل غيما عن شجاعته أو خوره من
طعنه ، وهو هو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة في صور شتى .
فممشي الرجل من غير يدين قائما على قدميه يسعى بهما في الأرض
وإن كان البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق ، والرجل الذي لا خلاق

المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرء ، لا يرى شيئا
حق الرؤية ولا يعرف شيئا حق المعرفة . لأن المعرفة الصادقة لشيء ما تستوجب
غاية لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، أغنى الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة .
وإذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال يتنصف لكل شيء من نفسه ، ويأخذ الحق
منها لغيرها ، ويقمعها ويقتدعها ويذها ويقهرها ويكون من الشجاعة والبرورة
والنقى بحيث يميل إلى الحق على ما فيه من عذاب ومضض ، فكيف يجد إلى العلم
بالحقائق سبيلا ؟ وإنما الطبيعة وحقايقها للخيث اللثيم لحسيس كتاب محتوم ،
وما يعرف مثل هذا من الطبيعة إلا قسورا وأباطيل وخبائث مما يستخدمه في
أعراض ساعته . وما مثله إلا كمثل الثعلب ، أو ما يعرف الثعلب شيئا من
الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز ! وكذلك الثعلب لا دمي وما أكثره في كل
زمن وبقعة ، أتراه يعرف إلا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل إن اشتمام الثعلب ريح
الدجاج واهتدائه إليها ، فضيلة تعلية . ولو أنه أضاع أوقاته حزينا أسفا مطرقا
يمكر في نحسه وشقائه وظلم القضاء له ، وجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره
من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة وإقدام وعزم
وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية ، لما أصاب دهره من الدجاج ولا
ريشة .

فإذا قلت إذن إن شاكسبير أكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه . على
أن في ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو ما أسميه ذهنا غير
متعمد ، وفيه من الفضل أكثر مما يشعر به صاحبه . وقد قال نوباليس : ما
روايات شاكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . وأرى ذلك صوابا
إحقا . فما صناعته بصناعة إنما هي وحي يتدفق به طبعه عفواً ، ويهطل به
خاطره سحاً دراكاً .

ويدرك للألى ييغونه عفووا بلا مسح ولا إبساس
شيء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب ، يذوب كدمعة المحزون
غير معتصر ، ويقبض لمنحة الجواد غير معتسر ، ويجيء كوداد الحب غير معتنف

لا مقتسر ، ويسقط من تلقاء نفسه كالطل في السحر ، وغناء الحمام في
السحر ، أو كشذا المسك يفوح ويتشرب ، وسنا البدر يلوح ويشتهر ، لا تكلف
لا تعمل ، ولا تصنع ولا تمحل ، وإنما هو نبات يثبت من جوف الطبيعة فيخزق
ج ذلك الرجل ، أو صوت الطبيعة يخرج إلينا من فم ذلك الرجل . أو أن
شبير نأى تتناوله الطبيعة فتزعم فيه بأشجى نغماتها ، وتخرج منه أشهى
ونها . ولعل الأمم التي ستجىء بعد آلاف السنين ستجد في شاكسبير هذا
جديدة وبيانا لألغاز حياتهم . وإنها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم
أن يجعله جزءا منها ، فمؤلفات هذا الرجل مهما تعتمد أن يجيدها
تخرج من مجاهل أعماق نفسه عفواً لا أثر فيها للصنعة والتكلف -
روحاً نابذة من الثرى ، وكالجبال والأمواه إذ تلبس أشكالا خاصة منطبقة
غير قوانين الطبيعة ، موافقة لسنة الحق أيا كان . ومع ما أخرج ذلك الرجل من
الآيات ، أرأيتموه يتسخط ويتشكى ويتلهف ويتشهى ؟ أعهدتموه بتألم
سحر ، ويتوجع ويتضجر ، أم كان خلواً من الألم والريح والكمد والترح ؟
لكنه سثار للشجو كتوم للمصيبة ، وكم خفى في تلك السريرة من الآلام
فلم يظهر إلا ثمارها من بارع الكلم ، ورائع الحكم ، كأنها الجنور ،
الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر ! عظيم والله
كبير ولكن الصمت أعظم .

على العموم فسكينة هذا الشاعر الجليلة الفرحة هي من جلائل الصفات .
على دانتى كآبته وشقوته فإنها حرب بلا ظفر ، ولكنها حرب صادقة
سم المسائل وأخطر الأمور . وأرى شاكسبير يعد أعظم من دانتى من حيث
مد فظفر . ولا يخالكم الشك في أنه قد كان له حظه من الهموم
، وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانيه تشف عما كابد من غصص
تجمرع من مرارة الحن ، وغامس من حومة الخطب ، وكافح من غمرة
يكدح في بحر الشقاء ويضرب ، ويطلقو به ذلك العباب ويرسب ،
شاطئ الأمن ونجاة الله من الحين . وقد أفال الرأى من زعم أن عيش

شاكسبير كان خلواً من الأسى ، صفواً من القذى ، لم يرد منه إلا عذبا زلالا ،
وفراتا سلسالا ، وأن شاكسبير لم يك إلا بلبلًا بروضه أصفاء أفنى عمره سجعاً
رتقياً ، وبلغ أجله شديداً وتطرباً ، سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادئ
لبلال ، شأن البلال والقمارى اللواتى هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دثرات الدهر كيف تدور
كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا ، وأنى لرجل أن يتنقل من سرقة الغزلان
لى كتابة مبكيات كميكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس
لشجى ؟ بل كيف يتأتى لرجل أن يصور أمثال هامليت وكريالاناس وماكيث
وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة ، إلا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا
كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج إن
المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك . وكثير فى روايات
اللفظ الموجه والقول المقذخ والكلم النافذ المحرق ، ولكنه عند حد ، وما كان قط
ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر . وإذا نصب
من أشخاصه واحداً للفكاهة هال على رأسه ما لا يحصى من فنون المزاح والمجون
وألقاب السخرية ، وما زال ينقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصى العجب
ويستنفذ الاستغراب . فكأنما يضحك بملء ضلوعه وقلبه ، ثم هو ضحك
صالح لا يقصد به إلا السخرية من المساكين والبؤساء والضعفاء . ولن يكون
الضحك من هؤلاء ضحكا وإنما هو سفالة ولؤم ، فإن الضحك الحر الكريم من
شئ ما يستلزم حبك هذا الشئ ، وليس الضحك الكريم بمجموعة النار تحت
القدر - تفهقه النار والقدر تقور وتلهب . وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة
حتى نحو الأغبياء والأدعياء . وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على
ساحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة ،
وإن كان لا يزال فى ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام . فلو أن كل قصة من
قصصه أتيج لها شارح مثل « جيتا » لكان خيرا ، وسيكون ذلك يوما ما . وقد

سمى الفيلسوف الكبير الألماني «سكيلجل» رواية : هنرى الخامس وما شاكلها تاريخاً حليلاً وطنياً . وتذكرون ما قاله القائد «مارلبرا» من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيا إلا ما علمه من شكسبير ، وقُل في كتبنا التاريخية لو نظفون ما يوزى تلكم الروايات قيمة وفضلاً . وما أبدع وصفه لحرب «جنكورت» ونعته جيش الإنكليز المكشود المهوك . وساعة التصاف إذ توشك الحرب أن تبتدى ، تلك الساعة الجليلة التي يكمن في أثائها النحاس والسعد ، ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر «معشر لرماء الذين صيغت أكفهم في بريطانيا» ألا تجدون في ذلك ربح الوطنية ؟ أما في ذلك مكذبة للرايين شكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة ؟ أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض في كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادئ رىء من كل أثر للجليلة والغلواء ، كأنما صوت نبضه رنين الحديد الصلب . وظنى أن في صدر شكسبير هذا جرأة ليث ، وفي عيونه بطشة قسور لو أشهدته صروف الدهر ساعة الوغى .

هذا هو فلاح قرية «ستراتفورد» الذى ارتفع إلى درجة مدير تمثيل ، فكفى بذلك ذل السؤال ، والذى رفق المورث سوافيتون بعين رحمته ، والذى كان السير توماس - حفظه الله - يريد إرساله إلى السجن ! إنا لم نعهده إليها كأودين إذ هو عائش وسطنا ، ولكنه رغما من ضعف إيمان الأزمان الحديثة بالأبطال ، فأى إجلال وإكبار لم يصبه شكسبير هذا من أبناء اللسان الإنكليزى ؟ أى رجل ، بل أى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شكسبير الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا ؟ - مفخرة نزهى بها على الأجانب ، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا . انظروا ماذا يكون الجواب إذا خيرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند - أن نكون لم نمتلك قط شكسبير أو لم نمتلك قط إمبراطورية الهند - أنا أعلم أن رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ، ولكننا نحن لنا الحق أيضاً فى أن نختار ما نراه أفضل ، فنقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير ! ستذهب الهند يوماً ما ولكن شكسبير لا يذهب .

بل إن لشاكسبير فضلاً عن مزية المجد والفخر . وتهذيب النفوس والأخلاق ديمة مادية عملية وهى أنه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان من أنحاء المعمورة . وسيجيء يوم تظل جزيرتنا هذه لا تعى من أبناء بريطانيا إلا الجزء الأخس ، وسائرهم مبعثر فى نواحي لكرة مبدد فى جوانبها . وإن كان ذلك فما الذى يقرب بين هذى النفوس المتدابرة ، ويؤلف بين هاتيك لغزب المتنافرة ، فيخضر بينهم الشرى ويتحلى ، ويشرق الجو بينهم ويتلألأ ، ويتسبحون بفضله أمة واحدة ، ما ذاك الذى يكون قصبا تدور حوله مصالحهم وأوصارهم ، وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره ونصايه ، ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذاك ؟ أبالحكومة ولائحتها ، أم بالوزارة واقتراحاتها ، أم بالسياسة وصطلحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا ، فهو الملك الأكبر الحاكم على جميع طوائف الإنكليز فى سائر الأنحاء والأرجاء .

المحاضرة الرابعة

البطل في صورة قسيس

لوثر .. البروتستانتية .. نو كس .. البيوريتانية

... كون كلامنا اليوم عن البطل في صورة قسيس . والقسيس في مذهبي نوع .. النبي ، إذ لا بد من أن يكون منظوياً على نور الوحي . والقسيس دليل الناس في مذاهب الدين وقائدهم في مناهج العبادة ، والوصل بينهم وبين السر الخفي ، فهو وزيرهم الروحاني ، إذ النبي أميرهم الروحاني ، والقساوسة وزراءه . وهو « القسيس » اعارج بهم إلى السماء عن طريق الأرض ، الصاعد بهم إلى الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارج الخيرات والحسنات . وهو أيضاً في اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب إلى الأذهان أشبه بالديويات من عبارة الأنبياء والرسل : يترجم أسرار السموات - أو ما سماه جيتا (السر الجلي) الذي لا يكاد يراه إنسان . وكلنا - إلا من اصطفاه الله - إزائه كما قيل :

« شاهدنا يرنو بعيني غائب ومشاهدنا للأمر غير مشاهد »

هو من روعة جلال النبي وهول مهابته ، يشرق له في نواحي المدينة سراج أفل وهجا من الشهاب النبوي ، وأسكن لآلاء هذا ما يجب أن يكونه سفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم أن الكمال نادر ، وأنه ينبغي الكثير من التمسك والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعية . فأما القسيس مجرد من كل هذه الشروط غير محاول أن يكون كل من روعته ولا متميم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن

* * *

كان لوثر ونوكس قسيسين حرفة ، وقد أدبوا الوظيفة في أمانة وصدق . وأبلى بنا مع ذلك أن نعددهما حسب صورتيهما التاريخية ، أعنى مصلحين . وربما وجد في أيام السلم من القسوس من يساوون لوثر ونوكس في حسن القيام بشئون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها - يستزلون هدى الله على عبيده ، يحدون بركب الفناء في سبيل الحياة الهادئة المطمئنة . ولكن إذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت ، وقامت فيها القحمة والمقات ، والموارط والفلكات ، ودجت الخطوب وأظلمت الفتن ، وأزمت الكروب وتشنعت الحن ، فليس القسيس الذي يسير بنا في هذه الطريق سيرة النوتي في البحر ذى الصخور والحجارة :

تحافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الإشفاق في جبل وعر

ليس الذي يساور بنا تلك القحمة ويؤايب ، ويأرحم بنا هذه العوائق ويغالب ، إلا أكبر من غيره - ولا سيما في نظرنا نحن - وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذلوال الركوب ، ولا جرت سفينته على يمين ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة ولكنه نزل بألمه سوح « ساحات » القتال في زمن فتوق ثلثة ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة ، وصروف جائرة ، وأمور باثرة ، ونفوس حائرة ، فسند هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث إنهما أكبر مصلحين . أو ليس كل مصلح صادق قسيساً قبل كل شيء بطبيعته ؟ وكيف وإنه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين ، وجور الجائرين ، ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وأن :

يد الله كانت فوق أيديكم التي أرادت بنا ما في الظنون الكواذب

أليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة - كاهنا يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها - أعنى قسيساً . وإذا لم يكن قسيساً قبل كل شيء ، فلن تراه من الإصلاح والمصلحين في شيء .

وكما رأينا أعظم الرجال في مراكزهم المختلفة بينون الأديان - الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية - العقائد الحيوية الجديدة بأن تغنى بها أمثال دانتى ،

حقيقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير - نرى أيضا عكس ذلك : أغنى
الأديان ، وهو أيضا من الضرورات ، وحرى أن يكون من أعمال
البحر العظماء . وعجيب أن يكون ذلك ضروريا ولكنه في الحقيقة
حتى ترى نور الشاعر - ذلك النور اللين الغضى يخلى مكانه لبارقات
الشمس المومض ، الطائفة الشعاع . ولا بد لتلك من المصلح وليس يخبو
ولولا المصلحان القديس « ومينا كيس » والرجل الشديد الباس
« ثياد أرماتس » ما ترغم دانتى ولولا ما سبق شاكسبير من
ومساعى العالم من « أودين » إلى معاصره « ولستر رالى » ما نطق
من إن الشاعر الكامل للدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال ، وأنه
يقتضى ويحيى عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة ، فلا بد
للمصلحين فيقومو بتلك الحركة .

لو أمكننا أن نفلت من تلك الفتن
والاضطرابات ، ونسير أبدا السير اللين الرقيق
في غنائهم ، وطرب حداثتهم ، كما كان

منظر الراسيات يلحنه أورفيس استندى القطا الحشرات
تخضع الرقاب نواكس الخفافيش
لو أننا غناء الشعراء ، لو أننا سرتنا فى طريق السكينة
ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من
لقد كان حسبا والله ذلك ، ولكن أبست سنة الطبيعة إلا
تتعرض العقبات وتعرض العائقات فى طريق الحياة
كان يعد من أسباب الرقى عقبة وعائقا
وفى ذلك ما فيه من الجهد الجهد والمشقة .
والنظرية الروحانية ، التي كانت
وتسمع الأمم جميعا ، ويرضى بها تمام الرضى ذهن

تقرب دقيق كذهن دانتى ، تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع
تكذيب وإتكار ، وسخر وإصغار .. شبيهة عندهم بنظرية « أودين » . كان
دانتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التي صورها فى
قصته ، وتلك الأودية والجبال ، ولكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه ، فكيف كان
ذلك ؟ ولم لم تبق عسى مدى الأيام كاثوليكية دانتى ، حتى تذهب ويعقبها
بروتستانية لوثر ؟ انتهى لا شيء يبقى !

أنا لا أحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا
العصر ، فإن كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير اخلط والخطب مضطرب
مشوش ، ولكنى أقول على الرغم من ذلك إن ارتقاء النوع حقيقة لا شك فيها
وبرهانها باد فى طبيعة الأشياء ، وذلك أن كل إنسان فضلا عن أنه متعلم ، فهو
كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهبه الله ما صنع السلف . وينفس هذا العقل
يكتشف أمورا جديدة ويدع ويتكر ، وليس إنسان قط يخلو من ملكة الإبداع
والاختراع ، ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقد جده حموك القذة بالقذة ، بل
يفسح بالاكتشاف مجال نظره فى الكون ، ويعد مدى رأيه فى الخلاق . والكون
تعلمون عديم النهاية ، وما كان لرأى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه ،
ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرئ يزيد رأيه فى الكون على رأى جده ، إذ
ينطوى بعض ما كان يراه ذلك الجد ويراه غير منطبق على حقيقة حديثة
الاكتشاف ، هذا تاريخ كل فرد ، وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفا
أعظم تضعيف حتى يبدو فى هيئة الانقلابات الكبيرة ، والثورات الخطيرة . ولقد
كان دانتى يحسب أن فى نصف الدنيا الآخر جبلا فى المحيط يطهر الله فيه أرواح
المذنبين قبل إدخالها الجنة ، وهو ما وصفه فى قصته وسماه جبل التطهير . هكذا
كان دانتى يعتقد . فلما ذهب كرسقفور كولمباس إلى ذاك النصف الآخر من
لدى لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذى كان دانتى يعتقد وجوده هنالك ! أفترى
لناس يعد ذلك يصدقون قول دانتى ؟ كلا ، وهذا حال سائر المعتقدات فى
هذا العالم ، وحال ما ينشأ عنها من النظاملات الدينية والدينية .

فإذا أضفنا إلى ذلك الأمر المحزن ، وهو إنه إذا مرضت القلوب ووهنت
العمائد ونخر الشك في عظام اليقين ، فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ، ونجست
منازلها والأغلاط والمظالم والمصائب ، ومهدت الفتنة أسبابها ، وأخذت
التي أهدتها ، وشمشت جلبابها ، وما زال من البيهية أنه لا يصدق عمل المرء
من يصدق اعتقاده . فإذا ضعف اعتقاد الإنسان فلم يكن له من عقيدته ما هو
بأس على الأعمال ، بل أصبح يجري في جميع أمره على مذهب العرب السائد ،
وسنة العادة المتبعة ، مخضعا رأيه لرأى الدنيا ، جاعلا إرادته رديفا لإرادة العالم ،
وغيره جنيا لفكر الملائ ، فما هو والله إذ ذاك إلا عبد وأسير وبالحظ فيما يستند
إليه خليف وجدير ، وهو أحد سواق الفتنة ، وحداة الثورة ، يضرب عجزها
وإغلاط بناصيتها إلى اليوم الموعود ، والأجل المحدود . وما من عمل يأتيه من غير
صدق ولا إخلاص ناظرا إلى ظاهره الكاذب فقط ، إلا وهو إثم جديد يلد لبعض
الأمم جديد مصاب ومستطرف بلية ، ثم تتراكم الآثام حتى تتفجر عن الثورة
البحار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكية دانتى من حيث
مبادئها ، ولا يقادسونها ، لما أفسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من
مبادئها ، أتيج لشمليها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبد ومفرق ، وقضى ربك على
الجمجمة الإقطاعية ، تلك العيشة الموثقة البهجة التي أبدع صفتها شكسبير أن
تكون ختامها الثورة الفرنسية ، وإنما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة
البحار البركان ، ثم لا تستقر الأمور إلا بعد مدد طويلة من الاضطراب
والفوضى .

وإنه لمن البلية أن نظرننا من ذلك الأمر على جهة واحدة ، فلا تبصر في آراء
الناس ونظاماتهم إلا أنها مشتبهة متبسة ، وقتية رهينة بالفناء والموت ، والحقيقة
عند ذلك ، إذ نجد أن الفناء هنا إنما هو فناء الثوب لا الجوهر ، والموت موت
الجسم لا الروح ، وكل إتلاف بسلاح الثورة إنما هو خلق جديد على نظام
الإنسان ، ونطاق أوسع ، فكائنات الوثنية الأودينية شجاعة ويسالة ، وجاءت
بمقدمة خشوعا وضراعة ، وما الخشوع إلا ضرب من الشجاعة أشرف

وكرم . وما من رأى جال في صدر الإنسان جولة جد وإخلاص عن عقيدة
صدق وإيمان إلا وكان في وقته نظرة صادقة من الإنسان في صميم الحق ، فيها
عنصر صدق ما يزال على تجدد الأحوال جديدا ، فهو ذخرا لنا باق على كبر
جديدين ، وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من
حق الله من الأمم في جميع الأزمان والأمكنة ، مخطئ ضال إلا نحن ؟ وأنه ليس
في خلق الله غابرا وحاضرا من بات على هدى من ربه إلا نحن ، وأن جميع
لأمم والشعوب ضلوا وخابوا لكي نصيب ونفلح نحن — الفئة الضئيلة القليلة ،
وأن جميع تلك الأمم إنما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية ،
فيك زحفهم نحو الخندق إلا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسلوه بأجسامهم الميتة ،
فيكون لنا ثمة من جثثهم جسرا نعبير عليه إلى المدينة المحاصرة فتأخذها ! وهذا
وريكم غاية الغرور ومتهى الباطل .

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون أنهم سائرون على جثث
جميع من سلف من القرون إلى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى أن يقال إذا
هم وقعوا كذلك في الخندق وصاروا أجسادا ميتة ؟ وكذلك أرى في قطرة
الإنسان أنه ما يرح يحسب فكره إمام الأفكار ، ورأيه حكمة الآراء ، ويعضى على
هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر أن جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن
حضر ، إنما هم جنود جيش واحد أدرجوا في سلك الكتيبة تحت قيادة الله
ليقاتلوا عدوا واحدا أعنى به عالم الظلمات والباطل . فقيم التناكر والتجاهل
ولا اشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضا لمجرد اختلاف في اللباس
واللوى ؟ ألا كل الأزياء حسن ما زرت عراه على ذى مروعة ونجدة ، ومرحبا
بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله ، من العمامة لغربية واليماني المرفف
إن معول « ثور » يضرب به الجان والمردة ، وما زجاجة لوثر في حومة الحرب ،
والحان دانتى من البراع والقصب ، إلا عون لنا لا علينا ، وكلنا نحب ذلك القائد
وذاك اللواء !

« وبعد » فلنلق نظرة في جهاد لوثر هذا لتعلم أى ضرب من الجهاد هو ، وكيف كان فيه بلاؤه ؟ ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحانيين — نبيا لأمتة وزمنه .

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لا تكون إلا فى مستقرها وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد « عليه السلام » ومما امتاز به الأنبياء عامة شدة الإنكار للوثنية ، وهو أكبر مسائل الرسل ، وعبادة الأوثان الميتة كإله هو ما لا يسكتون عنه أبداً ولا يطيقونه ، بل لا يزالون يشددون النكير عليه ويسمونهم بألدغ مياسم القذع والقذف ، وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر . وهذا جدير بالتأمل ، وكلمة « أيدول » أصلها « آيدولون » ومعناها الشيء المنظور ، أعنى العلامة أى الرمز . فليس معناها إذن إلها بل رمزا للإله ، وجدير بنا أن نشك هل كان قط إنسان — مهما بلغ انحطاطه وعماه فى رأى ذلك الصنم — أكثر من أنه رمز ؟ أنا لا أظن أن مثل ذلك الإنسان كان يحسب أن الشيء الذى صنعه يديه هو الإله ، بل كل ما يحسب هو أنه يمثل الإله ، وأن الإله كائن فيه بشكل ما . وإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل : أليست كل عبادة أيا كانت هى عبادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة ؟ وسواء تمثل الإله للعين الخارجية فى صورة متطورة ، أو للعين الداخلية أعنى الذهن أو للخيال ، فإنما هو فرق سطحى لا جوهري . إذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهى أن هناك شيئا ينظر — بالعين أو بالذهن — ذيلا على الإله . وليس يخلو أروع الناسكين وأولع المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله . ولولاها ما وجد إلى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المنطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء متطورة ، ولا تسير العبادة قط إلا بالرموز — بالأوثان وعلى ذلك نقول إن كل دين وثنية ، وإنما بعضها أشد وثنية والبعض أقل .

أين إذا شرها ؟ أما إنه لا بد من أن تكون منطوية على شر كبير ، وإلا فما كانت ملائمة من إنكار الأنبياء والمرسل أشده وأبلغه . أجل لماذا نرى الوثنية

بغضة كل ذلك البغض إلى الأنبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا أحسب أن أكبر ما أسخط نبيا على الوثنية وملا صدره غيظا وحنقا ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله فى ذلك الصدد ويصرح به للغير ، فإن أحط وثنى من عباد الكواكب أو الأصنام كان كما رأينا ، خيرا من الحصان الذى لم يعيد شيئا ! بل لقد كان فى عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد ، شبيه بما يحسب فى الشعراء ، أعنى إنسان الجمال الإلهى والمعنى الكبير فى النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الإطلاق ، فلماذا يا ترى يتقم عليه النبى كل هذه النقرة ؟ إن أحقر وثنى عاكف على صنمه ليس إذا امتلأ صدره إيمانا بهذا الصنم ، إلا جديرا بالرحمة لا بالإغاض وإن كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاحتتاب إن شئت ليمتلئ باعتقادها قلبه وليستنير بها وعاء ذهنه الضيق المظلم ، أو بالاختصار ليؤمن بصنمه الإيمان كله يكن فى ذلك خير له ، أو بعبارة أخرى ما هو حاضر فى ذاك الوقت من الخير وممكن ، ثم دعه وشأنه آمنا فى سربه ما ضيا على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى ، وهى أن الإيمان بها يكون قد تطرق إليه الفساد أزمان النبوة ، ويكون الكثير من الناس قد أدركوا بعض ما أدركه النبى من أن هذا الوثن إنما هو قطعة من خشب . وينكر النبى هذه الوثنية ، والوثنية المنكرة هى الخالية من الإخلاص والصدق لما أكلت الشكوك قلبها ونجبت الشبهات لبها ، فبينا يتشبث بها الوثنى إذ يخيّل إليه أنه يتشبث بطيف الخيال وأشباح الظلال . وهذا لعمري من شر البلية وأسوأ المحنة ، ولقد قال كولريج : « إنكم لا تعتقدون وإنما تعتقدون أنكم تعتقدون » . وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد . وآية دنو الموت واقتراب الهلاك ، وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات . وليس فى طاقة الإنسان أن يأتى جناية أظفح ، وموبقة أشنع ، ولا إنما أفجر — وجرما أنكر — وما هى إلا رقدة العقل وشلل النفس ، وضياح الإخلاص والصدق ، فلا عجب إذن أن ينكر الحر ذلك ويمقته ويرأى إلى الله منا .

الجزر الذى عنه تفرع تاريخ أوربا الحديث وتشعب ، لأن الروحانيات ما برحت تنقص فى العمليات والروحاني مبدأ العمل . وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « يا للمساواة » « يا للإخاء » « يا للحرية والاستقلال » : وأصبحنا ولدينا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب . وكأنا قد ذهب من الدنيا بقانا طاعة الإنسان للإنسان فى الدنيويات والدينيات . ولو أن الحقيقة كذلك لتناهى يأسى من الدنيا وأريقت صباية رجائى ، ولكن أرسخ عقائدى أن الأمر ليس كذلك ، ولولا الحكام أختيار الحكام - الدنيويون والدينيون لأصبح أمر الناس فوضى ، وشر الأمور الفوضى . ولكنى أرى البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ، ومنشأ نظام وصالح وإحكام ، وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وأكاذيبهم ، وأراها الخطوة الأولى إلى إقامة أحرار الملوك بيننا وصلاحيهم ، وهذا يحتاج إلى قليل من الشرح .

ولنذكر أولا أن أمر « رأى الشخصى » فى العبادة لم يك بالأمر الجديد فى العالم ، ولكنه كان فى تلك المدة جديدا ، نعم ليس فى البروتستانتية شيء جديد فى جنسه ، وإنما هى رجعة إلى الحق والجوهر بعد الإقامة على الباطل والظاهر الكاذب بشأن كل رقى وتعليم صالح . ولا أحسب إلا أن حرية رأى الشخصى ما برحت فى الناس من قديم الأزل لم يخل منها جيل من الأجيال . وما أظن أن دانتى كان قد عمد إلى عينيه فقلعهما ، ولا إلى حركات ذهنه فغلها وقيدها ، ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حراً طليقا ، وإن أصبح قوم فى أغلالها من بعده مكبلين ، وفى أصفادها موثقين ، حرية رأى ؟ ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والأغلال ، ولا أى قوة بشرية ترغم إنسانا على الإيمان بهذا الأمر أو الكفر بذاك . وإنما رأيه فى ذلك سراجة الدائم الاشتغال الذى لا يخبو إلا مع أقول كوكب حياته ، وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده . إن أشقى الضالين الذى يأمر باعتقاد الأعمى والطاعة المميته ، لا بد من أن يكون قد أقنع نفسه أولا بأنه لا حق لها فى طلب الإقناع . نعم و« رأى الشخصى » هو الذى أشار عليه بذلك كأصوب ما يؤتى . فمثل هذا الرجل حر الرأى فى

ولا أجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيها إلا كآى نبي من الأنبياء ، وما كان بغض محمد « عليه السلام » لأهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وإنه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان أن يرجع إلى الحقيقة ويعتمد على الأشياء لا على ظواهر الأشياء . ويقدر حبه لحقائق الأشياء وإجلاله إياها إجلالا ناطقا يصدق به صوت الشعر ويسبح ، أو إجلالا مفعما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقتنه وكرهه لظواهر الأشياء مهما صقل انتمويه من أطرافها ، وهذب التزيق من حواشيها ، ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبيا ، وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر ، وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهى تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقا ويكون مقدسا !

يظن الذى لا يدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال ، وجعلها أساس الخير الدينى والدنيوى ترك الثقة بزعماء الدين ، وعدم الإيمان بهم . وطالما نسمع أن البروتستانتية أوقدت عصراً جديداً شديد الخلاف لجميع ما سبقه من العصور ، « عصر رأى الشخصى » كما يسمونه ، وإذا كانت البروتستانتية ثورانا ضد البابا ، أصبح كل فرد بابا لنفسه ، وعلم فيما علم أن من أول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو إمام دينى ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون أو لم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامه دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا أنكر أن البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما إليهما ، كما لا أنكر أن البيوريتانية الإنكليزية التى كانت ثورة ضد الملوك والأمراء إنما هى الفصل الثانى من الرواية التى أول فصولها البروتستانتية ، وأن الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التى كان من شأنها فيما يرى ويظن أنها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية - الأرضية والسمائية - أو جعلت أمر نسخها نضاء لا بد من تنفيذه . والبروتستانتية هى

ضلاله ، ولكنه حر الرأى ، وهو فوق ذلك مخلص ، وما دام فى قلب المرء إخلاص . فالرأى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه ، والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوى عليه من النور والهدى ، بينما ترى الرجل الكاذب الذى يحاول جهده أن « يعتقد أنه يعتقد » يسلك طريقاً آخر ، فلأول تقول البروتستانتية « خيراً صنعت ! » وتقول للآخر « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالتقول الجديد ولا الخطئة العذراء ، وإنما كما قلت عودة إلى جميع ما قيل من أقوال القدماء « كن حراً صادقاً كن مخلصاً » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان أودين وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقى الوثنيين ، لقد رأى كل فريق منهم مذهبه الذى تبعه (برأيه الشخصى) .

وانى لأقول ولا حرج إن الاستمرار على إعمال الرأى الشخصى لا ينتهى قط بالاستبداد الأنانى والتفرق والنقاطع ، بل ينتهى بعكس ذلك بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ، ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الإيمان . وما ثورة المرء ضد الباطل إلا ميل منه إلى ناحية الحق وجنوح إلى اللحاق بزمرة أهل الصلاح والتقوى ، فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال أن يكون بينهم صلة أو رابطة ، وكيف وفى خوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شيء وإلى أمر بالحقائق لا بالأباطيل ، وإذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء ، أفرجحو أن يكون منه على إخوانه الأدميين عاطفة ؟ كلا إنه لا يألف بالناس - إنه رجل فوضوى ، والوحدة - أيدكم الله - والجامعة لا تكون إلا بين إخوان الصدق وأولى الإخلاص .

أما من حيث قولهم إن كل إنسان يعبد الله « برأيه الشخصى » فإن معظم الناس ليس لهم آراء شخصية ، وإنما الرأى هبة الله يهبها لأعظم الرجال . ثم لا بأس على غير العظماء أن يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكأنهم متكررونه وقانصو شريذته ، ويخترعونه ونابشو دفينته ، وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، أن يصح إيقانه ويصدق إيمانه . فإذا كان

ذلك ، فما ضره إن لم يكن من الرأى بمنزلة كشف خبيثته وفاض صميمته ، ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص . بل إن له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ما هو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستنبطه . فإن فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشراكة مع ذلك العظيم فى إحدائه ، وكذلك لكل امرئ أن يكون متى شاء مخلصاً صادقاً ، أعنى مبتكراً بمعنى ما . بل لقد أوجد الله أمماً وشعوباً كل أفرادها مؤمن صادق ، تلك أمه حق وشعوب الإيمان . وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والقلاح ، أعصر مباركة وافرة الثمرات ، كثيرة الخيرات ، حجة الميراث ، إذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل . فكل شجرة عمل بانهة الثمر ، وكل لقحة صنع غزيرة نسر ، وحاصل الجميع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب إلى ناحية واحدة ، وبؤم غرضاً بذاته وأمداً بعينه ، هذه أعصر الربح لا الخسران ، وأزمن المزيد لا النقصان .

ولد لوثر ببلدة أيزلين بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا العشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يلوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت أمه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض معادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبوا إلى سوق إيزلين الشتوى ، فأخذ السيدة المخاض فى حومة لسوق وغماره ، فعادت بدار حقيرة وولدت غلاماً سنى مارتين لوثر ، عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة « فراو لوثر » وبعلمها إلى ذاك السوق لتقضى حاجاً من البيع والشراء - علة لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثياب الصوف ، ولتشتري ذخيرة لشئ لدارها الحقيرة ، ولعل فى ذاك اليوم لم يك فى طول الأرض وعرضها أنان هما أصغر شأننا وأجل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبقائه فى جانب دينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل . يشب الله شهاباً قاد سوف يمتد على مئات القرون المقتبلة شعاعه ، فى ذاك اليوم ولد بطل أبطال سكان الأرض (الأبطال)

بغايه . ونحوه التاريخ احتفائه وترحابه . عجيب والله وغريب وخطير على
نعراية وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصراً ، وأسمى منزلة وأرفع قدراً ، وقع
منذ ألف وثلاثمائة عام ، وهو حادث الصمت إزائه أولى من الكلام ، وما عساه
يقال في مثل ذلك المقام ؟ ويزعم الناس بعد لوثر ومولده أن الأرض قد صفرت
من المعجزات ، وانقضت من الآيات . كلا وأسماء الله إنما العالم غريق في
الإعجاز ، والمعجزة من نبات ذياكم الثرى .

وأرى أنه كان ملائماً جداً لوظيفة لوثر في هذا العالم ، وحكمة من الله
بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربى فقيراً كأفقر عباده ، وكان أيام تلمذته
يشحذ القوت متسولاً بالغناء من دار إلى دار . وكان البيوس رفيقه ، والكرب
شقيقه ، والشقاء أبداً مجاهره وجهها لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة لا
تخادعه قط بزخارف الباطل والكذب وبوارق الأمل الخلب ، وهكذا شب لوثر
بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة ، غلاماً خشن الهيئة
ضعيف المنه في جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء ، وشعور شب في ملتطم
أمواج البلاء . ومصطدم أواذي الشقاء . ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة
الحق وألف صحبة الحقائق ، وهذا واجبه في الحياة أن يعرف الحقيقة ، ثم يرجع
إليها العالم الضال بما قد طال في الباطل لجاحه ، واشتد بالزور والكذب لجاحه ،
علام نشأ في مهد العواصف ، وربى في حجر القرو والمهزير ، وغذته مرضعات
غم والنكد ، وغازلته بنات البأساء وفكمد ، فخرج من أحشاء وطنه خروجه
« ثور »^(١) من ضمير إسكاندينافيا ، وكيف وإنه ما انفك يضرب في شياطين
إفك والزور ، وأبالسة التكر والفجور ، كما كان يفعل « ثور » بالجان
والردة ، حتى هزم كتاب الكذب والخال ، وكشف جنود البدع والضلال .

ولعل الأمر الذي كان عليه منحول مجرى حياته هو موت صديقه
« لكسيس » بالصاعقة ، لقد كان لوثر أظهر في زمن طفولته وصباه أشد الميل

للدروس والمذاكرة رغماً من كارتات الفقر ، ورحا أبواه أن يكون له في الرقى
قسمة فأركباه طريق الدراسة القضائية ، لأنها الطريق إذ ذاك إلى النهضة
والضعود ، فرضي لوثر بذلك رضى ككره ، واساغه مساع الشجى وأغضى منه
على القذى .

فلما كان في التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « ألكسيس »
ليزورا أبويه في بلدة « مانسفيلد » ثارت زريعة ورمت بالصاعقة فأصاب
صديقه ، فإذا هو تحت قدميه ميت ، فناجاه مناجى العبرة من أعماق نفسه « تبا
لهذه الدنيا وقبحا لهذا الدار ، وبابؤس للحياة وبيا رحمتا للإنسان ! ما هذه
الحياة ؟ أتزول في لفتة الجيد ولمح البصر . وتذهب كالقرباس طوته ألسنة النيران
فتضيع في باهل الأبد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلطين والقيصرة ؟
كلهم في التراب ! بينما هم رافلون ، على الأرائك متكئون . تغفر الأرض فاهما
فإذا هم في بطنها ثاؤون ، وبالعفر والرغام مكحولون ، والمدر والحجارة
ممددون ؟ بلى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، عزم
من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره ، وأصبح قسيس كنيسة
القديس ، ثم أن لوثر أوجاستين بيلدة « أرفورت » برغم أبيه والكثيرين من
معارفه .

ولعل هذا أول شعاع برق في تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات ،
وقد حدث نفسه أنه كان في تلك المدة قسيساً صالحاً مجتهداً ويؤدى وظيفته
ويدرك السعادة . ولكن عبثاً حاول فما خف مصابه ولا قلت شقوته ، ولكن
تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد ، وما أشقاه لا من كد في عمله ولا
نصب ، ولا من مهانة العمل وذلك أثناء البلاء ، وإنما لسقوط نفسه إذ ذاك في
أسحق مهاوى الشك والخوف - الشك في أنه على الهدى والخوف من عذاب
الله في الآخرة ، وقام بخاطره أنه قد دنا أجله ، وشر من ذلك أنه قد دنا عذابه
الأبدى . أليس في ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعه وإخلاصه ؟ لعله
جعل يقول في نفسه « من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذي ما

عرفت إلا الشقاء والخوان ؟ كلا ذلك مقام ذوتة الشمس » ولم يكذب يفهم كيف أن في الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار ، ممن ثم هوت نفسه في أعتم ظلمات لبوس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا حرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الإنجيل في مكتبة أرفورت حسنة أكبر من حسنات الزمن ، ولم يك قط قبلها أبصر الإنجيل فلقنه درساً خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانه على ذلك أخ في الله قسيس ، فعلم لوثر أن المنقذ للإنسان من هذه البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات ، وإنما هو الله ومرحمته ، وذلك أقرب إلى العقل وأوقع في الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وأنشأ من مغفرة الله في أرسى طود وهضبة ، ولا بدع أن جعل يقدر الإنجيل الذي أسدى إليه تلك المنة ، فأجله كما يجمل مثله كلام الخالق ، وعزم على ألا يجحد عنه أصعباً . وقد كان منه ذلك حتى لقي ربه .

فكان ذلك خلاصه من أسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال إلى الهدى ، فازدادت نفسه من يوم إلى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء ، وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للملأ ما كان مكتوماً قبل في زوايا صدره من المواهب الإلهية ، والصفات العلية ، فأعظمه الرؤساء وبوعوه من الدرج ما هو أهله ، ووكلوا به أمر البعث ، فكلما آب من رحلة كلفوه أخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصدق ، ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » ، وكان عاقلاً عادلاً أستاذاً في جامعة « وتبرج » فأحسن أداء ذلك العمل كما أحسن البلاء في جميع ما نيظ به من الأمور ، وجعل من يوم إلى آخر يعلو في أنظار الناس ويتغلغل في نفوسهم .

وكان في الساعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لأول مرة وكان أتاها برسالة من ديريه ، ولا إخال إلا أن لوثر عجب لما أبصر من حال البابا « يولوس الثاني » وسائر أحوال روما إذ ذاك ، وكان ظنه أنه قد أتى المدينة المقدسة عرش ولي الله في الأرض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل ، فإذا هو

بين فسق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين إثم ووزر ، وبلاء وشر ، وباطل ومنكر ، وما أحسب إلا أن هذه الحالة السيئة قد بعثت خاطره في أودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه إلى لسانه ، ولا أسلمها وجدانه إلى بيانه ، لقد علم أنه لا يبصر أمامه هدى ولا حقاً ، ولكن ماله ولذلك ؟ وأني لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالماً ويقب دنيا ، حقاً إن لمثل هذا العمل لإنساناً غيره أعظم قدراً . وأكبر خطراً . وحسب لوثر أن يوفقه الله إلى هداة ، ويسدد إلى خطة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه في خفية وغموض ، فأما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء والله في خلقه شؤون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشأنها وعاد إلى بلاده ، نعم تركها وشأنها ولم يتعرض لها إلا بعد أن تعرضت له ، ينقض عليها ويسطو بها حتى حاجته واستارته ، ومن أكبر فضل الله أنها حاجته واستارته واستدعته بذلك إلى شن الغارة عليها والإيقاع بها ، إذ ماذا كانت الحال تكون وإلى أي شيء كانت تصير الأمور ، لو لم يثر لوثر ثورة الأسد المخدر في وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ، ويفل غربه ، ويكف منه عن العالم شراً مستطيراً كان يؤذن بالويل العظيم ، والخطب الجسيم ، والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب في سنن غوايتها ، وثعن في طريق عمائيتها ، من غير أن تعرض لوثر في سبيله ، وتصادفه في منهاجه فتضطره إلى الحملة عليها ؟ إنما الواضح لي أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفره بينت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها ، وإنما يجعل الأمر في ذلك لله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذي لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الأمر من غير أن يكون ثمة موجب أو علة ، بل يرى كما قلت أن حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويغنى بها جادة الحق ومنهج السداد ، ولكن البابوية لم يخفها ما أتت في سائر الجهات والأمصار من التضليل والتغريب ، حتى هجمت على لوثر في قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فأبى ، وآية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال لا يملء فيه . ويبان ذلك أن البابا « ليو » العاشر احتاج إلى المال

وكان مبدراً متلافاً ، قابضاً من وجهه حرام وطريق ممقوت ، إذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج إلى شفاعة بابا ولا بطريق ، وما هو بالسلعة تباع في السوق بالذهب والورق ، وإنما هي ضاعة لا ثمن لها إلا الإخلاص الصريح ، والنوبة النصوح ، ودعم المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرر سبابته . فإن كان لا بد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والإنجيل ، ولكن البابا رأى الجهل فاشيا في الناس فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الأوراق المدلسة المرزولة ، وكان يسميها أوراق الغفران . ومع كل راهب صندوق فيقول للناس « من كان له في الجحيم صاحب أو قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله إلى الجنة ، فلينبذ في هذا الصندوق قرشا ، فإنه لا يكاد يصل حتى يطير الروح المعذب من مشواه في النار إلى أنضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه «تنزل» على بضعة فراسخ من بلدة «وتنبرج» حيث كان لوثر ، فأصغى إليه كثير من العامة لسذاجتهم ، وبلغ من شره أن بعض القوم نبذ طاعة لوثر في كثير من أوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود ، فقدح ذلك في أحشاء لوثر ، ورأى أنه قد آن له أن يثور في وجه البابوية الكاذبة ، ولم يخش الراهب «تنزل» بل قال « إن يشأ ربي وربكم فلاأصدعن مروتة ، ولاأختن أثلته » .

ثم كتب رسالة أبطل فيها عمل البابا وطعن في خطته ، وأرسل صورة منها إلى بطريق مدينة «ماجدبرج» شيخ النصرانية بألمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة «وتنبرج» فهب هذا النبا مهب الريح في كل وجهة ، وطار في أنحاء العالم الأوربي مطير البرق .

وأدبر الراهب «تنزل» فنزل بلدة فرانكفوت الواقعة على ضفة نهر «أودار» . فكتب ردوداً على أقوال لوثر وشرها ، فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة «وتنبرج» . وسمع البابا بذلك فقال متهمكماً : « لا إخال أن لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها زعماء البابوية وأنصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ، ويحمي به وبهم وطيس

الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ، ويدفع باليقين شبهاتهم . وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفذ صبر البابا ، وذهب عنه ما أبقاؤه التجلد من رمق الاحتمال والمطاوله ، فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة ، وأمر بكتاباتته أن تحرق ، وبه أن يرسل مكبلاً في الأغلال إلى روما لعله ليحرق أيضاً فيلقى من الجزاء ما لقي القسيس «هاس» من قبله ، ونعم المناظرة النار ما أخصر وما أسرع ، وما أقرب إلى الغاية وحسم النزاع ، يا للظلم ويا للفجور ! يستدعي البابا القسيس «هاس» ويعطيه عهد الله وميثاقه ألا يمسسه بسوء ولا يناله بأذى ، ويحضر «هاس» رجلاً لا مشاغباً شديد الخصومة ، ولا مشاكساً ألد الجدال . وإنما رجلاً سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان ، فيودعونه سجناً أضيق من بياض الميم ثلاث أذرع في مثلها ، ثم يضرمون عليه ناراً فيقطعون بصوارم اللهب صوتاً ما رفع إلا في طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

أنا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر في قيامه الآن ضد البابا ، فإن ذلك البابا المترف الكافر والوثني الأنيق الثوب السائغ الطعمة ، لما أوقد ناره لحريق مکتوبات لوثر أجهج بها حنقا وسعر بها غيظاً وحرذاً في أشجع فؤاد كان إذ ذاك في العالم - أشجع فؤاد وأضرعه الله وأشدّه تواضعاً . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين إطفاء . وكأنني بلوثر يقول في نفسه حينذاك « أتحرق يا هذا الرجل كتاباتي هذه وما أريد بها إلا الحق والهدى ، ولم يعمد بها إلى غير الله ، وتسمى نفسك بعد ذلك إمام الناس وخليفة المسيح في الأرض ؟ أتجعل الجواب على هذه الأوراق إحراقها وما فيها إلا عظة لك وحكمة ، وتريد أن تحرق كتابتي ؟ أنت خليفة الله في أرضه ؟ كلا : أنت خليفة الشيطان ومثواك مشواه ، ودارك معنى لإبليس وجنوده ، وعش لخفافيش العمى والجهالة ، وجحر لهوام السفه والضلالة ، وإنسى لأشهد على لاأحتك تلك التي أصدرتها نغمه على بالكذب والجور ، وليس لها لدى إلا النار ، ولنفعل بعد ذلك ما تشاء . » ثم إن لوثر جمع من شيعته وأنصاره مجعاً ورفعوا ناراً فأحرقوا فيها لائحة البابا وأكثروا

عليها الخفاف والصباح يجرأى من مدينة « وتبرج » ، بل يجرأى من العالم أجمع .
 لك الله أيها البابا : ليسما صنعت إذ استشرت من صدور الناس تلك الصيحة .
 فإنها صيحة استيقاظ الأمم وانتباه العالم . لقد طالما أوغرت صدر ألمانيا حتى
 ضاق ذلك الصدر بما كظم ، وحتى طفق ذاك الإناء ولم يبق فى قوس الصبر
 مترع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال ، وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم
 دولة الزور والبهتان ، وقد آن للحق أن يعيل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطى الأضنام ، ومرجعى الناس إلى
 الحقيقة بعد طول الإقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظماء عامة ؟ أو لم يقل
 محمد (عليه السلام) للناس إنما أضنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ؟ وهل
 كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له (ما هذه الأوراق التى تسميها أوراق العفو إلا
 أكنوبة وأضلولة ، وما أنت والعفو عن الناس ؟ إنما ذلك بيد الله) إلا كمقالة
 محمد ؟ الله أنت يا لوثر أى كاشف غمة ، ومنقذ أمة ، وأى مرجم شياطين ،
 وسيف على رقاب الظالمين أنت ! وبأبى أنت إذ تقول ولا تبالي نيران البابا ولا
 جيوش السلطان : « إنما العفو بيد الله والأمر لله وحده ، وإنما البابوية وما
 يدعونه من تلك الرعاية الروحانية إفك وزور . وكيف وما أراها إلا أثوابا
 مرقوشة ، وأوراقا منقوشة ، وما كانت تلك المواد الجمامدة الميتة لتكون زعامة
 نبوية ، ورعاية روحانية ، إنما هى حقيقة رائعة ، وما دين الله وفردوسه وجحيمة
 أباطيل كتلك ولا أكاذيب ، فبهذا وحده ، أو من وبه اعتصم ، وعليه أقوم ،
 وفيه أضرب أوتادى ، وأرسى أطوادي ، وإنى إذ أفعل ذلك لأقوى منكم جميعا ،
 وعصمة الله أمتع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعازل ، وبأس الله
 من بأسكم أشد ، وكيد من كيدكم أقوى ، وأنا وأنتم بنصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فازهقت ما دبروا إحدى هنالك إنما إزهاق

أنا فى وحدتى بهدى الله قوى ، وأنتم فى جموعكم بالضلال والكذب
 ساف ، أنا من طاعة الله مدحج فى أكمل سلاح وأحصن حنة ، وأنتم من
 عصية الله فى أسمال رثاث وأطمار رعايل ، منكشفو العورات حاسرو المقاتل ،

وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها فى السماء ، وأنتم فى
 باطلكم كالمثكى على الهواء ، والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة « ورمز » وظهور لوثر هنالك . ولعل هذا كان
 أحل مشهد فى تاريخ أوربا ، والمنبع الذى منه فاض تاريخ مدينة الحديثة ، والذى
 كان من أمر هذه الحفلة أن إمبراطور ألمانيا شارل الخامس - أعيته الحيل فى لوثر
 ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر فى شئون
 الولايات ، استدعى لوثر ليعرف ما عنده ولينتهى معه عند حال ، وكان المجلس
 حافلا بجميع الوجوه والأشراف وأمراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك ،
 وإلى هذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قريته ليسأل ألا يزل مصرأ على رأيه ؟
 فيجيب نعم أو لا ، خصمان متواجهان ، وقرنان متبارزان : أحدهما : قوة العالم
 وزهرة الدنيا وجيوش الأرض ، وثانيهما : رجل فرد نجل الصانع المسكين « هانز
 لوثر » قائما فى نصرة الحق . وقد نصح إليه الإخوان ألا يذهب ، وذكروه بنياً
 القسيس « هاس » ليكون فيه عبرة ومزدجر ، فأغلق دون كلامهم أذنيه ومضى
 على عزيمته فى الذهاب وصمم ، وقال (نال الله لأذهين ولو أن بمدينة « ورمز »
 من الشياطين بقدر ما بها من الحصى) ، وجعل الناس يصيحون به من نوافذ
 الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة إلى الحفلة ، أن أقم على مبدئك وتشبث برأيك
 ومذهبك ، وإياك والانخدال والخزعة . وجعلوا يتمثلون له آية من الإنجيل فى ذلك
 المعنى ، ذلك ما طلبه إليه أهل وطنه ، وهل هو فى الحقيقة إلا طلب العالم أجمع -
 طلب العالم الذى جهده أغلال الباطل ، وشفته ظلمات الضلال . وأخذ بكظمه
 شيطان الجهل حتى بلغت الروح التواقى - طلب العالم يصيح بلوثر : أغثنا أدر كنا
 يا بطل الأبطال ، فإن مدار أمرنا عليك ، وأرواحنا فى يديك .

ولم يخلو لوثر ولا خيب فيه آمالهم ، وقام فى المجلس خطيب فتكلم ساعتين
 كلاما سلاه الحكمة ولحمته الإخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يدعى للحق وليس
 لغيره يدعى ، وأن كتاباته بعضها من إملاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب
 الله ، فأما ما كان من بنات خاطره فذاك ملئ بالغيب وخصاً به كلام بشر ،

ومن أكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الأساسي الجوهري من غيره . فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد أنه يعظ الناس في قلنسوته (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكي ومخالفة لمبادئ الملة الجديدة) فلم يعبا لوثر بتلك الشكوى بل قال : « وأى ضرر في القلنسوة ؟ دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثاً إذا شاء » .

وقد ذكر « ريشتر » لوثر فقال : لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حرية ، وما أخطأ في قوله ، ولعل أهم صفات لوثر هو أنه كان يستطيع أن يجارب فيقهري ، ويقاقل فينتصر ، وإنه كان تطعة من الشجاعة ، وفلذة من المروءة ، ولا تعلم قط في التاريخ الحديث والغابر إنساناً أشجع قلباً من لوثر ، ولما قال في مدينة « ورمز » كلمته الماثورة وهي : « ولو أن في « ورمز » من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والتهيه كما يكون في مثل تلك المواطن ، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعرضون عباد الله في مسالكهم بالشر والأذى ، ومن يذهب إلى الغرفة التي كان يكتب فيها لوثر ترجمته للإنجيل ير على أحد حيطانها بقعة سوداء — إثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن ، وأصل ذلك أن لوثر كان جالساً في تلك الغرفة يكتب ترجمة الإنجيل وكان قد نهكه الكد ، وأعياه الجهد ، وبلغ منه المرض والصوم ، وكان من أثر ذلك أن تراءى له شيخ مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه إبليس أثناء ليقعده عن عمله ، فثار لوثر ثورة جبار ، وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فإذا هو قد املس . وأثر الدواة في الخائط باق إلى الآن آية دليلاً على أمور شتى ، وأن في قدرة أي تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ، ويحل لنا مشكلتها ، ولكن اعتقاد لوثر أن الشبح القائم أمامه هو إبليس ، ثم نهضته في وجه إبليس وقذفه إياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة وأقصى غايات البأس والنجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم ، فهو أخرى ألا يهاب ملوك الأرض وجبايرتها ، وقد كتب مرة العبارة الآتية : (الشيطان يعلم أن عملي هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة ، فلقد ظالمنا رأيت

وأما ما كان مأخوذاً من قول الله فأساسه الحق وليس يبرأ منه أبداً الدهر . ثم سأهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فإذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار إلى ما يحبون . إلى أن قال : « أنا لا أحالف ما يأمرني به العقل والنهي ، ويوحى إلى به صوت الحق من زوايا الضمير ولنفس . ذلك ما في وسعي وطاقتي وليس لي عنه عيب ولا دونه مذهب ، وعلى الله أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل . ألا ترون أيها الإخوان أن هذه كانت أخطر ساعة في التاريخ الحديث ، وأن عليها قامت دعائم الدستور الإنكليزي وبرلماناته ، والحرية الأمريكية واستقلالها ، والثورة الفرنسية ونتائجها في أنحاء الأرض ؟ نعم في هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر في تلك الساعة خطة أخرى لكان لها عواقب أخرى ، وكأنت العالم الأوربي كان ساعته مائلاً أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أتري لا أزال في محنة وبلاء يهوى بى النحس إلى مساقط الجهل والشقاء ؟ أم يرزقني الله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغبط بمناعم الراحة والصفاء بعد مخايب العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر أنه أثار في وجه الدين ثورته ، وأحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زواجر الفتنة أو يسعر نيران الهيحاء : بل حقن الدماء في الأبدان ، والسيوف في الأحقان ، ولم يحول النزاع حساماً ، والقراطيس أعلاماً ، ولا استبدل من صرير القلم في لظروس ، سليل السيف في الرعوس ، ولا من التناضل بالأقوال ، التناضل بالنبأ ، ولا جعل الكلوم^(١) موضع الكلام ، والجلاجل بدل الجدال والخصام . وقلما نجد رجلاً أحدث أمراً جلالاً وهاج حركة هائلة إلا غاله مما أحدث غائلات . والتهمة مما أثار نحن جوائح ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الأوضاع المألوفة ومروق . وإنما وفق لوثر إلى ذلك بفضل ما لوتيه من الحزم والبصيرة ، والحزم رأس بوارخ الخصال ، وكرائم الخلال ، ودانية الصلاح ، وسائقة الفلاح .

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح .

الشياطين ونابذتها . والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً ، وأين هو من سطوة الشياطين ؟ فليعلم هذا الدوق أنني لو شئت أن أدخل بلدة « ليزييج » لدحتها قسراً وعنوة وجست خلالها ، ولو أن سماءها غطرت أمثالاً من الدوقات تسعة أيام (ولاء) ، لك الله يا لوثر ! أى طوفان وسيل من الدوقات نريد أن تقتحم !

وشد ما يخطئ الذين يحسبون أن شجاعة هذا الرجل كانت ضرباً من البطش وبعث ، وصنفا من العناء والعصيان واخشونة والعجرفة ، وما أبعدا عن ذلك . لا أنكر أن هناك ضرباً من قلة الخوف مصدره قلة العطف أو قلة التفكير ، وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الأعمى ، كشجاعة النمر . وهل ترون شجاعة النمر قيمة ؟ أما لوثر فكان غير ذلك بته ، ولم أر تهمة أكذب من نسبة لحنث والقسوة إليه وكيف ؟ وما كان قلبه قط مجالاً لغير الحب والرحمة شأن كل فداء من مروءة وبر ، والنمر إن صادف ترنا أشد منه بطشاً فربما ، فما هذه شجاعة وإنما فتك وقسوة . ولست أعلم شيئاً أرق وألطف مما كان يصدر عن لوثر من أنفاس المسودة والعطف . تلك التي كانت أرق من أنفاس العاشق من حبيب ، وأنفاس النسيم في السحر ، فله ما كان أرق هاتيك الأنفاس ، وأعني بكلمات الرجل ، وما كان أصفاه وأخلصها من شوائب الرياء والكلفة ، تشبه بالعذب الزلال تتفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته وإطراقه ولباسه مرة صباه إلا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة في الحروب الحقيقية ، والنفوس الجديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهي حالة يصاب بها من الرقة من الشعراء ، وقد أصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر ، بل لقد مع من رقة لوثر وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلاً ضعيفاً هباباً ، عسيراً . أكرم الشجاعة وأسمها ، بل أشدها وأقواها ، هي المنبثة من فؤاد كله

بأنه ما في كتاب لوثر المسمى « حديث المائدة » ذلك الذي جمعه أصحابه من أقواله وكلماته من الآيات البيّنات الدالة على عظمة الرجل وفضله .

بمن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيده له من جلد في رقة ، وصبر في حرقة ، وقوله أنه استودع نصيبه عند الله ، ولكنه لا يملك مع ذلك وجداً عليها قد أوقد لوعته ، وهاج غلته ، وكمداً والنياحا ، وحنينا ونزاعاً . ثم جعل وهو مشدوه (مذهوش) حائر ، ينظر في أعقاب روحها الصاعدة إلى الله قد غابت في أنشاء تلك العوالم المتجهولة وراء حجب الموت ، - ينظر دهشاً حائراً وحسيكماً ذلك قليلاً على صدق الرجل وإخلاصه وعلمه . إنه رغمًا من اختلاف الليل وافترق التحل فإننا معشر الآدميين لا تعلم شيئاً ولن نعلم ، وكل ما يدرك إزاء حادث اسوت الذي احترم حفيدته هو أنها ستصبح عند الله ، وأن الله أرأف بها وأرحم ، وأن خير الأمور أن يسلم الأمر لله ، فالإسلام دينه ومذهبه .

ومن آيات عظمت أنه أطل من من نافذته مرة في خوف الليل فقال في نفسه : « عجباً هذه القبة الزرقاء ، وهذا الفلك الدوار ، وهذا السحاب الركام ، يا الله ما أروع وما أجل ! على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لا دعامة إلا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد ، وأمطر من السماء ماء فأخرج به نباتاً ، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » . ولما كان عائداً ذات يوم إلى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال : ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقائق الذهب على قضبان الزبرجد ، بركة تفتطرت عنها أحشاء الأرض ونعمة سلتها يد الله من أعماد الثرى .

ومن آياته أيضاً : أبصر ذات مساء عصفوراً قد خيم في وكره على شجرة بأحد البساتين ، فقال : عجباً لهذا العصفور ما راعه هول ما فوقه من هذى السموات أن يطمن في عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضاً أمره للخالق الذي مهد له في جناحه ووطأ له في كتفه . هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمه ، وكذلك من كان قلبه أمين النواحي رقيق الحواشي ، غزير مادة الحنان والحب ، وقدماء كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وأمانة المروءة والبر . ثم أما ترون في حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، وجمع تفاريق هذه

تنوعات العالية ؟ وكم من معنى لطيف يعبر به البيان ، ووجدان شريف يعجز عن أدبته اللسان ، أداه إلينا لسان مزماره ، وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول الشياطين لتفر من نعماته ، وتفقد عند وجود أخانه ونيراته . فله أنت أيها البطل من جامع الضدين ، ومؤلف التقيضين ، بأس تسطو به على الجن وأبالستها . ورقة جذبت بملك نحو الأنغام ومطرباتها ، والألحان ومرقصاتها . إنهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، مضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى في وجه لوثر عنواناً على خلقه : فهو وجه خشن الملامح تعرف في قوة عظامه ووعورة أركانه معاني البأس والقوة ، والنشاط والهمة ، وفي العينين حزن في صبر ، ووجد في سكينه ، وكآبة لا تكيف ، ورنه لا توصف ، وتلك على كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء شرف والتبل ، وقد قلنا إن الضحك كان مغروساً في طينة الرجل ، ولكن تلك صينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلاً ، وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره ، تحميه وأنهاره ، وكان أساس حياته الحزن والجهد والإخلاص والجد . ولقد في تحريات عمره بعد مظافره وانتصاراته إنه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وأن له عند الله أمنية هي أن يريحه من متاعب الوجود ويقبضه إليه . ومن هنا يكسبه هذه وأعداها عليه فقد أخطأ ! وما أحسب إلا أن لوثر كان رجلاً عظيم - كبير القلب كبير العقل كبير النفس - رجل من خيرة رجالنا وصفوتهم ، لا كـ... لا كـ... بل الأشم ، أصم الصخور صلد الصفا ، وفي نقره وثغبانه الزلال بعد لسلسال ، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة ، وترف بهجة وغضارة . وهو ورع ورع ، وفاكهة ألوان . وقصارى القول إنه بطل ونبي ، ونتيج النبوة وسليل الحقيقة ، والجدير أن يحمده الله عليه هذه الأجيال ، ومن سوف يمدح حتى هذه الأرض من غابر الناس ويدب .

ثم - مذهب لوثر تفرق شعباً فأكرم شعبه وأطيب فروعه ، ذلك الذي نبت في جرمانيا ذاتها فإن البروتستانتية ،

أخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الأديان إلى مواطن الجدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب إلى اللسان ، وعن العقيدة إلى الحجة والبرهان ، بل ما زال بها لإضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت إلى تلك المباحثات الجلية التي كانت أيام الثورة الفرنسية ، أما في بلادنا « بريطانيا » فقد أخذت البروتستانتية صورة أخرى هي البيوريتانية ، ثم غوى بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة (البريزباتيريانية) وهي الكنيسة القومية لأهالي اسكوتلاندا ، وهي ملة حق صريحة ، وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب ، وغارها جملة في أنحاء العالم البريطاني ، وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الإمام « نوكس » ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية في إنكلترا ، ومنها نشأت البريزباتيريانية - مذهب القسيس نوكس .

في عام ١٩٢٥ رحل القسيس الإنكليزي ولیم تيندال إلى بلدة لوثر « وتفرج » متجذباً إليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه . وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقوى ناقماً على الكاثوليكية ، فرحب بمذهب لوثر أي ترحيب . وكان قبل رحلته إلى جرمانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدلين : (إن يطل الله مدتي لأترك راعي الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) ، ولما ذهب إلى بلدة لوثر وحدها محط الرجال وملتقى الرجال ، قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحذب وجلهم من الطلبة ، فقد أخلصوا لله وتفانوا في حبه فلم يكن لحالهم تلك مثيل إلا حالة الصليبيين ، ولا لبلدة لوثر شبيهاً إلا مدينة بيت المقدس ، وكانوا إذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسروراً ، وهنالك ترجم تيندال الإنجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه إلى إنكلترا . ولم يك هذا الكتاب قاصراً على ترجمة الإنجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الإنكليزية بأشد المقت والإنكار ، وأمرت بعدد كبير من نسخه أن تحرق فأحرقت في مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى . ولكن ذلك لم يمنع أرباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ، ومن الرسائل المهيجة التي كان يكتبها لوثر وأنصاره إلى الأقطار

الدينية ونشرها بين حشود الفقراء من العمال والصناع والباعة ، وكان المشولى
لدى جمعية اسمها « إبحر النصارى » مؤنفة من بعض تجار لندن وأهلها
مكره لندن ، ولكن سيد تشار في سائر أبحاثه البريطانية ، فوجدت هذه
الجمعية إليها إلى الجامعين « كامبرج وأكسفورد » حيث كانت النهضة العلمية
قد فتحت عيون الفرح من المسائل الدينية ، وبعث الطلبة على الاشتغال
بالبحوث الفقهية والإسبانية ، وكانت كامبرج قد رمت بالزندقة وسرت منها
عصياناً من أبحاث أكسفورد ، وكان من أمر ذلك الهياج الذى أعقب انتشار
الصحف المذكورة ما أجبر الوزير ولزى إلى مؤخذة الخاضعين ، فخرج فسوس
أكسفورد فى السجن وأحرقت كتبهم ، ولكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك
الحد رغماً مما ملكهم من سحر والفرق ، وإنما صرفته شئون السياسة عن مسائل
الدين .

وكان لانتشار الإنجيل بين سكان بريطانيا من التغير الأخلاقى ما لم يسبق له
مثال فى تاريخ البشر ، إذ أصبحت إنكلترا أمة كتاب — وهذا الكتاب هو
الإنجيل ، نعم أصبح الإنجيل كتاب كل إنكليزى يتلى فى الكنائس وفى المساكن ،
وحيثما وقعت كلماته قرعت آذاناً لم تخلقها كثرة الإعادة ، ولا بلدها طول
التكرار ، فحركت من نفوس ما حركت وهزت من كل جنان أريجته ،
وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصوته ، وحب الأمة للإنجيل راجع إلى
علة خلاف السبب الدينى : وذلك أنه كاد يكون أول كتاب أدبى نظر فيه
الشعب الإنكليزى وتنزه فى رياضه وحنانه ، وحنى أزهاره وثمراته ، ولم يك قبل
ترجمة الإنجيل لدى الإنكليز من أسفار الأدب إلا ما كان كتبه « ويكيليف »
وكاد أن يتسنى ، وإلا ما نظمه شاعر « تشوسار » وكان لا يعرفه إلا الأقلون ،
نعم لم يوجد قبل ترجمة الإنجيل فى اللسان الإنكليزى تاريخ قط ولا رواية ولا
قصة ولا شعر إلا منظومات تشوسار ، فلا غمرو أن أصبح الشعب الإنكليزى
يرهف الأذان لاستماع عبارات الإنجيل فيجد أبهى مستمتع فيما بذلت الكتاب
المقدس من المسموعات والقصص ، وأغاني الحرب وأناشيد الدعاء ، والتراجم

والسير ، ومواعظ الرسن ومزاجر الأنبياء ، وحكايات الأسفار البرية والأخطار
البحرية ، وجولات فسوس فى بلاد الوثنية ، وفى المناظرات الفلسفية وتصورات
الكنيسة ، فقد كان إذ ذاك نهضتان — علمية أحدثها ظهور دفان العلوم القلتية
اليونانية — ودينية أحدثها كشف خبايا الآيات العبرانية ، وشذية أبعد أشواطاً وأمد
نفساء ، وأعمق جذوراً وأطول أغراساً ، من حيث إنها نهضة شملت الخاص
والعام ، فى حين انحصار الأثر فى دوائر العلية المتأدين . وذلك أنه لما لم يك
فى طالة الترجمة أن تنقل إلى الإنكليزية براعات اللسان اليونانى ، تركت عرائس
ذلك اللسان مخبوءة فى خدورها فلم يستطع استجلاءها إلا لواقفون على أسرار
اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت أسمع ما يكون قياداً فى عنان
الترجمة ، حتى أصبحت فى ثوب الإنكليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسناً
وبهاء ، وبهجة وروء ، بل أصبحت أشرف ما لدينا من تحف اليراع الإنكليزى
وأكره نقائسه ، وأسويها ميزان الأساليب فى الإنشاء ، ونظامها معيار النظم فى
الكتابات ، بل إن أثره بقى فى نفوسهم ككتاب أدبى ، وإذ تذكرنا ما هو مبثوث
فى عبوس كلامنا العادى من كلمات كبار مؤلفينا — أعنى تلك الشذور التى
تسربت إلى أحاديث من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف دكنز وثكرى ،
أذكرنا كيف كان لسان الإنكليزى فى تلك الأوقات يأخذ من ترجمة الإنجيل
زخارفه وحليه .

وأعظم من أثر للإنجيل فى الأدب ولغة المحاررة ، أثره فى أخلاق القوم ، لقد
كان الإنجيل يفعل بالألباب إذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات
والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ ، وكان من أثره أنه بدل آراء الجمهور
فيما يتعلق بمسائل حياة وأحوال الإنسان ، وبعث فى جسم كل طبقة من
طبقات الأمة روح جديدة أخلاقية وأخرى دينية ، ونفض الدين صغته على
الكتلة ، فما من رسالة تصدر إلا وبها عرق زاهر بالورع والتقوى . وهكذا
خلقت الكتابات الدينية فى ذلك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات
الأدب الطليانية واللاتينية ، وقد قال جروشاس وذكر إنكلترا : « وأصبحت

وكان البيوريتاني حسن القصد في أموره ، قليل السرف يباكر شؤونه ،
والبركة في البكور ، لا ونية عنده ولا فتور ، مشمراً من ذيله ، متكسباً في
عمله ، وكان أحسن ما وفق إليه من المحامد فضيلة المشاورة . وذلك أن إحصاءهم
في الله أنساهم ما كان قبل راسخاً في نفوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل
المقامات ، حتى كان أحقر فلاح يعتقد أن الله قد شرفه وقدمه ، وحتى صار
أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الأبرار ، وصعاليك الأتقياء الأخيار ، ولكن
إفراطهم ذلك في حب الفضيلة والتقوى وإن عاد بالقوة على أخلاقهم ، فإنه ضيق
دائرة رحمتهم وفهمهم ، وقد ظهر أثر ذلك في الشاعر الكبير البيوريتاني ملتون -
في احتشامه واتقاضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » وعزوفه
عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبه
شاكسبير لا يظهر ارتياحاً إلى بحون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه ، وإذا كانت
هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت
الحال مع من هم أقل أدبا وعلماً ، وأجهد قريحة وأكثر فهما ؟ نعم لقد آل ذلك
التشدد في التدين والإفراط في التورع بهؤلاء القوم إلى أجهد أساليب الحياة ،
وأمرها وأكرهها وأبعدها من الألفة وحسن العشرة ، وأصبح البيوريتاني وليست
الربطة بينه وبين الغير هي رابطة الإنسانية ، ولكن نسب التورع والتدين بين
طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه . وكل من خرج عن دائرة هؤلاء
الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وإنما هم منه أبرياء ، وإن تقور
البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين
رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشى الفعال . وهذا كروميل نراه بينما
قد أدمى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور باننصاره الباهر في واقعة
« بطحاء مارستون » فعاد من المعترك قائزاً كخائب وظافراً كمنهزم - تراه مع
ذلك يهش ويهش ندى يوقع إرضاءه على الأمر الصادر بإعدام الملك « شارل
الأول » وما ذلك إلا لاعتقاده أن ذلك الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين ،
وليس هو لغلظ في كبده أو فظاظ في طبعه ، وكان من تفانيهم في الله أن

السيادة فيها للدين » ، وقصارى القول إن البلاد أمست وهى كنيسة كبيرة ،
ومسألة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاضت على ذوى الألباب
وأولى النهى فى عصر شاكسبير ، فما عرفوا لها حلاً ، عادت الآن نصب عين
الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها ، ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفاً
وتعصباً ، ولم تتعد إلى ملاهى أربابها وملاذهم فتلغيتها وتبطلها ، وإنما كان
البيوريتاني فى أول الأمر كما قيل :

فلله منى جانب لا أضيعه وللهم منى والخلاعة جانب

فمن أدلة ذلك أن إحدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشinson
وكان بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها إلى إبراز جماله كما كان أيام صباه . ولو
كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم إذ ذاك من أمر الزخرف والزينة ،
لكان لها مندوحة عن فعلها ذلك ، ولكن السيدة مالت إلى إبداء ثغره الوضاح ،
كالآلئ النسق والأقاح ، وجين كأنه المصباح ، أو فلق الإصباح ، ولما حالكة
مدلومة ، فهى كما قيل :

وجاء بها ثور ترف كأنها سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعاً بالصيد
والقنص ، مغرمًا بالمسابقة والرقص ، كلفاً بالفنون الجميلة ، ما تزال تستخفه
قصيدة وتستغزه صورة ، وتستتبه نغمة وتطيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه
فستى وعل ، وغرس واستأصل ، وأصلح وشذب ، ونقح وهذب .

وكان البيوريتاني بعد عزوفه عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صباه عن
الحرام ، وعدل بصباياه عن مراتع الوخامة والوبال ، إلى مقامات الشرف
والكمال ، فكان أبا رحيمًا ، وخلا حميمًا ، وزوجاً شفيقًا ، وأخاً رقيقًا ، ولم
يك قط فى فتنة النساء ما يحرك شهوته ، بل كان غضيب الجفن عن كل ما
يريب ، شامس العطف عن المغريات ، تحده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس ،
عفيف النفس عفيف الطرف طيب معقد الإزار ، يقف من النساء عند محاسن
الحديث والسمر ، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصغر الأشياء . وهكذا تحولت حقائق الأمور فى حرارة التدن ووهج الغيرة جسمائهم وعظائهم ، وأصبح أحدهم يؤمن من رؤية فظيرة العيد أو كعكته ما يؤمن من رؤية الخبائث والمفاسق ، وبات الحياة وهى عبء من الأعباء ، وسخرة خالية من اللذة ، وكلفة قفر من البهجة ، وقام بدل مباحح العهد الإليصاباتى ومفارحه ، ومأنسه وممارحه ، مرارة البيوريتانية وجددها ، وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة ، ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوسائس ، وتلك المواجهات . وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيّل إليهم أن حياة الناس العادية نوع من الإثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية أوليفر كرومويل : « لشدة ما غويت وضللت أيام الشباب » وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية ؟ هى أنه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوز ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ : ولا بأس على الشاب فى ألا يكون كذلك .. ثم انظر إلى جون باتيان صاحب الكتاب الجليل « سيرة الحاج » كيف حدث عن نفسه فقال : « لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت تخضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما أشبه ذلك ، فكانت مبعث رعب لى ومثار قلق وكرب ، تعزىنى أثناء لعبى مع الصبية عظة من الله وزجره ، ولكنى كنت أهملها وآبى إلا إقامة على ذنوبى ومآثمى » . أفترى ما هى تلك الذنوب التى أبى إلا الإقامة عليها ؟ هى نوع من لعب الأطفال وصنف من الرقص ، فأما عيبه الحقيقى وهو الإكثار من الحلف ، فقد كان أقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فأنكرته . وكان له ولوع شديد بسماع الأجراس تفرع ، وكان يحسب ذلك مأثما فكان لا يزال يذهب إلى موضع تلك الأجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهى تفرع ، حتى يخيّل إليه أن الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا ، وانصرف حينئذ عن الرقص والألعاب ثم عاد إليها ، وفى ذلك يقول : « لقد صرفتنى عضة رجل من القسوس عن الألعاب ،

ثم ما لبث أن استهوئتنى بلذاتها ، فبأنى ذات يوم لألعب قطنى وقد ضمتها لظمة وهممت أن أضمها الثانية ، وإذا بصوت من السماء قد نفذ إلى صمبه قلبى وكأنما يقول : أيهما تفضل ، وتختار : ترك الذنوب ونعيم الجنة ؟ أم لإقامة عليها وعذاب النار ؟ فأصابتنى لذلك دهشة ، وأطلقت القطعة ورفعت طرفى إلى السماء ، وكأنما رأيت يعين ذهنى السيد المسيح ينظر إلى كالغاضب على : وكأنه يتهددنى يعقوبة صارمة إن أنا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام »

وكذلك كانت بيوريتانية مزيجا من النقص والفضل ، وخليطا من السخف والنبل ، ولنا أن نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ، ولكنه لا يسعنا مع ذلك إلا الاعتراف بأنه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهى بعد غرس غرسته الطبيعة ، وما إن تزال تنقلده فهو ينمو ثم ينمو . وطالما قلت إن الحياة معزك فما فاز فيها وظفر فهو حق ، وما خاب وانهمز فهو باطل ، فالقوة بقياس التفضل . نخذ مثلا عظمة أمريكا الحالية ، وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها ؟ الله يعلم أن منشأها لم يك إلا فئة ضعيفة بيوريتانية من أهالى هولاندة أضر بهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة ، فخرجوا من ديارهم وهاجروا منذ قرنين إلى أمريكا فى تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع ! ولم كان لنا خيال اليونان وشاعرتهم لقلنا فى ذلك الحادث المذكور القصيد المحير ، ولكن حسبنا أن الطبيعة كتبت فى هذا الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف حقائق الناصعة على صفحة العالم ، ولقد كان بأمريكا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ، ولكنهم لم يكونوا إلا كجسم ميت . فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت فى الجثة الهامدة فأحبتها ، نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع أمريكا ، وماذا كان ما كان أمريكا إذ ذاك ؟ غابات خضر وأجسام سود مسدودة عذراء . فتمزعا قدم ولا فتحت أغلاقها يدان ، مستبهمة المعان طامسة الأعلام ، وأمامهم وحشية ولكن هذا كله أخف إبطاء من الحكومات الظالمة والملوك العذبة ، وقد علموا أنه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك ، فإن فى الرخصة ما يذلل أنفها ، ريلها ، مطفها ،

ويستغزرها ، ويستلتر خيرها . وأنهم سيجلدون من الأرض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون فى حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو صروف الدهر ، فيقضون أعمارهم بالعبادة والتقوى ، ويتزودون من دنياهم لأخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم ، أخذوا عددهم . شحنتوا أمتعتهم واستأجروا مركباً .. السفينة المسماة زهرة الربيع - واستقبلوا بها غباب اليم .

ولما نزلوا السفينة أقاموا بها شعائر الوداع والتشيع على صورة دينية ، ولا غرو فقد كان عملهم هذا دينياً - وإن تشأ فقل ضرباً من الصلاة والعبادة ، فتصحبهم قسيسهم إلى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك إخوانهم الباقون بعدهم ، وابتهلوا جميعاً إلى رازق النسر فى السماء والخوت فى بطن الماء ، أن ينصر إليهم بعين عنايته ، ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلمهم بمناجى رعايته ، ويكون لهم فى بلاد الغربة وديار الوحشة حرزاً منيعاً ، وروضاً مريعاً ، وكنا دميث . ووثاراً وطيباً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وأند جعل منه عسى أيدىهم نفاذ أمر من أجل أموره ، وإن كان قدرهم إذ ذاك لم يك إلا صغير فأول النار شرر ، وأول الغيث قطر ، وكل شىء حق ، فمهما ضؤل ، نعت فسريكه الدهر يوماً ما ضخمهما جسيما .

مثل الهلال بدا فلم يرح به صوغ الليالى فيه حتى أقمرا
بيوريتانية وإن سخر منها الناس سلفاً فلا يستطيعون أن يسخروا منها
وكيف وقد أعتدت عددها ولبست سلاحها ، وحملت الخندق واللباقة فى
سبع عشر ، والبطش والقوة فى قوائم الأربع ، وأصبح فى وسعها نرف
نفس الجبال ، وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام ،
من أشد قوى العالم .

ويستأرى فى تاريخ اسكوتلاندة عصرراً جليراً بالذكر إلا ذلك الذى
تتبعه بيوريتانية « نو كس » وما ظنك بلاد قعر لا تغيبها المشاحنات من
متنوعات والفن والمذابح - ناس فى أدنى حضيض الغلظة والسقوط

أحسن قليل من أهالى أيرلنده الحاليين - طوائف من جياح الأمراء والسادة أبى عليهم جهلهم وحمافتهم أن يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جماعة فقرائهم وعمالهم ، ولكنهم كالجمهوريات الكولومبية الحالية لا يستطيعون أن يحدثوا تغييراً حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون إلى تبديل وزارة سيلا إلا شتى أفراد تلك الوزارة ، أشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأول الرثيين من سكان الشمال ، أولئك الذين لا نجد فى مآثرهم الوحشية ومساغيهم الدموية شيئاً يذكر . أجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسماً بلا روح حتى نفخ الله فيها من نهضة « نو كس » روحاً ، فأصبح كل فرد بها برا صالحاً تقياً . وإن تشأ فقل بطلا ورسولاً نبياً .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ، ولا بلغها بوسيلة ، وإنما أتته من تلقاء نفسها ، وذلك بعد أن أوفى عقد الأربعين . وكان من أمره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، قضى أيام صباه فى المدارس ، ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب الجديد - مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل فى شئون الغير بالإقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم ، وكان يكتسب بإلقاء الدروس فى الأسرار الكريمة ، يشرح مبادئ مذهبه إذا سئل ، ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب أنه يستطيع أكثر من ذلك ، وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصلحين وكان « نو كس » بينهم ، وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جأشهم ، ويفتل مرر عزائمهم ، ويستنهض عاثر هممهم ، قال فيما قال : إنه لا بأس أن يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وإنه جدير بكل من وهبه الله قلباً حافظاً ولساناً نطقاً أن يكذب فى نشر الحق لسانه ، ويح فى الإرشاد إلى الصواب ، وإن جون نو كس هو ذلكم الرجل . ثم التفت إلى القوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ؟ إذن فما قعوده عن الإرشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجميع على مقالته وقالوا : إنه عمل غير صالح ، فاضطر نو كس إلى الوقوف ، ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتاً حاتراً ، ثم أحشش بالبكاء وخرج من المجلس يعلو ودموعه على وجنتيه أشد علواً .

من ذلك الوقت فصاعداً نار ثورته وأشعل المذهب البيوريتاني في قلوب الناس
علا ، حتى عادت الأمة الاسكوتلاندية أمة قسوس ، وعادت البلاد وكأنها كنسية ،
والناس يحيون . واعتقادي أن كل ما جاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندية
مخارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة ، بل إن من آثارها أيضا نتائجها أولئك
رجال الدين هم فخر الأمة الاسكوتلاندية ! جيمس وات ، ودافيد « داود » هيوم ،
و روبرت بارنز . وإني لأجد نو كس ومذهبه يفتنان قوتهم وسرهما
من كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض ، وأرى أنها ما كانت تكون
ولا البيوريتانية ، نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم
جميع أنحاء الدول البريطانية ، وذلك أنها شبت حجرة في كنيسة إدنبرج (عاصمة
اسكوتلاندا) فإذا هي قد صارت حريقا أسرع في كل جانب من جوانب بريطانيا ،
بما أن دارت رحي الجهاد خمسين عاما زف الله إلى البلاد عروس الحرية متعة هنية ،
والفضل في ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم ،
وما بها دونهم ، وما تلك بالقسمة العدل أن يصطلوا نار الجحيم ونستصبح نحن
الحرية ، وتأكل جنى النحل وهم يكابدون لذع إبرها ، وتلك حال هي كما قلت
أنا ، حال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخندق المحفور فتسدها
بكتفها ، لكي يفوز الباقون على تلك الأجسام كأنها قنطرة فيفتحوا القلعة ويملكوها .
فإن قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر ، ولأولئك الموت الأحمر . وكم من رجل
مات وكرومويل كافحوا وجاهدوا ، وقاسوا وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ،
والجوع والبلاء ، بل اللوم والتفني ، والهجوم والتنديد ؛ قبل أن يسوق الله للبلاد
الحرية ، ترفل في الأوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

إذ لم أفحش الجور أن تناول الذرية عرض نو كس بالقدر واليهم فيكون وهم
حبل :

يرى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى ستمار
وب عار ألا تزال الأجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه
شما كأنه بعض الجناة المحرمين ، ولا جرم له إلا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ،
والصميم ، والحسب الجسيم ، وإلا أنه كان يحمل تحت ضلوعه أشجع فؤاد

في الأقطار البريطانية ، وإنه كان ولا مشاحة أنبل أبناء جلدته وأنجدهم . ولو كان
متقاعس لهم متقاعد العزم للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تنتشل اسكوتلاندا من
قبضة البلاء ، وراح هو بعرض برى الساحة أملت الجانب ؛ ولكنه أثر المروءة مع لوم
الناس على الديانة مع قلة اليوم . فأصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده ، والنعم
الجليلة على العالم أجمع . فواعجبا أن يحمل ذلك البطل على أن يستغفر لنفسه من ذنب
المروءة وإثم المجد ، وأن يسأل اسكوتلاندا العفو لأنه كان أتع لها من الآلاف المؤلفه
من لم يذنبوا بذنبه . فهم في مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفي غير حاجة إلى
مثل ما يقدمه من الأعذار ! وهل في العدل أن يحل ذلك برجل باع اللذة في سوق
الحق بالألم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشظف والقشف ، ونزل المعترك بلا درع
ولا جنة ، وأهدف للسهام صدره ، واحتمل في الله النفي والأسر يسام العذاب ألوانا ،
وعرض للرعود والقواصف ، والرياح العواصف ، إلى غير ذلك من ضرور المحن
وصريف البلاء . ولكن ليقبل الناس فيه ما يقولون ، فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم
من نفسه ما لا يعلمون ، وإن كان يعيننا نحن أن ندفع لظلم عن رجل لا نزال نرتع في
غرس يديه ، وأن نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

أرى أن أول شروطنا في البطولة - أعني الإخلاص - ينطبق تماما على نو كس ،
وليس أحد ينكر أنه مهما تكن عيوبه وعوراته ، فلقد كان من أشد الناس إخلاصا ،
وكيف وإنما كان بالحق لا غيره يتثبت وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا
الحق شبيها باطلا فيدعه . ولما نفى أسيرا مع أصحابه إلى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد
سقوط حصنهم إثر حصار طويل ، جاءهم أحد السجائين يوما بصورة مريم وسألهم
أن يركعوا لها . فقال نو كس « أتزعم هذه أم المسيح ؟ كلا ما هذه إلا قطعة خشب
عليها ألوان وصيغ ! وأولى بها أن تطفو على مياه نهر : ثم تناولها فألقى بها في
اليوم . ولم يكن مثل هذا المرح بالشئ الرخيص : ذاك . ولكن نو كس لا يبالي في
سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلي صحبة في النكراء ، ويعزيهم في المحنة السوداء ، ويقول لهم :
سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء . والحق أبلج . الباطل للجلج ، وأخو الباطل على
الأيام مقهور ، وصاحب الحق على كبر العصور مشير ، والحق سنة الديان ، والباطل

مسلك الشيطان ، ولا بد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فمثل هذا البطل ممن لا حياة له إلا في عتصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق في أطراف الصخرة الركون . وما أحسب إلا أن الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفئدة الأنبياء ، فهو نبي القلب وإن لم يكن نبي اللسان . وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه إنسان » . وهو أشبه المحدثين بالأنبياء الأولين من رسل بني إسرائيل ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته ، والتعاني في الله وتضحية كل شيء في تلك السبيل ، وشدة الإنحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطئة المثلى ، فإيا له من نبي عتيق في ثياب قسيس محدث ، وما ينبغي لنا إلا أن نعهده كذلك ولا نأسف أنه كان كذلك .

وقد أنكر الناس سيرته مع الملكة ماري وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه ، هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف ما يزعمون ، ولم ير لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب إليها . بل إنني لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال إذ ذاك ! ولم يمثل نوكس أمام الملكة ليعطيها ملق الحاشية ، وإنما الأمر غير ذلك كان مثوله هنالك . ومن قرأ محاوراته معها فلم ير فيها إلا قحة سوقى للأميرة أخطأ وجه الحقيقة ، وأشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل إذ ذاك أن يجمع جامع بين التأدب في حضرة الأميرة ، وبين مصلحة الأمة الاسكوتلاندية وشرفها . ومن كان همه حينئذ أن يحمي البلاد من أيدي الأجانب من أمراء فرنسا ، ويربأ بها عن أن تكون مديا لمكايد أمثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ، ويعترف بدين الله عن مسافط الذلة ومواطئ الأقدام ومواطن الكذب والضلال ، فغير ملىء أن يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الإطراء إلى الخطوة لدى الأميرة والحال عندها . وما أصدق قول « مورتون » حيث يقول : « لأن تبكى النساء خير من أن تخضل اللحى بدموع الرجال » ، وماذا كان نوكس يفعل وقد رأى الأوطان قد خانها الأعوان ، ونام عنها الانتصار ، وتواكل من أشرفائها وتحاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكريهة ، ويدخر للحلى ؟ أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ، ويخنس فيمن تقاعس ، ويتركها نهبا لأيدي الحوادث وغرضا لسهام

الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال ، ولا تلك سجية الأبطال ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ، وضرب الأجياد . وقالت له الأميرة ماري حين جاء ينصحبها : « من هذا الذى قد بلغ من جرأته أنه تكلف نصيحة وجوه هذه الملكة وأميرتها ؟ » فأجاب : « سيدتى ! رجل من رعايا هذه الملكة وأبنائها » جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه ، ولا أنكر أن التسامح محمود بشرط ألا يتجاوز الصغائر إلى الكبائر والقشور إلى الجواهر ، وإنما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، وألا يكون المرء لئيم القدرة . فأما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه ، وما أرسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح في جرائم الكذب والسرقة والظلم إذا أصابتنا ، وإنما نخاطبها بقولنا : « أنت أكذوبة وأنت سرقة وأنت ظلامة ، لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك » ! وإنما نحن في هذا العالم لنحمد الكاذب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشددا التكرير على طريقة استئصال الباطل وإن شابها العيب ، فحسبها أن بلغنا الغرض من إزالة الشر ونحو الباطل ، ومن هذه الوجهة أعنى من وجهة الضلال ولو بواسطة معيبة - بالواسطة التى لم يمكن غيرها - كان نوكس عديم التسامح .

وما كان رجل اضطهد ونفى إلى بلاد الغربة أسيرا سجيناً ليكون فى معظم أوقاته إلا مر الطباع وعر الناحية ! ولست بقائل قط إن نوكس كان فى طبعه عذوبة وفى جانبى لين ودمائة ، ولا أنه كان سعى الخلق شرس الشيمة ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان فى جرأته على الملكة باللوم ، وفى رجاحة وزنه عند أشرف اسكوتلاندا - أولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتهب الميزان الراجح - واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمنا طويلا - لقد كان فى كل ذلك دليل على أن الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وإنما كان رجلا حمالا للعبء نهاضا بالفادح من الأمر ، مضطعا بالباهظ من الخطب . ولا يكون ذلك إلا لمن أوتى بسطة فى الحلم ، وفضلا فى الذكاء والعقل ، وقد ينعون عليه تهديده للكنائس كما لو كان ثوريا مخربا ، وإنما أمره عكس ذلك لو أنعمنا النظر ! وما

هدم الزور والفساد ، وغسل القلوب من كل دنس ورجس ؟ نعم ولا كان ديدنة الثورة بل النظام اتمام ، وإنما كان من سوء حظها أن ألجئ إلى الثورة في سبيل إرضاء عزمه ، وما كان مثل هذا الرجل ليكون إلا عدوا للثورة والفضي ، ولكن ماذا يصنع إذا لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها الرجل المضطر ، يركب الصعب وهو عالم بركوبه ، هذا وإنه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر أن نوكس هذا كان فيه مرح وفكاهة ، وكان بصيرا بمواضع الضحك في كل شيء ، وصفحة ترويجه مخلفة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ، ويحلى من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة « جلاسجو » على الأولوية في الدخول من ذا يتقدم صاحبه ، واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخابط بعضويهما ، كان لثوكس في هذا المنظر مضحك أى مضحك ! ضحك فيه مع التهكم والازدراء والمرارة شيء من الرحمة والثناء والعطف - لا قهقهة وإنما ابتسامة تملأ العينين إشراقا ، ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، يحب لبنى آدم ، أخ للقوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضع صاحب للشرىف . وكان يتناول الكأس في حان الخمر بمدينة إدنبرج - دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وأنه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد ، الجعد الأخلاق الجهم الطلعة ، المكفهر الجبين المتعصب الصخاب ، كلا إنه كان من أثبت الناس أمرا وأرسخهم حالا .. حازم بصير جلد صبور ، طويل الإغضاء عن الأمر الذى لا يفسد عليه أمره ، فإن عرضت مفسدات الشرف ، والدين قام لها على قدم ، فهو كما قيل :

صفوح إذا ما الذنب لم يعد حده إلى الوتر تباع قفا الوتر أرقم
وكما قيل :

له سورة مكتنة فى سكينه كما اكنن فى الغمد الجراز المهند
لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء
ينافح الأمراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تقبل من حده الخطوب التوازل ، وجنان
ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه يريك الهويى والأمر تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس ، ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها
بالصارم الغضب يحول فى صفحته رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وإن كان
ضربيه فلون وثلم ، وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره ، فلما جاءت سكرة
بوت واعتل لسانه ، سأله « هل عندك أمل ؟ » فرفع أصبعه يشير نحو السماء ثم
نض ، له للجد والشرف وسقى عهده الغمام .

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس - كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ،
برئاسة القسس على الملوك ، أو بعبارة أخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة
حكومة دينية ، وهذه فى نظر الناس جريمته ، وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا
على كتاب الله ملوكا وسوقا ، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون ،
رشد ما ساءه اغتصاب جياح الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول : « إن هذه
ليست ملكا مدنيا وإنما ملك ديني ، وحققا أن توقف على منفعة الكنيسة - على
التعليم والمدارس والعبادة . فأجابه الوصى « موران » مستهزئا : « هذه أحلام
نقية » ذلك مذهب « نوكس » الذى سعى فى تحقيقه ، وإن يك أخفق فى بلوغ
ذلك ولكنه لم يخفق فى إحياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبعثا كال أصل
رقبها ونهضتها ، ومجدها وعظمتها ، وكيف ينعى الناس عليه مذهبه - كيف ينكرون
منه محاولتا أن يجعل الحكومة لله وتلك ما لا تزال نحاول ونرجو . وما جاءت الرسل
والقسوس إلا لذلك ، وقد أرادها « هلد براند » وحاولها « كرومويل » وبلغها
« محمد » . أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص ، وكل ولى تقى ، وكل رسول نبى ؟
ولا يسعنا إلا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية : وأفى
فى طلبها أيامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر ، والحيس
والأسر .

المحاضرة الخامسة

البطل فى صورة كاتب

جونسون - روسو - بارنز

بها أنه ملهاة القوم ، ومدفعة لآناء السأم والملل ، ينبذ إليه فى ثمنها من الدراهم مقنار سكة ارمق ، أليس هذا أولى بالإنكار والنقمة ؟ ومنذ كتب الفكر هو سائس المادة ، يجب علينا أن نجعل البطل الكاتب إمامنا وقائدنا ، وألا ندم عليه مخلوقا مهما عظم ، بهو روح العالم فى أى صورة برز وأى زى لبس ، وما بقوله كان حتما على العالم علمه وعقاده والسير على موجه ، وهينة استقبال الدين به ومعاملتها له هى عنوان فعتها أو ضعته - دليل سموها أو انحطاطها - مقياس قيمتها وفضلها ، ونظرتنا فى سيرته نظرة فى لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها . والتى نعيش فيها نحن .

والكاتب صنفان جيد وردى شأن كل شىء فى هذا الوجود ، فإذا دل بلفظة بطل على الجودة ، فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفة كأشرف ما يكون وأعلى ، فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه - وهذا أكثر ما يستصعب امرؤ أن يفعله ، وهو قبضة من طينة الحق ، وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى ، وكذلك حياة كل امرئ . ولكن الضعاف الأكثرين لا يعلم عن أنفسهم ذلك ولا يخلصون لتلك الحقيقة . والأقوياء الأقلون أقوياء أبطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب أعينهم ، والكاتب البطل مرسل إلى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع ، وهى عين الوظيفة التى كان القدماء يسمون صاحبها إلها أو نبيا أو قسيسا ، وهى التى ما أرسل بطل إلى العالم لا لكى يؤديها .

وقد ألقى الفيلسوف الألماني « فيشتى » منذ أربعين عاما سلسلة خطب فى موضوع « طبيعة الرجل الكاتب » ، فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التى كان هو أحد أساتذتها : إن جميع ما نبصر من الأشياء ، ولا سيما نحن وسائر آدميين إنما هى أثراب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » ، وتلك هى الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر ، وأغلب الناس فى عمى عن هذا المعنى ، وإنما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر ببالهم أن تحت ذلك شيئا مقدسا ، ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه . هذا كلام « فيشتى » ولا حاجة بنا إلى معارضته ، وإنما هو أسلوبه فى بيان ما أنا باذل الجهد عبثا فى بيانه ، وتسمية ما لا أستطيع أن أسميه ، وليس له حتى اللحظة اسم - أعنى الحقيقة الإلهية التى كلها روث وعجب وروعة ، والكامنة فى كيان كل امرئ وكل شىء -

الآلهة والأنبياء والشعراء والقسوس ، هى صور بطلية تتعلق بالأزمان الماضية ، وتظهر فى العصور الخالية . وقد أصبح ظهور بعضها فى العالم ضربا من المحال . فأما البطل الكاتب الذى سنتكلم عنه الآن فإنه من نتائج هذه الأعصر الحديثة ، وسيلوم ما دامت تلك الصناعة العجيبة - الكتابة - وهاتيك الحرفة الحديثة - الطباعة - وهذا الصنف من الأبطال يعد إحدى نواذر الدهر .

أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له فى الوجود مائة عام ، ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الأسلوب العجيب : ينفث وحي ضميره فى صفحات الكتب ويطيرها فى أنحاء الأرض بأجنحة الأوراق ، فينال معاشا ومنزلة عما يستحو له به أهل هذا العالم جزاء عمله ذاك ، وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ، ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحى ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك فى الأسواق هذا العرض المبين ، ويا له من منظر عجب - منظر الكاتب فى أسماله البالية ، وحجرته الخاوية ، يسوس من وراء قبره بعد مماته من أئمة العالم وأجيال الأرض من ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضرورى ، بل عجب وربكم أى عجب ! ولم أر فى ضروب البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش من ذلك .

ووأسفاه أن البطل ما برح من قديم الأزل يلبس للناس أزياء شتى وأشكالاً مستغربة ، وما برحت الدنيا تحار فى كنهه لغرابية منظره فلا تدرى ماذا تصنع به ! ونحن نتكر من القدماء أن يحملهم فرط الإعجاب بالبطل على أن يعدوه إلها أو نبيا ، وأولى بالإنكار أن يرسل الله لخلقه بطلا مثل جونسون أو روسو أو بارنز ، فتقحمهم عيون الناس ولا يروا بهم إلا عجزة ومكاسيل لا فضل لهم إلا بضع كلمات أكثر ما

وجود الإله الذى خلق كل امرئ وكل شئ ، وقد علم محمد هذا الدرس بأسلوبه .
ولقاه أودين بأسلوبه ، وهو الدرس الذى ما زال كل ذى قلب حى يلقي الناس بهذه
النظرية أو تلك .

ولذلك يسمى « فيشتى » الكاتب نبيا أو قسيسا لا يزال يحلو لأبصار العالم المعانى
المقدسة ، والكتاب كنيسة مستمرة تعلم الناس أن الله موجود ، وأن جميع الظواهر
وكل ما نراه فى الكون إنما هى ثوب « للمعنى الدنيا المقدس » - ثوب « للسر
الكامن تحت الظواهر » . فما من كاتب صادق إلا وفيه سر إلهى سواء اعترف بذلك
الناس أم لم يعترفوا ، فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ ، ويرشد الخلق
ويهديهم على طريقهم المظلم ، ومسلكهم البهيم ، فى معامى الوقت وقفار الدهر كأنه
عمود من النور . ويشدد فيشتى جدا فى التمييز بين الكاتب الصادق الذى نسميه هنا
الكاتب البطل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال ، فمن كان من الكتاب قد
اشتمل ذلك « للمعنى المقدس » على جميع نفسه ، أو اشتمل على ناحية منها ثم لم
يحاول أن يدخل البقية فى طى ذلك المعنى فهو دعى وأفك ومزور ، بل هو لا شئ
مهما اكسى من رونق الأبهة وفخامة الجاه والمنزل . ومثل هذا غير حقيق أن ينعم بين
الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتى فى الكاتب وهو فى أسلوبه عين ما
نرمى إليه نحن فى أسلوبنا .

ومن هذه الوجهة أرى أن أكبر الكتاب أثناء القرن السالف هو الألماني الكبير
« جيتا » ، فقد قدر الله لذلك الرجل أن يشتمل عليه « المعنى المقدس » ويوهب
البصر النافذ إلى أعماق السر المقدس . ولقد تبدو لنا الدنيا من خلال الله ورويق القدس
تشهد أنها من صنع الخالق ، وأنها هيكل مؤلفاته عليها جلال الله يحفها نور لين
سماوى ، ولست أرى هذه إلا نبوة فى عصور ساد فيها الكفر والإلحاد ، وعملا من
أجل أعمال تلك العصور وإن كان من أسكنها وأسكنها ، ولولا علل عوائق لكان
مثالنا على الكاتب البطل هو « جيتا » هذا ، وما كنت إلى شئ أشوق منى إلى
الخوض فى حديث بطولته ، وموضوع عظمتها ، لأننى أراه بطلا صادقا ، وعظيما
جليلا ، بطلا وعظيما فيما قال وفعل ، وربما كان أشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم
يفعل ، وهو فى نظرى آية من آيات الله - وبطل عظيم قديم أشبه فى كلامه وصمته

شئ غابر فى ثياب أديب حديث يلبس أحد زياء التهذيب والمدنية ، وما رأينا منذ مائة
رخصين عاما منظرا كهذا .

ولكن ضلة الجيل الحاضر فى أمر هذا بطل وجهلهم بحقيقته ، وسوء قدرهم
لقيمته يجعل التعرض لتقديسه وجلاله ضربا من العبث لباطل ، ومهما أقل فيه فسيقى
لعظمكم لغزا من الألغاز ، ولن تدرخوا من أمره إلا خلاف الواقع ، وإنما أمره دفينه
سيثيرها المستقبل ، وحسب الساعة الحاضرة أن توقف على ثلاثة من أكبر أبطال القرن
لسالف : جونسون وبارنز وروسو ، ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال بعكس ما فيه
« جيتا » اليوم من الرفه والنعمة ، هؤلاء لم يظفروا ظفر جيتا ولكنهم حاربوا
فصرعوا ، ولم يكونوا من جاني الضياء وإنما من طالبيه ، ولقد كانوا من عيشهم فى
أبرح برح ، وآلم قرح ، كأنما يعانوا من أيامهم سلاسل وأغلالا ، ويحملون من
قوادح دهرهم هضابا وجبالا ، فلا بدع أن تعذر عليهم أن يبرزوا من كوامن أفكارهم
كل خفية ، أو يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك (المعنى المقدس) والذى
أعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم ، فإنها الكتيبان الأثرية التى يشوى
تحتها ثلاثة من أضخم جبابرة القلم ، مشهد مخزن ولكه لذيد ممتع ، فقفوا بنا على تلك
القبور مليا .

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام لمجتمع ، وكيف أن كثيرا من
العوامل الاجتماعية تسيء أداء وظائفها ، وكيف أن كثيرا من القوى العمرانية الشديدة
تكدر فى غير مكدر وتكد فى غير مكدر ، وتلك شكوى لا شك فى صحتها .
ولكن من نظر فى جهة الكتاب والكتب وجدها أشد الجميع اختلالا وفسادا ، بل
أصل كل اختلال وفساد - وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع إليه كل اختلاط
وتشوش فى العالم ، ولست أرى حالا أنكر من سوء ما يجزى به الكتاب على جليل ما
يسدونه إلى الملاء . ولو غمستنا القلم فى هذا المبحث غمستنا فى بحر لا قرار له ، ولكن
لا بد لنا أن نمس شاطئ الموضوع إذ كنا غير خاضعين عباة إتماما للفائدة ، وأسوأ ما
كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب أنهم وجدوا عملهم فى هذه الحياة ومركزهم ضربا
من القوضى . والسائح إذا صادف طريقا مدللا ومنهجا واضحا مضى فى سنته وأمعن
فى قصده ، فإذا أصاب عقبة لا تقتحم وسدا لا يفتح فجعل يطعن فيه يبغي نقادا ،
(الأبطال)

فأحر به أن يظل من عمله هذا في مصاب جلال ، وأوشك أن تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ما هنالك من الفائدة العظمى في خطاب الرجل للرجال وعظة المرء لإخوانه ، فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض . فما من بقعة في العالم المتمدين إلا بها منبر يستطيع منه الرجل أن يعظ باللسان إخوانه في الله . كانوا يرون ذلك من أهم الأمور وأنه لا خير في الحياة من دونه . ولله ما كان أنقاه عملا وأجمله مشهدا ! فأما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الأمر . أو ليس الكاتب الذى يضع كتابا خطيا ليست خطيبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك ، رهينة بذلك اليوم أو ذاك ، ولكنها خطبة لكل إنسان في زمان ومكان ؟ وحقا إنه من يخطئ في عمله ، فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب أن يتوخى الصواب والسداد . والخطب العظيم والطامة الكبرى أن الناس لا يحفلون ألبتة بأصابع كتاب الكتب أم أخطأوا - ووجد كتاب الكتب أم فقلوا . نعم قد يكون للكاتب شيء من الأهمية عند طابع الكتب الذى يرجو أن يربح مبلغا من وراء مؤلفه ، فأما عند خلافه فلا كلا ولا يعبأ الناس من أين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب ، وكيف وصل وكيف يمكن أن تستهل له طرق التقديم والاستمرار ، وإنما يراه المجتمع كأنما هو إحدى الشواذ فيتركونه يهيم كالذى لا يدري أين هو .

أنا فى أمة تداركها الله - غريب كصالح فى ثمود

وصناعة الكتابة لا شك أكثر الفنون إعجازا ، أو أعجب ما أبدع الإنسان ، « وحروف » أودين كانت أول عمل أتاه أول أبطال العالم ، وليست الكتب فى هذه الأوقات إلا من قبيل « حروف » أودين ، والكتب - حرسكم الله - مستودع حكمة الغابرين ، وفيها تتجلى لنا أرواح العصور الماضية ، والحقب الخالية ، بعد أن فئت أجساما ، وأصبحت أوهاما وأحلاما . ولا تنكر أن الجيش اللهم ، والأسطول الضخم الجسام ، والمرافق والثغور ، والمدائن والقصور ، أشياء رائعة جليلة ، ولكن ماذا مآلها وأين مصيرها ؟ وإذا سألت اليوم عن أغاممنون وبيركليس ويونانهم ، رأيتها عهودا تبكى وتذكر بعد أن كانت مشاهد تروع وتسمر . ولم تنل عينك منها إلا دما عافيات ، وظلولا دارسات ، ورسوما دائرات ، ومعاهد خربات ، كأنها صحف

باليات تنشرها أيدى السحب السواكب ، وتطويها أكف الرياح الغرائب ، إذا نقشتها أقلام الهاطلات ، مسحها أنامل السافيات .

لأيدى البلى فيها سطور مينة عبارتها أن كل بيت سيهجر ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان ؟ هى اليوم عينها بالأمس لم يغيرها الزمان ؛ ولم ينكرها الحدثن ، ولا أبلتها العصور ، ولا أخلقتها الدهور ، هذا وقد خلد الله اليونان بين أوراقها وصحفها ، وأحيائها فى سطورها وحروفها ، فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن ، وأصبحت فى تلك الأسفار ودائع ودفائن . والكتاب - رعاكم الله - فؤاد العالم ، يعنى كل ما طرأ عليه من حوادث وآثار ، وخواطر وأفكار ، ووجدانات ومشاعر ، وفعل ومآثر ، ومشاهد ومناظر ، فنعم تراث للأواخر ، وتحفة الغابر للحاضر .

أو ما زالت الكتب تأتى بالمعجزات ، كالتي زعموا أن « حروف أودين » كانت تتيها ؟ بلى حسبها أن فيها للناس دوافع ومحركات ، وبواعث ومحرضات ، ولن تعدم أحقر قصة وأسخطها أثرها الحميد فى قارئاتها ذوات الخرق والحق من بنات الريف ، تجدها بعد الزواج فى ترتيب بيتها وتنظيمه ، ثم انظروا ما الذى شاد كنيسة سانت بول ، هو كتاب التوراة الذى هو كلمة الرجل موسى الخارجى الطريد راعى الغنم فى صحارى الطور . نعم لقد أقامت الكتابة فى العالم دولة المعجزات ، وضمت الماضى والحاضر بأوثق العقد وأؤكد الصلات ، ولاصقت بين الشرق والغرب ، وصاقت بين القبط والقبط ، وجمعت بين طنجة وبكين فى القرن ، وألفت بين نوح ونابليون فى زمن ، وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الأعمال ، وجددت شأننا بعد شأن وحالا بعد حال .

فانظروا مثلا إلى التعليم وما أحدثت فيه الكتب من الأثر الجميل ، وحسن التغيير والتبديل ، لقد كانت الجامعات قبل الكتب هى الطريقة الوحيدة لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تضيع وتنتشر ، وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد . وكان ذو العلم إذ أراد أن يعطى من علمه لم يجد بدا من جمع الطلاب حوله فيلقنهم العلم فما لفم . فإذا كنت فى ذلك الوقت فأحببت أن تعرف من العلم ما يعرفه « أبلادرد » لم يكن أمامك إلا أن تذهب إلى

« بلادر » ، حتى لقد بلغ قصاص أبلادر وحجاجة نحو من ثلاثين ألفا يحتشدون حوله ليستمعوا فلسفته ، وإذا وجد بهذا المكان هذا العديد للجمهور من طلاب العلم ، هم يعماء لا يخرون فرصة بحسن اغتنامها . فمن وجد في نفسه الكفاءة لتدريس علم رأى ذلك مكان أحق الأمكنة بأن يذهب إليه فيعرض في سوقه سلعة علمه . وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين زاد عليه الإقبال من الطلاب والعلمين معا ، وبعد ذلك أصبح مكان لا يحتاج إلا إلى التفات السلطان إليه ليجمع تلك المدارس المتعددة في مدرسة واحدة ، ثم يمتنعها المباني والميز والمنح ويسميتها جامعة ، وهذا هو في نظري منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الأمر قدما لرأس ، وذروة لأس ، ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها علوا مينا ! إذ لا يصبح المعلم في حاجة إلى أن يجمع الطلاب حوله ليعلموا منه . وما هو إلا أن تطبع الكتاب حتى يتناوله من بأقصى الأرض غنيمة بلا عناء ، ويرتشفه شربة بلا رشاء — هنيئا مريئا — وهو متكئ على أريكته ، مرتفق فوق وسادته ، ليقلب فيه البصر ، وينعم في معانيه النظر ! ولا شك أن في الخطبة لمزية خاصة ، حتى لقد يحسن أحيانا بكتاب الكتب أن يخطبوا طلابهم أيضا ، وحسبكم ما نحن فيه الآن . وأرى أنه ما دام للمرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا ينكر ، وقيمة لا تحقر ، ومنطق للكلام ، خلاف منطقة الأقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقتين لم يعين حتى اللحظة ، ولم توجد بعد تلك الجامعة التي يعرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانتها ، ولا أعرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فإذا كنا مفكرين في ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون إلا كأقدم جامعة ، أعني أن يكون من شأنها تعليم القراءة في مختلف اللغات والعلوم — أي تعليم مبادئ كل صنف من أصناف الكتب . ولكن مأخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا في العلم متوقف بعد على ما نقرأ بأنفسنا مهما صنع لنا المعلمون ، وأجاد المدرسون ، نخرج من ذلك على أن خير جامعة في هذه الأوقات هي مجموعة كتب .

وأما من جهة الكنيسة فالتغير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير تام ، والكنيسة هي جماعة القسوس والأنبياء ذوي الهداية والإرشاد ، من يهدون بعظاتهم عباد الله

الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم لا كتابة ولا طباعة هو الأداة الوحيدة لبث النور والهدى ، فأما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من نسوب الناس ، ويأخذ بزمامها نحو حق ، فذلك بطريق أمته وإمامها ، وطالما قلت إن كتاب الجرائد والاحلات والرسائل والشعر والكتب ، هم في الحقيقة للكنيسة العاملة الفعالة ، هم الأمم الحاضرة . وليست الكتب خطبا لنا فقط بل هي أيضا ضروب العبادة ، وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسييح . أو ليس المعنى الشريف يزفه إليك البليغ في رونق اللفظ المصقول ، يختال من صفاء السبك وإشراق المديح في أكرم حلة وأبهج خلعة ، فيمتزج بأجزاء النفس ويجرى مع الروح حتى :

يظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فشرت أوصاله الكاس

يفعل بالنفس ما تفعله العبادة . ولعل الكثيرين لا يعرفون في هذه الأوقات القاسدة من أساليب العبادة إلا هذا الأسلوب . والشاعر الذي يريك من جمال الزهرة ما كان قبى غائبا عنك ، أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته ، وشعبة من ينبوع الجمال الإلهي الشامل ، وعلى سطر خطه القلم العلوي في صحيفة الكون قبلنا ميئا ناصعا ، حليا ساطعا ، وكأنما غنى لنا نشيدا قدسيا ؟ وإذا كان هذا شأن من يصف زهرة الروض ، فكيف الذي يتغنى لنا بمكارم نولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوي الفضل ومفاخرهم ؟ مثل هذا كأنما يحس أكبادنا بجذوة من بخامر المحراب ، ولعلها أشرف طرق العبادة .

وما الأدب إلا كشف وجلاء لأسرار بدائع الله . أو ما يسمونه « السر الجلى » وقد عرّف الأدب « فيشتي » بأنه البيان المستمر لما يكمن من أسرار الله في الأشياء الأرضية العادية ، فإن أسرار الله ما برحت كائنة في كل شيء ، وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذاك من تبرزها في هذه الصورة أو تلك ، في مقادير مختلفة من اوضح ، ودرجات متفاضلة من البيان ، كل حسب ما وهبه الله من الفضل . هذا هو الذي ما زال ذوو المواهب اللدنية من الشعراء والكتاب والخطباء والمتكلمين يصنعونه عمدا أو عفوا ، حتى لقد تجد أن شعر يبرون لا يخلو من تلك الأسرار برغم ند امتلاؤه من زوابع الحنق وصواعق القذف والانتقام ، ومعاسف الغل والحقد الضغينة على بني البشر ، وهي (الأسرار) أيضا كائنة في متواضع شعر بارنز ، ذلك

الفلاح الذى كان يختلس القوافى من خلال حركات الفأس والمحراث - صاحب القصائد التى كأنها أغاريد القنبرة صاعدة من أديم السراب ، إلى أعلى ذوائب السحاب ، والحقيقة أن كل غناء صادق هو عبادة ، كما أن كل شغل صادق هو أيضا عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت إلا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى مظلوم . ومن أنعم النظر رأى هنالك قطعة جمّة من الأناشيد الكنيسية ، والصلوات المدينية ، طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذى يسمونه بحر الأدب . فالكتب أيضا كنيسة .

نتقل الآن إلى تأثير الأدب فى الحكومة ، لقد كان البرلمان قوة عظيمة تبرم أمور الرعية وتنقض ، وتعقد شئون الأمة وتحل ، وتصرف أئمة البلاد وتدبر ، وتقطع أحكامها وتقرر ، بعد طول الروية والنظر ، وإدمان التأمل والفكر ، وإطالة المناقشة والمحاورة ، وإدمان المجادلة والمناظرة ، ولكن انظروا الآن أما ترون أن عمل البرلمان ماذا يعمل الآن خارج البرلمان فى طول البلاد وعرضها ، بواسطة المطبوعات ، من حرائد ومجلات ، ورسائل ومؤلفات ، وإن كان البرلمان لما يزل باقيا . ولقد قال بيرك : إن البرلمان ثلاثة أركان ، ولكن بمجلس مخبرى الحرائد وكنا رابعا أهم من تلك الأركان الثلاثة . ولم تك كلمته هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت طارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك ، فالأدب هو برلماننا أيضا ، والديمقراطية - أياكم الله - رهن الطباعة التى هى من نتائج الكتابة ، وما هو إلا أن تخترع الكتابة حتى تنبع الديمقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة - الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم ، أصبح كل ذى لسان بوقا يسمع الشعب ، وقوة وفرعا من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع الشرائع والقوانين ، وجميع نصارى السلطة ، ولا ينظر إليه من أى سلطة هو وماذا يملك وماذا يلبس ، وإنما الأمر الجوهرى هو أصحاب لسان ، وأخو بيان . يسقى إليه ، ويقبل عليه ؟ هذا لا غيره الأمر الأساسى ، فالإقامة محكومة بكل ذى لسان من أبنائها ، وهناك الديمقراطية ولا مشاحة - أضف إلى ذلك أنه ما من قوة موجودة فى الكون إلا وسيريكها الدهر يوما ما فعالة معترفا بسلطانها ، فهى لا تزال فى خفاء ، وتكد تحت غطاء ، تدافع العوائق والعوائق تدافعها ، وتصارع الموانع الموانع تصارعها ، حتى يحلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات ، وتطلقها يد

النصر من سلاسل العقبات ، فتذهب شعاب الحق كل مذهب ، وتضرب فى منابر الإصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديمقراطية حتى تبرر للبيان ، ويصطفى شمسها كل إنسان .

أو ما يزال فى كل شيء دليل على أن خير ما فى طائفة امرئ أن يصنع ، وأعجب الأشياء طرا ، وأثقلها فى النفوس وزنا ، وأخفها على الأسماع حسنا : وألطفها فى التماس مكانا ، وأقلها فى العقول رجحانا ، هو كتاب ! لله تلك الرقع الزاهية المرقشة المتون بلمع المداد الأسود ! أى جليل من الأمر لم تأت ؟ وأى شيء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ؟ ولا غرو فهل كانت تلك الرقع مهما حقّر ظاهرها إلا أشرف نتائج الذهن البشرى ؟ هى فكر الإنسان - الفضيلة الحرة التى بها يصنع كل شيء . وجميع ما يفعل الإنسان ويحدث إنما هو ثوب فكره ، وجسم روحه ، ورأى من آرائه . فمدينة لندن هذه بجميع ما بها من منازل ودور ، وحلل وقصور ، وعدد وآلات ، وكنائس وبيعات ، وحركة وصنخ ، وجلبة ولجب - ما كل هذه إلا فخرة أو مليون فكرة ، ألف شملها نظام فصارت واحدة . ما هى إلا روح فكرة جسيمة قد تجسدت فى الصوب والحديد والخشب ، والتراب والدخان والقصور ، والبرلمانات والمركبات والصانع ، وسائر ما تنظر إليه من الأشياء . وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها ؟ وما نسميه قطعا من الورق عليها لمع من الخير إنما هو أطيح مظهر للفكر البشرى ، فلا عجب أن يكون أنشطها وأكرمها .

وقد طالما أقر الناس بفضل الكتاب وخطارة شأنهم فى العصور الحديثة ، واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها . ولكنه إقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة ، وعسى أن يكون قد آن للعواطف أن تخلّى مكانها للإمدادات المادية ، وإن كنا نقرر ونعترف بأن للكتاب على المجتمع النعم الغراء ، والمنن البيضاء ، وإنهم يجدون به فى سبيل التقدم ويسعون به فى مراقى المدنية ، فما بالنا إذن نتركهم فى أسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش ، من أمرهم فى خيرة عشواء ، وضلالة عمياء ؟ ويفنى أن كل شيء فيه فضيلة قوة خفية ، فسيحسر يوما ما إثمائه ، ويميط قناعه ، ويسفر لنا ناصع الصورة واضح الغرة ، بين الإشارة جهير الصوت ، فأما أن يلبس أناس زى الأدب والكتابة ويقبضون أجرها ، ويتصور من الخوع الكاتب الحقيقى صاحب

الغير وشفعة ، فما ذلك بعدل وإنما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون وأسفه . لا بعد الجهد الجهد ، والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات ومعصلات الله وحده المعين على حلها . فإذا سألتهموني ما هو أحسن نظام يجعل عليه حالة الكتاب في العصور الحديثة ؟ وما هي خير طريقة لتنظيم شئونهم واستمرارها تكون على تمام مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع ؟ استقلت من الإجابة عن هذا السؤال لفصير مبلغ عقلي عنه ، وإنها لمعضلة لو تابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلا تقريبا ، فكيف بعقل واحد ؟ نعم ولا أحسب أن أحدا يقدر أن يقول ما هو أحسن نظام لأمر الكتاب ، فأما إذا سألت سائل ما هو شر نظام وأخيه ؟ قلت : هذا الذي هو كائن اليوم - هذا الخلط السائد والفوضى المستحكمة ، وما أبعاد ما بيننا وبين نظام صالح طيب .

ونعمة شيء لا يفوتني ذكره ، وهو أن هناك غير أمر العطايا المالية أمرا أهم وأعظم ، ألا وهو إحلال الكتاب وتقديسهم . وهو أمر كان معدوما في القرن الثامن عشر - قرن الجحود والكفر ، فأما هبة العطايا وترتيب الرسوم فهي على ضرورتها في بعض الأحيان ، قلما تقرنا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتاب . وإنني لأحد الذين أسأهم كثرة ما يغلط به من سلطان المال وفضله على كل شيء . بل إنني لأحد القائلين بأنه لا ضير على الحر أن يكون فقيرا ، وأنه يجب أن يكون من الفقير محك لأذهان الكتاب ومعيار لقيمهم وأقدارهم . وقد وجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من حال أبرار قدرت لهم الشحذ والتسول ، ورأت الكنيسة أن ذلك من أسباب نشر روح الدين وتأيدته . وهل أسست النصرانية نفسها إلا على الفقر والحزن والاضطهاد والسلب وسائر أصناف الغم والمهانة ؟ وأنا أنقول : إن من لم يعرف هذه الأشياء لمعلم منها درسها الذي لا تقدر قيمته ، فقد فاتته من فرص التعليم أثنائها ، ومن أسباب التقويم والتثقيف أمتنها ، ومن فوائد التربية والتلهيب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحفاء ولبس المسوح وشذ الحبال في الأوساط ، بالشئ الجميل أو الجميل في أعين الناس حتى جملة وشرفه مزاوله الكرام له ، وإتيان الجلة الأشراف إياه . وليس موضوع الشحاذة من أغراض هذا الكتاب ، ولكن من ذا الذي لا يقول بأن دانا كجونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جديرا أن يعلم أن المال

أو النجاح - كيفما كان - لم يكن الغرض الذي يسعى ليدركه . وكان مليا أن يعرف أن فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه ، وأنه من أوجب الواجب اقتلاع هذه الأغراض اللثيمة من تربة النفس . ثم اذكروا أن بيرون مع غناه وشرف نسبه ، كان أقل فائدة وأصغر مآثرة من بارتر مع فقره وضعة نسبه . وما يدرينا أنه إذا وجد في المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لا يزال ركنا من أهم أركانه ، وكان الكتاب - أبطالنا الروحانيون - لا يزالون طائفة من الشحاذين متاحا لهم العوز والتكفف حتى يجنوا ما فيهما من كرائم الثمرات ، ويتنفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر أن الطبب الكثير يبلغ بالمال ، ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر ، وإنما علينا أن نعرف حد المال فنقف عنده ، ونعلم أن ما زاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الإمدادات المادية والرسوم المالية ، فأنى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذي يستحقها ؟ إنه لا بد قبل ذلك من أن يجوز الامتحان اللائق . وأرى أن الحياة الأدبية - تلك التي كلها فوضى يتلاطم موجها ويتصادم لجهها ، هي نوع من الامتحان ، وما زال هناك عنصر من الحق في قولهم إن الجهاد في سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى إلى ذرى الطبقات العليا هو من الأمور التي لا بد من بقائها ، لما يترتب عليها من استمرار رقي العالم ، إذ أنه ما زال يولد في طبقات السفلى من ينبغي أن يكون في أرفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد ؟ هذه مسألة المسائل ، فأما أن يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهنا بمحاسن الصدق ، فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خباب الباقون . وإنما واحد من ألف هلك في الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون ، وبترك مثل بارتر يروح ولا يوجد عليه إنسان يدرهم ، ومثل جونسون يزحى الوقت بين الثوب - والمطواء في حجرته ينطبق عليه قول القائل :

نلوم على تبلدها قلوبا تلاقى من معيشتها حباذا

إذا ما النار لم تطعم وقودا فأوشك أن تحرب به حباذا

حتى إذا شرع يكتب ، راح وهو من دفعة العمل وعجته مع الخس والوكس

كأنه في مضمار ، أو كأن يديه يدا غائم يكافح الثبار . ويترك يده وهو على حمار

الإنسان والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع ، فيؤجج الثورات الفرنسية —
عبد وأبى الله شر النظام وأسوؤه ، فأما النظام الأحسن فهيئات منه نحن وأنى لنا به
الآن !

يبد أنه لا شك هناك فى أن ذلك النظام آت يحمله المستقبل البعيد فى جوفه جنبنا
فى رحم الزمان الآجل ، وهذا ما أحرؤ على أن أتنبأ به ، لأنه لا يكاد الناس يرون
فضل الشيء حتى يأخذوا فى تسهيله وترجيته ، وتنظيمه وترقيته ، ثم لا يستريحون أو
يروه قد بلغ منتهى ما يستطيعون أن يبلغوا به . وقد قلت : إنه ليس فى سلطات
الكنيسة والحكومات بأنواعها سلطة تستحق أن تقارن بدولة الأقلام ، وقد قال
الوزير « بيت » وقد سئل أن يكتب بشيء من المال للشاعر الأكبر بارنز : « الأدب
سيد نفسه يدير زمامها ويسوسها وليس فى حاجة إلى الناس » قال المستر
« سوذى » : نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها ، وهو أيضا سيدك ،
يسوسك ويأخذ بخطام أنفك إذا أنت لم تتفت إليه وتعرف له قدره ! » .

وما معظم الضرر بواقع على الكتاب ، فإنهم أفراد وجزء ضئيل جدا من الجسم
الكلى ، وفى جهدهم أن يجاهدوا ويكابدوا حتى يظفروا ، أو يموتوا فيعذروا ، ولكنه
يهم المجتمع أن يضع شبهه ومصابحه فى الذرى والغوارب ، وحيث ترى فتهدى ، أم
يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شررا يستطير فى حيث لا مقتبس ولا
منتور ، ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق ؟ وقد حدث . والنور
— هداكم الله — هو رأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع وآخرها ، وأن
دنيا يتقدمها النور لجديرة أن تضطر فى حربها مع الدهر وتكون للإنسان أحسن دنيا ،
وعندى أن مرض القوضى الكتابية هو أصل سائر الأمراض فدادوا تشفى المجتمع من
كل داء به وعلة . وقد بدأ فى آفاق الأدب بفرنسا وبروسيا تباشير نظام نقابلها
بالاستبشار والتهاتف ، لأنها بشير بأن ما قد حدث فى هذين البلدين خليق أن يحدث
فى غيرهما .

إن أهم ما سمعت عن الصين أمر فيه علينا ليس وإيهام ، ولكنه يحرك فينا أعظم
الشوق على لبسه وإشكاله . وهو محولتهم أن يختاروا ملوكهم من بين كتابهم
وأدبائهم . وأرى أنه من الخطئ والخبط أن يتكلف أحققا فهم هذا الأمر فضلا عن

شرحه وبيان ، وما أحسب إلا أن مثل هذه الأمور لن يكون إلا عديم النجح ، غير أن
فى مجرد محاولتها فضلا كبيرا ! ويظهر أن فى جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث
عن أولى الأبواب فى كل جيل من النابتة . ولكل درجة من طلبة مدرسة ، فمن
أظهر براعة فى دنيا المدارس رفع إلى أعلى منها درجة ، وهكذا حتى يفضى إلى أشرفها
مزلة . ومن ثم ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها ، وربما قلد عملا أو ولاية ، وتلك
هى الطائفة التى منها يختار الولاة وأحكام مع الأمل والرجاء . ففيهم — وليس فى
غيرهم — ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء . نعم فليجرب هؤلاء وإن
كانوا لما يزاووا الحكم والإدارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها . ولكن لهم على كل
حال فهم وعقل — ذاك الذى لا يستطيع الحكم والإدارة إلا به . وليس العقل بآلة كما
جرت الحالة بتشبيهاه ، ولكنه يد يمكنها أن تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية
ذوو الأبواب فإنهم أحق الناس بالتجربة ، ولا أحسب أن هناك شيئا أسر لطلاب
الإصلاح ذوى الإخلاص والغيرة من إسناد الرئاسة إلى ذوى العقل ، لأنهم فى الحقيقة
ذوو العدل والبر والمروءة والرحمة . قلدهم أموركم تظفروا بكل شيء ، دعوا توليتهم
تحسروا كل شيء !

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريبا مما لا يجرى فى محاورات الناس ولا يدور فى
مذكراتهم ، وليس العيب فى المسائل وإنما فى الجيل والعصر . إنما الواجب أن تطرح
هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضج ، فتخرج إلى حيث الفعل .
ويسلينا بعد أنا أينما ألقينا البصر وجدنا دليلا بيننا وبرهانا ناطقا على أن دولة القديم قد
زالت . وإن طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها ، وأن
الأشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها ، وأن الألوف المؤلفة
من الأوربيين قد أصبحوا لا يطبقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . وإذا
عادت الملايين من خلق الله وهم لا يستطيعون إحراز المطعم ، ويظل ثلث الناس لا
يطبقون الحصول على أرباب البطاطس مدة ثلاثة أرباع العام ، فقد آن ولا شك
للأمور أن تتغير وللأحوال أن تتبدل ! هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل
لتحسين حالة الكتاب .

وإن عدم ذلك النظام وإن كان من آفات كتابنا الثلاثة ، فلم يك بعد أشد من الآفات ! بل كان ثمة آفة هي أصل عدم النظام وأسبل كل آفة أخرى ! وهى إلحاد مفرق الثامن عشر وكفره . فأما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتماله ! وقد كان الكاتب البطل يطبق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته ، وعلى وحدة السفر ووحشته ، ويتقرب بعقله النافذ فى السكود المعترضة والعقبات القائمة ، لولا أن ذلك العقل قد قلل من حدة تأثير ما كان حوله من الكفر والإلحاد . نعم ، لقد كانت آفة العظمى وطامته الكبرى ما ساد فى تلك الأزمان من شلل الأرواح وموت النفوس ، ولم يعد ذلك الوسط السيئ والجو الفاسد أثره الخبيث فى قلوب أبطالنا الثلاثة ، وحسبى أن أقول عن القرن الثامن عشر إنه كان عصر إلحاد ، وقد نعتته بكل حسيسة ، ووصفته بكل ذبيحة وخبيثة ! والكفر - وقاكم الله - جملة المحن والبلايا ، وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الإلحاد هو موت الأذهان فقط ، بل موت الأخلاق كذلك ، وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الإخلاص وحمود الأرواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الأبطال ، وجو سام لهم ، والبطولة روح لا تنتعش إلا بنسيم الإيمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محى من كل خاطر وبال ، وأمسى يراه كل إنسان حديث خرافة وضربا من المحال ! وأصبح قد سار به القارطان ، وبات فى خبر كان ، وطارت به العنقاء وتبدد فى رياح الكفر تبدد الهباء ، وذاب فى موج الجحود ذوب الجفاء ، أو ذوب السراب المرقوق فى أكثاف القفرة الملساء . وقام بدل معنى البطولة معانى الشك والاستخفاف والرسوم المينة والاصطلاحات الجامدة ، وأصبح الناس فى عانته - لا رعاه الله من عالم - خلوا من الروعة والعجب والعظمة ، عالم خلوا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وأفرخ .

وما كان أحبث الأفكار إذ ذاك وأحسبها رُسْمُهَا إذا قورنت بأفكار قدماء الوثنيين المتوحشين ، لا بأفكار الأتقياء دانتى وشكسبير وميترون . وكيف وقد كان الوثنيون يشبهون الحياة الإنسانية والطبيعية بشجرة جنودهم فى عالم الموت وفروعها فى الجنان ، وهى فينانة غيداء ، وحقة غناء ، كتيبة بريرة ملتفة الأغصان ، غير محصية نفوس والألوان ، ممددة الظلال منفسحة بتيده . قد ضربت فى جميع الأرجاء

والأنحاء ، وغصت بها كافة الآفاق والأجواء . فنسى كفار المدنية الحديثة - أهل القرن الثامن عشر - هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكيئة متصل صلب الحديد ، وترن رنين النحاس . يا لله أى فرق بين الشجرة والمكيئة ؟ قارنوا - أصلحكم الله - بين هاتين . أما أنا فلست بقائل قط إن العالم مكيئة ! لست بقائل إنها تدور بلولب وعجل وبما يقوله الاقتصاديون من العوامل والمصالح والموانع ، والموازن والمقاييس . ولكنى صائح بملء فمى أن هنالك أسراراً بخلاف رنين آلات المصانع ، وضجيج صراخ البرلمانات ، وأن العالم على كل حال ليس بمكيئة . أقلا ترون بعد فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء أولئك الجيلة المتمدينين أصحاب المذهب « المكيئى » (١) ؟ ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصه مؤمنة ، ولكن هؤلاء الكفرة الأشقياء لا إخلاص لهم ولا صدق ولا مرعوة ولا شعور ، وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه لا ينظرون إلى لب الشئ وحقيقته ، بل إلى أقوال الناس فيه ، فمقدارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . وكأنما غاب عنهم أن الإخلاص قد يكون فى هذه الدنيا وأنه لم يصبر بعد من المستحيالات . بل جهلوا معنى الإخلاص بالمرّة . وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع ، « ألا ترونى رجلاً مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللقيم الدقيق رجلاً مخلصاً ، لشد ما أخطأت معنى الإخلاص . وجملة القول إنه كان عصر موت لا حياة ، اللهم إلا حياة كمكينة حركة بلا روح ، وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الغرق فى عباب ذلك الكفر إلا ركوبه خشبة صلبة من حطام المذهب القديم والدين القويم - ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على ظلله ذلك البناء الخبيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد ، وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر وغولب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لا محالة إلا أن يكون صارم العزم ماضى الجنان شديد الأيد . فإذا كان ذلك لم تلك حياته بعد إلا حياة يحفظها الموت ، ولم يستحق من الأسماء إلا لقب « نصف بطل » .

(١) نسبة إلى مكيئة يقولها كارليل تهكمها بالقوم لأنهم كانوا يزعمون أن الكون مكيئة .

وكل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسا عنان القلم في ذلك المضمار لاغتسال شأوه ما ليس يخصى من الساعات ، ونكر في قليل الكلم غنية عن كثيره ، وقد يُجتزأ عن طول المقال بقتصره . وإن كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام ، وسم الحياة الذي إليه وُجِّهت جيوش الهباء ، وثلت كنائن القذف منذ بدء الخليقة . وحرب الشك واليقين هي الحرب التي لا تنتهى : ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشك أن نحاسبهم حساب المجرم ، وإنما هي سنة الدهر وتصرفات الحلال واضمحلال المذاهب القديمة ، وبلى الآراء العتيقة ، والإعداد والتجهيز لمذاهب سيحى بها المستقبل البعيد خيرا من القديم وأسمى ، فكيف نأخذ القوم بذلك وإنما هو قضاء محتوم ، وقدر محموم . وفى الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عذلم وتأييهم لو نفقه . ولنعرف بعد أن إعدام الصور القديمة والأوضاع العتيقة ليس إعداما للحقائق الخالدة ، وإن الشك أو الإلحاد على شره ونكره ليس بخاتمة وإنما هو فاتحة .

ولقد أنكرت في بعض كلماتي مذهب بنتام - مذهب الماديين ، وما إنكارى له بطعن على مؤسسه وأتباعه ، كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله ، واليقين الصراح بأن الكون خال من كل معنى إلهى ، وليس هو إلا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه - أقول : إذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض فهو عندى خير من مذهب الشك ، بما أنه استقرار وثبات فى ذلك الموضع الذى يحوم حوله أهل شك فى حيرة وتردد ، ورأى أن الإقامة على شر الطرفين أشرف من الحيرة بين بين ، ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت ، خير له من أن يظل وهو لا حى فيرجى ، ولا ميت فيبكى . نعم ورأى أن هذه المادية المكيئية^(١) هي اقتراب من المذهب الإيماني الجديد ، بما أنها كانت اطراحا للتصنع والسفسطة ، وكانت كقول الإنسان لنفسه : « لا شك فى أن هذا الكون إنما هو مكيئية ميتة من الحديد ، وما إلهها إلا الجاذبية وإلا الجوع والشره وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج أكرم نتائجها

(١) المادية أعنى مذهب الماديين ، على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصارى ، والمكيئية نسبة إلى مكيئية وقد مر تفسيرها .

بحسن إدارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! « أفلا ترون بعد ذلك فى جرأة المادية على التمسك بما تعتقد ، معنى توفر القوة والرجولة والشجاعة ، حتى يمكنك تسميها نوعا من البطولة ، وإن كانت بعد بطولة قلعت عيناها ! هي كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذى أخذ بخناق القرن الثامن عشر - بلغها أصحابها بفضل الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة ، ويظهر لى أن جميع الكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب ، سيصبرون يوما ما إلى المادية لى ساعدتهم جرأة وصدق نية . والمادية كانت بطولة عمياء ، وأنها أشبه النوع الإنسانى فى الماديات بجالوت فى طاحون بيت المقدس . يدور مفقوء العينين ، ثم لا يلبث أن ينشب يديه فى أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا ، ولكنه خراب يشفعه الخلاص .

ولكنى مع ذلك أقول - وأرجو أن أصادف قلوبا واعية - إن كل من لم يجد فى ذلك الكون إلا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر إضلال ، ولست أرى سقطة أشنع من أن يتجرد رأى الإنسان فى هذه الخليقة من كل معنى إلهى ، فإن ذلك كذب وباطل - كذب فى سويداء ليه وصميم كبده ، ومن كانت هذه عقيدته فأحرى به أن يخطئ الصواب فى كل شيء ، وأن لا يقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلظة الجوهرية ، فهي جدية أن تعد فى نظرننا شر أضلولة غير مستثنين أضلولة السحر نفسها ، وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حى ، وادعية تحمل أهلها على عبادة شيطان حديدى ميت ؟ عجب لها إذا جردت الكون من آلهة ، أفلا أقل من أن تترك فيه شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس ، وتركته حشة بلا روح وهيكل بلا حياة . رأى للأنسان بعد ذلك بمساعى الأبطال ، ومآثر ذوى الهمم والمروءات من الرجال . رأى الذى يستفيد من ذلك المذهب الكاذب هو أن ليس فى الحياة إلا حى الشهوات وسلاة ومخافة الهم والألم ، وإن الحقيقة القصوى فى حياة المرء هي الحسنة الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات ، أو بالاختصار هي الكفر ، والكفر عقد نفسه .

أما الذى - فهو عندى صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح ، وهم عدم حقيقة ميتة لا توصف ، شأن كل عملية حية جوهرية . ولم نعط العقل ليعارض

وسمسط ، ونجادل وتغلط ، ولكن لترى به حقائق الأشياء فتفهم ونوقن ، ثم
عمر اليقين أساسا نبني عليه الفعال ، ومبدأ نستعمل منه فواتح الأعمال . وليس
لنست نفسة بجرعة ، وكيف وما كان قط للإنسان في مسائل المذاهب والعقائد أن
يقع على أول ما يصادف فيحتضنه ويعتقده ، ولا من العقل أن يركب الرجل
رأيه في الرأي وينخرط في الأمر من غير تدبير ولا رؤية ، وإنما العاقل من بات
يقسم رأيه ويشاور نفسه^(١) ولا يعضى الرأي حتى ينضج ويختمر .

لا كإمضاء جاهل عجرفي يركب الأمر قبل شد الحزام

فإذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار محصد الجبل حصيف العقيدة ، جديرا
أن يجلى ليل الخطوب والأتراح ، ويخلص بين الماء والراح ، ويكشف معالم الحق
الصراح . والشك والبحث والتنقيب غريزية في نفس كل عاقل ، وهى جولة
العقل في الأمر الذى يحاول أن يعرف ليعتقده ، وتنبت شجرة اليقين كما ينبت
غصن الشجرة من مستتر الجذور ، ولكنه لما كان الواجب على المرء فى عادى
الأمر أن يسر شكوكه حتى يقول بها طول النظر والتقلب إما قبولا أو رفضا ،
فما بالكم بأسمى الأمور وأعلاها التى يعجز عن صفة كنهها اللسان ؟ فأما أن
يرز المرء شكوكه ويحسب أن المجادلة والمناظرة هى أقصى مبلغ قوة العقل وأكرم
مآثره ، فهذا مثل أن تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الأبصار منظر جذورها
القبيح بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وفينان الأفرع الخضراء ،
فتريهم منظر الموت والشقاء موضع الحياة والماء !

والشك - كما قلت - ليس فى العقل فقط بل هو فى النفس والأخلاق أيضا ،
وهو مرض الروح كافة . وإنما يحيا المرء باعتقاده شيئا من الأشياء لا بالمناظرة
والمجادلة فى جملة أشياء . ولن ترى حالا أسوأ من أن يظل الإنسان وهو لا يؤمن
إلا بالشيء الذى يزر عليه جيبه ، ويلتزمه بإحدى حواسه ويهضمه ! وهذه
مستقلة ليس دونها وأبيكم مهبط ولا منحدر ، وإنما تسمى الأعصر التى يهوى بها
الإنسان لهذا الدرك أمراض العصور وأحسها وأحقها بالحزن والبكاء ، وفى مثلها

(١) يقال : يشاور نفسه إذا جعل ينظر بأى رأيه يأتمر ، وذلك إذا اتجه له رأيان لا يدري على أيهما يعتمد .

نشل بين الدهر وتفرح كبد الدنيا ويجمد نبض الحياة ! وفى مثلها تغيض عيون
الخير ، وتضمر معالم البر ، وينقطع العمل الصادق الحر ويقوم بدله الخدق بالتقليد
والمحاكاة ، وهو عنوان رق الأنفس وأسر الأذهان ، وعمه البصائر والقلوب .
وهناك تنتهب أموال الدنيا وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها ، لا تؤدى حقوقها
ولا تصلح شئونها . وكيف وقد ذهب الأبطال ، وجاء كل كاذب دجال ؟
والحقيقة أنه لم يأت منذ العهد الأخير من دولة الرومان قرن هو أحفل بأهل الزور
والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا - رعاكم الله - رجال ذلك القرن
وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل ، وذم الرذائل . وهل رأيت عندهم
إلا قولاً بلا فعل ، ومنطقاً بلا عمل ، شقشقة هادرة ، وهمما فاترة ،
واللسة خالية ، وقلوبها كاذبة ، وأعينها تندى ، وأفئدة كالصخر أو أقسى ، ونفوسا
وسنى ، وجعجعة ولا طحنا ؟ وكأنى بهم قد حسبوا أن الغش والتفادى والكذب
هى من عناصر الحق التى لا يقوم إلا بها . ولقد بلغ من ذلك أن الوزير شاتام ذلك
المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ، ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الأعضاء
فى الخرق كأنه مكسر العظم مجبره ، ويشيع عن نفسه أنه فى أشد بُرجاء الداء ،
وأنه لولا حقوق الشرف والبروءة وحرمة الأوطان ، لما خرج يتحامل قطيع الخطو
مبهور الأنفاس . حتى إذا انقطعت به أشواط البيان فى ميادين المناظرة ، وطارت
به أحنحة البلاغة فى آفاق المناقشة والمحاوره ، نسى ما قد تكلفه من التمارض
فاسئل ذراعه من ثفافته استلال الصارم الجزار من غمده ، وجعل يهزه ويطوحه
فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفوة ! وكذلك ما انفك شاتام هذا منذ قرع أبواب
السياسة إلى أن قرع عليه حمام أبواب الحياة ، وهو يمزج بين الصدق والكذب
والحق والباطل . نصفه للشرف ونصفه للخسة ، وشطره لله وشطره للشيطان ،
ولعل حجته فى ذلك أن الدنيا لا تنال بإرضاء الناس ، والناس معظمهم بله
مخاديع . فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعته ، فكيف والحال هذه تؤدى
حقيق العالم ؟ وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من اليأس والشقاء ، والمنح
والأوراء ؟

وكانى بك قد وقعت على أصل أدواء العالم حينما تسميه عالما كافرا — عالما
عديم الإخلاص — عالما كذّاب وباطل — عالما شيطانيا ! وهذا هو ما أراه منبع كل
قوة اجتماعية — منبع الثورات الفرنسية .

وأرى أنه لا بد من تغير هذه الحال ، ولست أتوقع للعالم خيرا ونفعا حتى
يحدث ذلك التغير ، وإن أملى الوحيد فى حسن المال ، وعزائى عما أراه من شقاء
العيش وبؤس الحال ، هو أنى أرى ذلك التغير قد بدأ وأنه مستمر . وإنى قد أجد
من أن إلى آخر الرجل المؤمن الذى يعرف أن هذا العالم حق . وما هو بالكذوبة
ولعبة ، وأنه هو نفسه حى وليس يميت ولا مفلوج ، وأن العالم حى يخفق فيه
روح الله ويجول فى أرجائه رونق الجمال والجلال ، وأنه كحالته فى أوائل الزمن
وبكرة الدهر ! وعندى أنه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون ، بل عرفه
الجميع على مدى الأيام ، وكيف أنه حلى واضح لو كشف الغبى عن قلبه الغطاء ،
وطرح عن إنسان عينه الأقذاء ، وكأنه بذلك الرجل المؤمن وهو ينظر من دولة
الكفر فى أعقاب نجم آفل ، وبقية ظل زائل ، ويستقبل من دولة الإيمان تباشير
صبح أغر ، ونفحات روض عاطر . ولا يرى الرسوم القديمة على متانتها إلا
خيالات تهيم بالزوال ، وأشباحا تشد للرحيل الرحال . وكانى بذلك المؤمن
يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله : « م أنت بحق وإنما خيال زور ، فاذهبى وعليك
العفاء ! » نعم ستذهب دولة الإلحاد بجواشيتها من ماديّات وكفريات ، ورسوم
كاذبات ، وما ذلك القرن الثامن عشر بعد إلا قلعة من قلعات الدهر لا تحىء حتى
تنصرف ، وإنى لأتفاءل للعالم بإقبال السعد والنجاح ، والخير والفلاح ، ودولة
الإيمان يقوم عمودها ، ويخضر عودها ، ويضرب رواقها ، وترف أوراقها ، وعند
ذلك يروح العالم بقدر رابع ، وسهم راجح .

بل ما لنا وفوز العالم وربحه ؟ لشد ما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيبته ،
وإنما يجب على كل رجل أن يعرف أن له حياة تعنيه شئونها ، وتتوده أعبائها ،
مهما يكن من أمر الدنيا ، وسواء أفلح اعالم أو أخفق ، وأن عمره إنما هو لمحّة
بين أبدين ، وما للإنسان بعد الموت إلى هذه الحياة من كرة . فجدد بنا ألا نعيش
عيشة النوكى الأصفار من كل فضل ومكرمة ، ولكن عيشة النبلاء العامرى
النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما فى نجاحها ربح لنا ولا فى

خيبتها خسارة ، وإنما هم العاقل أن يعنى بأمر نفسه ، وفى ذلك مندوحة لغيره
غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات إلى هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى
أنحاء الأرض قصد ترقية الأمم والشعوب ، وللأمم والشعوب إليه أرجم بهم من
كل مخلوق ، وأملا بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذا من نتائج تصنع القرن
السالف وكذبه ، فليتجه بها أهل هذا القرن ، وليكن لهم فى إصلاح شئون
أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

وفى تلك الأحوال وهاتيك الأزمان ، كان يعيش كثرنا الثلاثة جونسون وبارنر
وروسو — فى أزمان أصفرت الحياة فى أثنائها من كل أثر للحق والصدق . فأما
الحقائق القديمة فكانت قد هدرت ركنها ، وخرس لسانها ، وأما الجدية فكانت أجنة
فى بطن المستقبل لا جرس لها ولا نبس ، ولم يك لاح فى ظلمة الكفر المطلقمة
فجر اليقين وصديق الإيمان ، ولم يك فى نبع قفسار ذلك الكذب والباطل ينبوع
حق . كلا ولا الثورة الفرنسية نفسها التى هى على علاقتها نوع من الحق ، وإن
كان بعد حقا ملتفعا برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية
المحدودة ، وبين سير جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض التى لا تقبل
ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فأحرقها
وأخس من عقباتها سبيله ، ولكن أباطيل زمن جونسون ما كانت مما يحرق بالنار
فبقيت فى طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملأى من الأعمال —
أعني من الصعائب والآلام — بما يستفرغ من جهده ، فأما أن يظفر المرء مبین
الظفر فى عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب — فلم يك مصاب
جونسون قاصرا على العوائق وفساد النظام والفقر الذى حبس رزقه عند قرشين
فى اليوم ، بل لقد كان جونسون قد سلب نور روحه . فلا معالم تهديه فى
الأرض ، وأبرح من ذلك أن أصفرت سماؤه من كل نجم ! فلا غرو أنه لم ينل
النصر المبين من هؤلاء الثلاثة أحد ، وحسبهم أن جاهدوا فأبؤوا ، ولذلك أقول
عرجوا بنا على معاهد أولئك الأبطال ، لا كأبطال فازوا وظفروا بل كأبطال
جاهدوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السبيل — ثلاثة جبابرة قاتلوا فى حرب الكفر
والإيمان فنسفوا من جبال الباطل ما بات أثرا جسيما على قبورهم ، فقفوا بنا على
تلك الأحداث فإن فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لي الكتابة عن هؤلاء الأبطال قصدا أو عرضا ، ولا أراكم إلا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا إلى ذكره ، وإنما نتكلم عنهم الآن كأنبيا ذلك العصر عجيب . وإن في الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة - أي من وجهة أنهم أنبياءه - محال لجملة آراء . وإنني أراهم الثلاثة رجالا ذوي صدق جاولون في إخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ، ويثبتون أقدامهم في أرسى قواعد الحق ، فكانت طبائعهم من أكبر البواعث على مليهم إلى سنة ، إذ كان لهم الحق من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه أن يقيموا على الباطل ، وقد جعلت سحب لأضاليل والأكاذيب تنهال تحت أقدامهم فلم يكن لهم إلا على أديم الأرض معتمد ، وإلا فلا مستقر لهم ولا مطمأن . وقصارى القول إنهم كانوا أبناء طبيعة في عصر كلفة وتصنع - كانوا رجالا مخلصين في حين لا إخلاص ولا صدق ، وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة .

فأما جونسون فما زلت أراه رجلا من أعظم رجائنا - قوى النفس متين الخلق ، شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم ، بما عجز عن استشارته جمود العصر الذي عاش فيه . ولو صدف من إيمان جيله جوا أكثر نورا وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ، ولجاز أن يصبح ملكا جليلا أو إماما كبيرا أو شاعرا فحلا . وعندى بعد وأنه ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ، ولا فائدة في ذلك ولا ثمرة . وهب عصره عصر خبث فما باله لا يطيبه ، وجيله ردىء فما له لا يثمنه ؟ وكان جونسون في شبابه معسرا رث الحال عاثر الأمل منفردا . ولا تحسبوا أن سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلّي عن عينه سحب الهم لو أنها اتفقت له ، وذلك أنه كان مصابا بالسوداء والألم الجسماني والروحاني الناشئ من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر ، فكان كما حدث اليونان في خرافاتهم عن هرقل إله القوة - إذ قالوا إنه كان يلبس قميصا من نار فهو منه في عذاب أليم وبلاء مقيم ، ثم لا سبيل إلى نزعها ، وكيف وإنما هو بشرته وجلدته ! وعلى هذه الحال كان لا بد أن يعيش يائسا من الخلاص والنجاة .

يا ابن بوران لا مفر من الله - ولا من قضائه المحتوم

وكأنني به يمشي بين القوم قد قصر خطوه المرض ، وتركته الوحشة غريبا على الأقربين ، يحمل بين جنبيه فؤادا ضخما شرها إلى المكرم منهوما بالعلو ، وروحا غاصا بخليط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر بلتهم كل ما يصادف من فائدة دينية . وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتاب والشعراء . وحقا لقد كان سيد أهل زمانه وناطقة قومه الذي كان يجزبه على تلك العظمة والنبوة درهمين في كل يوم . ولكن لماذا يؤثر ذلك في نفس جبارة لا تهزم ، وعزم ماض لا يكل ، وفؤاد صارم لا يفل ، ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه - حكاية الخداء - وذلك أن جونسون كان قد بسى حذاؤه وبصر به بعض الكرماء في نعليه الباليين فرحمه ، ثم عمد إلى خذاء جديد فاشتره له ووضع على باب داره في خفية . حتى إذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد إليهما النظر من عينين كليتين ، أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبير فرماه من النافذة ، ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم إلى مهابط الشحاذة ويسف إلى محاط السؤال ، وقد يحتمل القر والثلج ولذع الجليل للإلحاحين ، فأما الشحاذة فلا . فانظروا هداكم الله أي قوة كانت في ذلك الرجل المعوز البائس ، وأي إباء وعزة ، وأي توكل على الله واعتماد على النفس ! إنني أرى في جوف هذا الرجل عالما من القوة والخشونة ، والبؤس والفاقة ، ولكنه يؤس أبى غفيف ، وفاقة عزوف أنوف ، وهذه الحادثة عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديدا الدياجة وليس بأخى باطل خلق الأديب ، ولا ذليلا ولا شحاذا ، وأولى بكل ذى مروءة أن يقوم على ما وهبه الله ولو كان الوحل والتراب ، لا على عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب !

ومع ما نرى لجونسون من وعورة الإباء ، ومرارة الكبرياء ، وشدة الأنفة ، أكان قط رجل أرق حشا منه ، وأسلس نفيادا نحو الأمر الشريف والمعنى المقدس ؟ وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ما هو أشرف منها وأسنى فؤادا ، نحو كل شيء أنبل منها وأسمى . وإنما صغار النفوس ودقاقها هي التي لا تفعل ذلك . وجونسون في ذلك خير من لما ذكرت قيل من أن آية المخلص أنه حسن الطاعة ، وإنك لا ترى الخشوع والخشوع لمعاني البطولة إلا في عصر كله أبطال . وقد قلت إن جوهر الفضل كرم ليس في أنه جديدا مبتدع . فلقد

كان جونسون فاضلا وكريما مع إقامته على قديم الآراء ، ووجد في ذلك القديم حاجته وبغيته فعاش به عيشة شريف حر ، وما وجد بطل وشأنه في ذلك غريب ، لأنه مع إقامته على تلك الرسوم القديمة الميته لم يكن من أهل الأكاذيب والظواهر ، وإنما أبحاث حقائق وأصول ، وذلك أن الرسوم القديمة التي أقام عليها كانت تحمل في أجوافها عنصرا من الحق . وعجيب والله من هذا الرجل إبطاره أسرار الكون المقدسة ، وحقيقة الحياة الكبرى ، في ذلك العصر الورقي^(١) الممحل الجذب المشحون بالكلفة والغش والتصنع ، ولا نعلم كيف وفق ما بين مذهبه ومذهب ذلك العصر ، بل كيف اطردت له عيشة فيه ؟ وحقا إنه لأمر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والإجلال . والله أشهد أن من أعجب الأمكنة عندي وأقدسها تلك الكنيسة - كنيسة سانت كلمنت - التي كان جونسون يعبد الله بها في زمن فولتير ، في زمن الكفر !

وإنما عد جونسون نبيا لأنه كان ينطق عن ضمير الطبيعة ، وإن كان بالأسلوب الاعتيادي المتصنع . أو ليس في كل أسلوب شيء من التصنع ؟ وما كل شيء متصنع بأكثورية ، بل كل شيء متصنع كان في مبدأ أمره حقا . وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة لم تك في أوائل أمرها بمنكرات ، ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات إلا طرق وأساليب وعوائد توجد حيث يوجد الإنسان ، وإنما تتكون الرسوم كما تتكون السبل ، وتنهج مفضية إلى غاية شريفة يؤمها الجحيم العديد من أخيار الناس . وأصلها أن رجلا على الهمة شديد الإخلاص يجد السبيل إلى فعلة من الفعال - قل مثلا بث شكره لله ، أو رغبة السلام لرجل من الناس . أقول مثل هذا العمل أو ذاك على ما ترون من صغره هو في الحقيقة جسيم ، وإنما صغرت في أنظاركم العادة ، وما كان ليوجد في هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعا ومبتكرا هو أول من نطق به وأوجد . فهو مثل بطل وشاعر ، بما أنه قد أعرب عن معنى شريف ما زال يضطرب بفؤاده وأفئدة الآلاف المؤلفة من خلق الله ، فهذه طريقته في التعبير عن ذلك المعنى - هذه آثار خطاه - هذه مبادئ المنهج . ثم يحىء رجل آخر فيترسم آثار الأول

وتلك خطوة أسهل ، يترسم آثار الأول مع إصلاح وتصحيح وتحسين وتنقيح . وكلما زاد ركب الطريق اتسعت أقطاره وانفسحت نواحيه ، حتى يشول منهجا واضحا وسبيلا مضروبا . يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة ، ونهاية محمودة ، فهو مألوف للناس مرضى لديهم ، حتى إذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم - رعاكم الله - تكون في أوائل أمرها مملوءة بالمعاني الجلييلة ، ولكم أن تسموها جلودا وأجساما تسكنها حقائق حرة صحيحة ، ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الأصنام نفسها إنها لا تكون باطلة حتى تغورها الشبهة في نظر عابدها ويضعف إيمانه بها ، وما أحسب أن كثرة ما تعودناه من ذم الرسوم منسبنا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها ، وإنها كانت وسوف تكون ألزم ما نحتاجه في سكنى الدار الدنيا من الفرش والأثاث .

واذكروا أيضا كيف كان ذلك البطل يتحدث أيام صغره بإخلاصه إذ لم يكن يشك في أنه من أكثر الناس إخلاصا ، ومن أكفئهم للقيام بأى جليل من العمل . ولقد كان فتى شديد الجد والاجتهاد يستنزل الرزق من شاطئ ويستدر به صخرة صماء ، ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق عليه ودر . ولكنه رجل حق لا يقم إلا عليه ولا مضطرب له من دونه . أما ترون في ذلك لزوما لمنهاج الحق من غير افتخار ولا إعلان ، لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة « حق » يظل الناس ولا شأن لهم إلا التحدث به وإطراؤه ، وكذلك ما برح النضل زينة من لا يثبه به ويعجب .

كان جونسون نبى قومه وكان كلامه لهم إنجيلا . شأن أمثاله من الأبطال وأضرابه . وكان أنفاس ما قال لهم يدور حول موضوع الحزم ، وما أعظم ذلك الموضوع وأجله في هذه الدنيا التي قلت فيها معلومات الإنسان وكثرت واجباته . وكان فحوى ما علمه القوم هو : « قبيح بكم أيها الناس أن تغمسوا أنفسكم في غمار الشك وأعماق الفكر في عالم قصرت فيه المدارك وحسرت البصائر ، وثقلت أعباء الفروض وموازين الحقوق . إنكم إن تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤسا ، وتكونوا كالذى تخيطه الشيطان ، وأننى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش ؟ » . هذا هو إنجيل جونسون الذى لقته الناس وعلمه ، وشفعه بإنجيله الآخر الذى فتحوا : « خلصوا عقولكم من شوائب لرباء ودوسوا على الثلج

جلال بوزويل لجونسون ما زال من أجل الآثار ، وأعجب رُحُبا ، وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين - اللورد الاسكوتلاندى الأسم المغرور يدنو حانى الرأس نحاشع البصر إجلالا وهيبة نحو الأستاذ الجسيم فى ضمارة الرثة التربة ، وغرفته الحقيبة الخاوية . هذا والله صريح الإجلال لنفس كبيرة وروح شريف ، وهذه عبادة الأبطال فى زمن أقفر فيه العالم من الأبطال والعبادة . بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين ؟

ولعل الوجود ما خلا طرفة عين من الأبطال وعادة الأبطال ، ولا جناح علينا أن ننكر ما قاله القائد الفرنسوى « دى كوندى » من أن رُثفة تذهب الإجلال ، حتى أن البطل الكبير لا يكون بطلا فى عين خادم مرقده ، وأن نرى أن البطولة أشرق من أن تطمس الألفة شمسها . فإذا وجد الخادم الذى لا يرى عظمة سيده ، فالذنب عليه فى ذلك لا على السيد العظيم ، وتعل الخادم حسب أن البطولة هى حلة موشاة وتاج وإكليل ، وأبواق تسجع ، وأذبال ترفع . وإذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان بالقائد الفرنسوى أن يجعل كلمته هكذا : « لا ملك يكون سلطانا فاجر المظهر فى عين خادم مرقده » ولو عمد إنسان إلى الملك المهيب لويز الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا ، إذن لرأيت شخصا حقيرا لا موضع فيه لإجلال خادمه . والخادم الذى يحمل فى جوفه روح خدام أى روحا وضعه ليس خليقا أن يفهم بطولة البطل ! وإنما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة .

أفلا ترون بعد أن إجلال بوزويل لجونسون لم يعد موضعه ، وأنه ما كان ليجد فى بريطانيا نفسا أحق بحنو الهامة وثنى الركبة من تلك النفس الكبيرة . وهل كان جونسون إلا رجلا عظيما أركب من عيشته ظهر صعبة شمس ، فراض جهده من صعوبتها وذل من شماسها ، وخلق فى مضطرب فوضى الأقلام ومختلط فوضى الأديان والسياسات ، فمهد لنفسه منهجا واضحا وسط تلك العناصر المتصادمة ، واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعته ، أن يستخديم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته ، وذلك بهدى الله وبكوكب إرشاد لاح له فى سماء عالم الأسرار فوكل به ، بينا كلوا ، وعقد به

والخليفة فى نعالكم البالية لا فى أحذية الغير ، ذلكم خير لكم » (كما كان يقول محمد) . وعندى أن هذا إنجيل حكيم - أحكم ما تيسر فى هذه الأوقات .

أما كتابات جونسون فهى وإن نفقت سوقها قديما فقد أصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة ، ولا أنكر أن كثيرا من آراء جونسون قد أصبح اليوم قبل القيمة ، ولكن أسلوب تفكيره وعيشته سيبقى على القيمة جديد الرونق أبد الدهر ، وإنى لأرى فى كتب جونسون من أبين آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يفل ، وما هو جدير أن يرحب به على علاقته مهما كانت ، لأنه كلام حر صريح أريدت به أغراض سامية وأمور جلية . أما أسلوبه ففيه جفاء وصلابة - خير ما وفق إليه إذ ذاك - أسلوب ضخم البناء يابس المفصل ، كأنما يسير الهوينى فى أرجح رزانة ووقار قد أصبح اليوم غير مألوف ولا مستظرف ، وربما سمعت له طيننا وجلجلة لا يوازيهما ما ضمن من المعنى ، ولكن هذه كلها مغتفرة فى جانب ما أودع كلام الرجل من الحكم والآيات . وإنما العبرة بالمعاني دون الألفاظ ، والأرواح دون الأبدان ، وكم من أسلوب حلو موثق خلو من المعنى ، كالتشرة العجبية النقش لا لب فيها ، والصدفة المصقولة ولا درة . وما كانت أرباب تلك الأساليب الكاذبة إلا جناة مجرمين ، خليق بكل دى دين ومروءة ألا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم ، وجدير بكل قارئ أن يتحامى كتبهم ويحتنب أقوالهم : ولو أن جونسون لم يترك لنا إلا معجمه (قاموسه) لكان حسينا دليلا على رجاحة عقله وحدة ذكائه . ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومثانة مبانيه ، وصحة معانيه وحسن مذهبه كان خليقا أن يعده أحسن المعاجم جميعها . وإنى لأنظر إليه فأراه فى جمال تنسيقه وفخامة صناعته ، كالقصر المشيد متساكن الأطراف متشابه الجوانب ، يطرد فيه روح النظام ويجول فى حجراته رونق الإتقان والصناعة - ولا تقوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل - ذلك الذى جاوز الحد فى إجلاله وتقديسه لجونسون . وقد بالغ الناس فى تفنيده على ذلك وغلوا فى احتقاره وإصغاره ، ورغمما من أن لهم بعض الحق فى ذلك فإنهم بعد جائرون وظالمون . وعندى أن

لحظا غلوقا ، وجعله قبلة سفينته في بحر الحياة العجاج ، صافحا عن كل مغربة ومعوبة ، ومال عن حزب إبليس ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه ..

أما روسو فلم يبلغ في البطولة الدرجة العليا ، وليس بمصيب من إطارتي قسط حونسون ولا نصيب بارنز ، وما هو عندي بالرجل القوي وإنما رجل مريض النفس سريع الانفعال كثير الثوبات العصبية ، ولم يكن أوتى فضيلة الصمت - وأى فضيلة وأبيكم ومزية قصر عن غايتها معظم الفرنسيين بل معظم أهل هذا العصر ، والرجل القوي هو في مذهبي من كتم مصيبته وأخفى عن الناس دخان نيران أحشائه ، وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد ، وهما أول شروط البطولة . وإنه لمن الخطأ أن يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الأعصاب ليس جديرا أن يسمى قويا وإن عجز ستة رجال عن إمساكه حين تنور به التوبة الشديدة ، وإنما القوي من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطأة قائم الصلب . وخلق بنا في هذه الأوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ ألا نزال نذكر ذلك ، والرجل الذي يعيبه أن يسكت حتى يحين وقت الكلام والعمل ، هو رجل عائر الرأي جائر عن القصد .

وأرى في وجه روسو عنوانا على خلقه .. حاجبين مشرفين وعينين غائرتين تجول فيهما حيرة وقلق ، ويضطرب فيها نزاع ولهف ، ووجها حافلا بآيات الشقاء الوضع ومعنى السوقية والخطبة - عيوب لا يعوض منها في ذلك الوجه إلا آية الجذ الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول إنه وجه رجل متعصب وبطل مشوه ، وإنما تذكره هنا لأن فيه - على علاته وهي كثيرة - أول صفحات البطولة : الإخلاص . ولست مخطئا إن قلت إنه لم يك قط في الأبطال من هو أشد إخلاصا منه ، حتى لقد كان له من شدة الإخلاص ما لا يقوم له طبعه الحاد الضعيف لولا هذا الإخلاص - طبعه الذي بلغ به أخيرا من المناقضات المنكرة ما يوشك أن يكون جنونا . بل لقد أصابه بالفعل في آخر أمره صنف من الجنون ، وذلك أن أفكاره ركبته كما تتركب الشياطين الإنس ، وساقته أعنف السوق إلى كل قحة ومهواة . وكانت منشأ عيوب روسو ومصدر شقائه ، هو ما يعبر عنه بهذه نقطة المفردة « الأثرة » حب الذات ، وهو منشأ كل عيب ومصدر كل

شقوة . ولم يؤرض روسو نفسه على قدح النفس . طلعة إن لم يزعها الإنسان نزعته به إلى شر غاية ، ولم يشحذ عزيمته لقهر جيوش الأهواء والشهوات ، وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة . وأخشى أنه كان رجلا كثير الغرور والزهو ، به غلة إلى مدح الناس . وتذكرون قصته مع السيدة « جنليز » وذلك أنها سارت به إلى دار التمثيل بعد أن اشترط عليها أن يخفى نفسه عن أعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لا يراه إنسان ، قائلا : « أنا لا أود أن يرانى الناس هناك ولو أن لى الدنيا بما فيها » . ولكنه اتقن رغما من ذلك أن أرخى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيرا . فأظهر أشد الغضب وقضى ليلة أسفا مكتنبا ، ولم يقه إلا بحر الكلام ومضيض القول . ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم إياه وإنما لقلّة احتفالهم به حينما رآه . وأسفاه على ذلكم البطل ! لقد خالط دمه سم الأنانية . وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس والاكتئاب والإطراق والهجم ، حتى أصبح لا يطيق عشرة إنسان . وكان رجل من سادة الريف يتردد إليه ويجالسه فرحا به مسرورا بحديثه ، مبديا له أصدق آيات الوداد والولاء ، فجاءه ذات يوم مريده في أسوأ حال من الغم والاكتئاب بلا سبب ظاهر . وبينما الرجل في أحيرة من ذلك المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تلتهبان غضبا : « سيدى لا يسر بخلدك أنك تستطيع أن تموه على سبب زيارتك هذه فأني أعلم به مثلك - فعد جئت الآن لتفاجئني وسط مصائبى وآلامي ، وتنظر أى عيش نكد أكابد ؟ ، أى حال شديدة أقاسى ؟ وكيف أتحرق وأتوجع ؟ وماذا أذوق وأتجرع ؟ فليكن ذبت يا سيدى ، وهماك مرجلى على النار فانظر بها عنوان الفاقة ، واستمع من أزيد قصة البؤس . انظر سيدى فى تلك القدر ، هل ترى بها إلا رطلا من اللحم ، ثرائة وثلاث بصلات ؟ وأنت بعد ذلك فى حل أن تقول ذلك لكل من لفت » فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه كل مصاب ، وعدا فى الشدود كل منة ، وأصبحت أعماله تلك نواذر حديث الناس وفكاهات سمرهم بلهون بها وسحكون منها ، وما هى بلهون له ولا ضحك . وكذلك رجفات المصارع المتخبط من دماثة واقته سكرة الموت ، هى مصيبة له وعذاب ، وهى فرحة الجمع المشاهد .

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طربا فالتير يرقص مدحاً من الألم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا إلا القول بأن روسو هذا ، قد عمد نحو الحقيقة في
عصور الباطل بتلك الكتب التي كتبها - العقد الاجتماعي وإشادته بذكر الطبيعة
والحياة الهمجية الطبيعية ، وكان يؤدي بذلك لقومه رسالة نبى حسب طاقته
ومنافاة الوقت ! ومن العجب أنه كن في فؤاد روسو هذا وسط هذه العصورات
والخسائس ، والحمق الذي كاذ يكون جنونا ، جذوة من النور الإلهي . وما ذلك
إلا أن الله قد أثار بعد تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق ، شعورا
قويا في فؤاد ذلك الرجل يوحى إليه أن هذه الحياة حق - وأنها ليست بفكرية ولا
نظرية من النظريات ، وإنما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحى إليه الطبيعة وأمرته
أن يصدع فصده . فإذا لم يأت قوله محكما بليغا فإنه جهد المجتهد . إن خطايا
وشواذه وسرقة الأقمشة ، وشروده في الأفاق وبؤسه وشقوقه كل هذه آيات
الخيرة والدهشة والترنح التي تبهر رجلا حمل من الأمر ما لا طاقة له به ، وترك في
مجهل طامس الأعلام لا يعرف كيف يهتدى فيه .

أما مكانه في الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى أن كتاباته كعقولة مريضة
وليست من النوع الذي أسمىه صالحا ، وإنما يمتاز روسو في كتاباته بتغلب
الحيوانية والمادية ، وتلك هي التي نعينه على تصوير صوره المثقلة بالزخرف
الجذاب . ولكنها صور .. خلاف كرائم الصور الشعرية مما أبدعه عقل شكسبير
أو (جيتا) كلا ! ولا كتصويرات : والتر سكوت) ، وكل من نظر في بدائع
هؤلاء ففهم ، عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رمى على منواله ؛
عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب ، وظل جديرا أن يفرق بين هذا وذاك ما
عاش ، فإنه فرق كالذى بين نور الشمس ونور المراسح الصناعي .

لقد تبينا في جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم إلى العالم من الخير ، رغما
من كل ما يحفه من المكاره والآفات . أما في روسو فلتبين أى شر وضرر وبلاء
قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة أننا لو ننظر إلى موقع
روسو من التاريخ ، لرأينا مشهدا جلا ومنظرا هائلا . ولشد ما أساء العالم إلى
نفسه بإساعته إلى ذلك البطل . وماذا أفادهم أن شروده وتركوه يأوى من الفاقة
إلى أسطحة المنازل يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ، ويطيء به من
لعوز والكربة أنحس خليط ، شريدا طريدا يلجأ من غار إلى كهف كأنه الريح

الهباء حيرى موله (حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد) بلى ماذا أفادهم أنهم
أحوا عليه بالضر والأذى ، وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه ،
وحتى جعل يعتقد أن العالم شر والمدينة سوأة وجريمة ، وأن الدنيا أكبر أعدائه ،
وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم ، وكان أولى بالعالم أن لا يعادى
مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمته ، فيصبح معه كما قيل :

حداك إلى الخين حتى استترتني عليك وإنى في عريني المخدر
لقد قدر العالم على إلقاء ذلك البطل إلى الأسطحة ، وعلى اقتياده أضحوكة
بسحرون منه كما يسخر بالبله والمجانين ، وعلى إجاعته وتركه يتضور من
السغب كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من إضرار الثورة وإشعال
الأرض نارا تلقى . ولقد وجدت الثورة الفرنسية إنجيلها في كتابات روسو ،
وقد أحدث آرائه الشبيهة بالجنون في آفات المدينة وتفضيله عيشة المتوحشين
على عيش المتمدنين ، جنونا فاض في أنحاء فرنسا وغمرها ، ولنا بعد أن نسأل
ماذا عسى العالم وملوك العالم أن يبلغوا من ذلك الرجل وماذا يصنعون به ؟ هذا
سؤال نعي ، ونعيب العالم ، تعيب ملوك الأرض بجوابه ، فأما ما يستطيع روسو
أن يصنع بالعالم وملوكه ، فذلك يا للأسف واضح بين ، يضرب أعناقهم .

كان من أعجب العجائب أن ظهر في القرن الثامن عشر - قرن الكفر
والضعف . بين رجاله الذين كلهم تكلف وتصنع كأنهم تمثيل خشب وعرائس
الورق ، بطل كبير في زى فلاح حقير يحمل القأس ويسحب المحراث ، ألا
وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى ، الذى جاء فى ذلك العصر القفر كاليثوب
اشيم الفرات وسط البيسابس الملص ، أو كالفتنة الزرقاء فى غيم تتمد ، أو
كمظفر السماء وزينتها حلال سقف القصر المزخرف ، إذ كان يقوم لا
يعرفون من سماء الله ونجومها إلا صورها المنقوشة بسقف ذلك قصر ،
أو ما يمثلونها به من الأشكال النارية (١) . فبينما هم فى

(١) التي يسمونها بالعامية « الصواريخ » .

الحرب طول عمره وما كان منه قط حيصة ولا فرة ، فإياه من كريم باسل أيد الركن ثابت الأس ، لا تهيل من جانبيه الحوادث ولا تخون من قطريه الكوارب والكوارث ، حمل يغضى على الأعداء ويردد أنفاس الصعداء ، وتضيفه النوازل والكرب فيقربها الصمت والسكون ، وتهيم المصائب أن تلتهمه فيلتهمها ويجعل لها صدره الرحب قبرا لا تنبش دفينه ، ولا ترد وديعته :

مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فردا سليك المقناب

جليم إذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب في صدره الرحب ياله من بطل يناضل كئيب الدهر مستورا عن الأعين ، لا تسير محاسن ذكره جريدة يومية ، ولا تطير روائع خبره أسلاك برفية ، ولا تقيد نواذر بحده مصايد الشعر ، ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر ، ولكنه لم يذهب عمله سدى ، ولا شيء في العالم يذهب سدى ، نعم لم يضع من هذا ولده ! وأن يذهب فهذا روبرت بارنز سليله - وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز إلى هذه الدنيا محفوقا بالمكاره والشدائد ، بين سوء حال وسوء تعليم وكد ونصب ، يكتسب النظم من ساعات الكدح اختلاسا ، ويسترق النظر في كتب الفحول استرقا ، ويكتب بلغة رقيقة بمجولة إلا لإقليم صغير من البلد الذى ولد فيه . ولو كتب ما كتب باللغة الإنكليزية الشائعة ، لما شككت فى أنه كان ينال إجماع الناس على أنه من أعظم رجالنا . وإن كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح أغلاقها عما أودعت ، وفرض أختامها عما ضمنت ، دليل قاطع على أن هنالك جوهر مكنونا وسرا مصونا . وبعد فقد أحرز إقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق ، وما تزال دائرة ذكره فى اتساع ، وصوت صيته فى ارتفاع ، وقد شرع الناس فى جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الرياح بلفظة إنكليزية ، يدركون أن من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحا اسكوتلانديا اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج على إن قلت : إنى أرى فى بارنز هذا جوهر كريمة بريطانية ، أبدى الله صفحتها وجلا روائعها وبهجتها ، على حين لا عهد للناس بالجوهر - نعم جوهره هى على لأنها ووقدتها أمتن الأشياء وأصلبها ، كالخجر

وسط تلك الصور والأكاذيب ، انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا ، أو تملكهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طال بهم الحيرة أجمع رأيهم على أن هذه السماء ونجومها الباهرة ما هى إلا من قبيل تلك الصور والأشكال التى اعتادوا رؤيتها ، جهلا منهم وضلة وعماية . وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون ، وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ؟ فوأسفاه ! لبئسما تلقى به القوم هدية الله إليهم - ذلك البطل الجليل ، وبئس منزلة بينهم وجواره فيهم ! ولا أعلم رجلا لقي من الغبن والوكس ، والتعس والنكس ، ما لقي روبرت بارنز ، فيالله أى جوهر كريمة نبذت بأكتاف صحراء ، وأى درة مكنونة ألقيت بكف خرقاء ، وأى بلبل صداح تقاذفته أيدي الأطفال ، وحر كريم تناشبهه أظفار السفلة الأندال !

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان أبوه صانعا فقيرا ، وقد حاول جملة أشياء فخاب فيها وما زال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر ، وقد حدثنا بارنز فقال : « كانت ترد على أبى طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم ، فكانت تنخب أفقدتنا وتستذيب دموعنا - دموع الوالد الكلدود المكودود المعنى المعذب ، وزوجه الجلدة الصبور ، وصيتهما وفيهم بارنز كان لهم الله . لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وحتمتهم مشارعها العذبة وهى حل مباح للوراد ، ومنعتهم مراتعها الخضبة وهى طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا - رحمكم الله - فى قوله : « كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا » أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وإنى ما زلت أرى فى والد بارنز بطلا صامتا وشاعرا مفجما ، ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير ، ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول : « لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والأعيان ، فلا والله ما لذ أذننى كحديث والد بارنز ، ولا نعمت فيها بمجلس كذلك التى أمتعتنى مدة حول مائدة ذلك الصانع المسكين » وقد كان فى الحقيقة مسكينا منغص الحياة مرنق موارد العيش جامد أخلاف الرزق ، لم يصادف نجحا فى السبعة الفدادين التى رزقه الله ولا فى أى شىء غيرها ، فكان بينه وبين الدهر حرب لا تنتهى ، كان المغلوب فيها أبدا ، وسوق لا تفض كان الخاسر فيها دائما . ولكنه ثبت فى تلك

نعم إنهما سواء في قوة البدن وقوة الروح ، كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة (١) ، كبير النفس ضخيم الفؤاد ، ولكن ميرابو أكثر صخباً وأشد دفعة وقلقا بالفطرة والنشأة والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هي الصدق والعقل ، ونفاذ رأى وحدة الجنان ، وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمثل ، وما كلمته إلا طعنة الرأى فى حشا المشكل ، ولمحة برق اليقين فى دجى الشك :

المعى موفق يهذى الله له لدى الخطبة العياء العقام
وإذا باد الحوادث بالرأى أصاب الصواب بالإلهام
* * *

المعى يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب
* * *

وكذلك كان بارنز ، وكلاهما كان جياش الصدر بمراحل الأهواء والشهوات ، طوراً تعصف عصاف الجنائب وتارة تخطر من النسيم ، وفى كليهما العارضة والبديهة والمزج والضحك والفكاهة ، والقلق والنشاط والتوقد ، والعزم والهمة ، والصدق والصراحة ، والجد والإخلاص . فهما من تحت واحد فى الكرم ، وإن تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن جوهر بعينه فى النبيل ، وإن تنوعت بعد بهما الأعراض والأحوال . فلو أن بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لأجاد مثله فى كليهما . ولكن شجاعته العتيدة كانت يلاًأسف تصرف فى أسر مهربى البضائع فى خليج سولواى بتلك البحار الشمالية . وفى السكوت عن كثير من المغضبات ، حيث كان لا يجدى الكلام وإنما الحق الأحرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لأجملت اللد الخصام فى المناظرة ، واستحقت قول القائل :

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم فى مثلها خرس
شك حشاها بخبطة عنن كأنها منه طعنة خلرس

وكبدت تلك الشجاعة لعيون الملاء طرافى تدبير الدول وتنظيم الممالك وإصلاح شئون العالم . ولكن القوم — أعنى الحكمة — قالت لبارنز قول موبخ : « لست

للتفكير إنما أنت للعمل » فكأنها قالت له ضمناً : « لا حاجة بنا إلى قوة المفكرة — أكبر قوى البلاد فى هذا القرن — وإنما نريد منك أن تمسح الأراضى ، ولسنا لغير ذلك نريدك » حسن والله هذا وحيل ! حتى لكأن قوة التفكير ليست فى كل آن ومكان أهم ما تحتاجه الدنيا . أوليس شر الناس هو الرجل الذى لا رأى له ولا تفكير عنده ، ولا يرى وإنما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى حقيقة الشئ الذى يزاوله ، وبظلم حائراً مضللاً لا خير فيه ولا نمرة ؟ هذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول : ما بالك تعلن شكواك وتدمك على ذلك ؟ أما تعلم أن ذا القوة قدما ممنوع من مجال إظهار قوته ؟ « نعم وذلك أضر بما نعيه وأبرح . وإذا كانت الشكوى قليلة الحدا فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعنى إلا القول بأننا ستغناء العالم الأوربى عن مثل بارنز والثورة الفرنسية على الأبواب ، لا يدعونى إلا إلى الحزن والأسف .

وبعد فأهم صفات بارنز الإخلاص ، وهو أيضاً أكبر مزايا شعره وعيشته ، وما قصيده الذى يتغنى به بمجرد تصورات وتوهمات ، وإنما إحساسات تجيش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله فى جميع أركان حياته هو الحق . وحياة بارنز هى ما يمكن أن نسميه رؤية مخزنة سداها الحق ، وخمتها الإخلاص . ولكن الإخلاص المر الودع ليس القاسى ، ولكنه إخلاص جرىء ثائر يساور الحقائق ليروضها ويقتادها . ومن ثم ترى فى جميع الأبطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الأبطال — لقد يعزينا عن شقاء أولئك الكتاب الأبطال إجلال بعض الناس إياهم ، ولكن أى حالة عجيبة وصل إليها ذلك لإجلال ! أما إن فى ازدحام خدمة الفنادق بياب غرفة الجلوس ، يرهفون الأذان لاستراق كلمة من كلام بارنز لإجلالاً منهم لذلك البطل ، وإن كانوا بذلك لا يشعرون هذا . وقد أوتى جونسون فى اللورد بوزويل أحشع محترم ومعظم ، وسخر الله لروسو أشرف الدولة وأمراء بيت الملك يودونه فى غرفته الحقيرة ويجلون منه رجلاً تفاسمته النواذب ، فشطره للبرس وشطره للمس والخيل . تناقض وأيم الله عجيب ، وحياة لا يلتئم طرفاها وينكر أسفلها أعلاها ، فبينما هو يجالس العيون والسراة ، ويؤكل الرؤساء والقضاة ، إذا هو ينسج يده سطور الغناء لينال من القوت مسكة الذماء ، ومن مأثور قوله فى هذا الصدد : « لقد حملت نفسى بالتغذى فى منزل الأمراء على خطر لهلاك جوعاً فى منزلى » وفى ذلك

على عاشقته ومعظميه من العار ما فيه . وعلى كل حال سواء نال الكتاب الأبطال منهم من الإحلال أو لم ينالوا ، فهم أساتذة العالم يؤدّبونه ويحكمونه ويعظونهم ، وما ياتون به إلا كلمتهم لا مرد لها ولا ملغى لحكمها . فعلى الكاتب البطل أن يفكر ويرى ، وعلى المأذ أن يدع عن ويخضع ، وعلى الكاتب أن يأمر ، وعلى العالم أن يصدع ، وللعالم بعد أن يختار طريقة الإذعان والطاعة ، فإما قهرا وإما اختيارا ، وإما حسبة وإما اضطرارا ، إما صحو خريف فينان الظلال ، تعاظم الأصال ، طيب أردان الصبا ؛ مصقول رونق الضحى ، وإما سحب صواعق تمطر الحين والبوار ، ونكباء تنسف الدور وتقتلع الأشجار ، طريقان متعاكسان مفضاهما واحد ، وصورتان متبايتان والجوهر فرد ، فإما نور مفيد وإما بريق مبيد ، وليس الأمر الهام هو ماذا تسمى البطل وعمادها نعامله ، وإنما هو الصدق كلمته ونصدع بأمره أم لا ، وإذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعقدها ونعمل بها طوعا أو قسرا ، إن لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم أنوفنا ، فأما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له ، فذلك من شعوننا وراجع إلينا ، وأما كلمته فتلك رسالة الله إلى العالم ، ولا يد من أن ترغبتنا على تصديقها وتستولى على نفوسنا .

وأخر أقوالى فى هذا المبحث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز ، أعنى وفدته على إدنبرج ، وطالما رأيت أنه قد كان فى رباط جأشه هنالك وثبات جنانه ، أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان فى انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكرب والخمول ، إلى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير أن يطير بلب أى امرئ ويذهب بعقل أى إنسان . فبينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزاه النحس ، أجرتة الزهيدة سبعة جنيهات فى العام - فعادت الدنيا فى عينيه أضيق من بياض الميسم ، وخرج على وجهه يربد الهجرة إلى أمريكا ، إذا به قد ولج زمرة الأشراف والأمراء فأفسحوا له بينهم أكرم مقام ، وبوعوه صدور المحافل ، وخصرته ربات القلود يسائرته مزهوات بمسارته ، رائيات إليه بأعين الجاذر ، عاطغات سوائف لأرام^(١) وأتلعت نحوه الأعناق ، وازدحمت فيه العيون ، فعليه من حديق نطق ،

(١) سوائف جمع سائفة وهى صفحة العنق . الأرام جمع رثم وهو القلى .

والضراء ثقيلة على كاهل الرجل - ولكن السراء أثقل ، وفى كل ألف من الناهضين بعبء البؤس واحد يتنفض بثقل النعمة ، ونادر فى الناس من له أن يقول :

كل بلوت فلا النعماء تطبرنى ولا تخشعت من لأوائه جزعا

ولا نعلم فى الناس من فرجى من النعمة بمثل ما فوجئ به بارنز ، ولا نظن أن رجلا غيره كان يبدى ما أبداه من الرزاة والوقار . فنقد لقى ذلك الحادث الجليل لا حائرا ولا وجلا ، ولا هائبا ولا خجلا ، ولم يؤت من ذلة ولا استخذاء ، ولا من نخوة ولا غلواء ، وكان يشعر وسط هذا الجمع الزاهر أنه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع ، وأن هذه المرتبة السامية واجاه العريض ليس إلا من قبيل النقش فى صفحة الديتر لا ينقص من قيمته ولا يزيد ، وإن الشهرة ما هى إلا ضياء يرسل على الرجل فيريك أى رجل هو ، ولكنه لا يحمل منه ولا يقبح ولا يشوه من صورته ولا ينقح ، غير أنه ربما قبح وشوه بما يملأ الرجل كبرا وغرورا ، ويصغر خده ويصلف جانبه ، وبما ينفخه حتى يتصدع فيعود كالأسد الميت خير منه كلب حى ، فبارنز فى هذا الأمر قد برع وفاق ، وجاء غرة زهراء فى جبهة السبق . ولكن هؤلاء الجماعة - عشاقه المعجبين به - هم كانوا سبب شقوته وموته ، هم الذين حرموه لذة العيش وحرموا عليه طيب الحياة ! هم كانوا يلتفون به فى حقله ، ويحولون بينه وبين عمله ، لا يقعدهم عنه بعد الدار ولا شطط المزار :

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم رأوها مكان السوق أو هى أقرب لقد أعينى عليه مع صدق الجهد والمحاولة ، أن يححو ذكر نفسه من أذهان الجماعة ، وكم أراد أن يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح ، وهكذا تقلب عليه الدهر بالأكدار والمحن والخطايا ، وأدبرت عنه الدنيا وزايله الأمن والعافية والغبطة وحسن السمعة ، وأصبح إلا من الهموم والأشجان منفرد ، وإن فى ذكره والله لحزنا وينا ، وفيهم كانت زيارات القوم إياه إذا لم يكونوا يقيسون عثرته ، ويسلدون خصاصته^(١) ؟ بلى إنه ما من رحمة كانت زيارتهم وإنما للهو وانتفكه ، وذهبت حياة البطل ضحية ذاك .

(١) الخصاصة : الفقر .

قال ريشتر : إن في جزيرة « صوماطرا » ضرباً من جسيم الذباب براق الأجنحة ،
يستصبح به سراة القوم فيجعلونه في أطراف العصي كالذباب ويسببون في ضوئه
وهكذا بنعم سراة القوم بأمثال انجوم الطوالع ، والشهب اللوامع ، فسلام الإله وربحان
على تلك الذباب !

الحصرة السادسة

البطل في صورة ملك

كرموبل - نابليون

الثورة في العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

نذكر اليوم آخر أشكر بصورة - ك الذي نسميه الإمارة ، وأمير الناس وقائدهم
الذي عن رأيه يصدرون : رؤسهم يدعون ، وبه في جميع الأمور يقتلون ، واجدين
في ذلك الخير والفلاح وغداً . إنه حدير أن ييوا من ديوان الأبطال صدره ويحمل
في دولة العظماء اللواء ، وهذا هو في حقيقة جملة البطولة على اختلاف أصنافها ، وهو
الخلاصة والزبدة والعصارة ، وقد جمع الله في ذاته سائر ضروب الأبطال ، وليس ذلك
على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة ، بمنعنا من طروقها ضيق المجال .
وإنما نذكر كلمة شبيهة بكلمة (بيرك) حيث يقول : (إسناد القضاء إلى نخبة من
القضاة يشتركون في إصدار الأحكام ، هو روح الحكومة) فكذلك نقول نحن : إن
خلاصة أعمال جميع الإنساني سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد ،
هو الاهتمام إلى اختيار رجال يمسك وأفضلهم وأحزمهم ، ثم تقليده الحكومة والسلطة ،
وإعطائه الخصائص الطاعة ، حتى يستطيع بذلك أن يهدي الناس حسبما يلهمه عقله
ويوحى إليه غيظه . وإنما إلى ذلك قد سبقت لوائح الإصلاح والثورات فرنسية وغير
فرنسية ، اهتمت به رجال يدركوا أكتفهم وارفعه إلى المكان الأعلى ، ونجله وأكبر
تحرز لبلادك حين حركته . ونبش إن تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شيء بعد ذلك
فضول ولغو . - مثل الرجل . - أيضاً أكرمهم وأبرهم وأرحهم ، وليس قوة

صحح تصحح . وقول الإمام إمام القول وكل ما يأمرنا به فهو ولا شك أحكم وأليق وأعلى ما نستطيع أن نجده تحت قبة الفلك . وهو ما يجب علينا أن نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هي الضالة المنشودة والغاية القصوى .

أقول : غاية القصوى والله يعلم أن الغايات تبلغ بالأمل ولا تنال بالفعل ، وللاطماني حياة ساخات تسبق وفد الرياح ، يرسلها الفكر في مضمار الوهم فتطير بأجنحة الرجاء إلى كل غاية أبعد منا لا من الثريا . فإذا طلبت تلك الغاية بأفراس العمل في ميدان الحقائق قامت العقبات ، واعترضت النوب والآفات ، وسقطت الجياد أثناء المضمار طلحا أنضاء ، حسرى الجهد والإعياء ، دامية السنايك من الجفاء ، مهزولة الأعطاف من الأين والوجى ، وكذلك تبنى الغايات منا طعمة المنى سخرة الواقع ، كالخيال في المرأة يبيح العين ما يمنع الكف :

أو كالسما وكل ما زينته به وكبعدها وكقربها من لاق

ولنا وإن استحال علينا أن نبليغ الغايات ، فحسبنا أن نأخذ في سمتها أو نقع منها على مسافة ترضى وتسرى ! ولا يقل أحد من الناس ما نهى عنه الشاعر الألماني (شلر) إذ قال : « المرء تلقاء الحوادث ضعيف . فلا يقس أحد منكم بمجهود النزر القليل بمقياس الكمال » ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط ، مأفون الرأي مصدودا عن الحق ، ولكن لا ينس المرء مع ذلك أن نجعل الغاية نصب العين فإنه لا يقوم عمود صلاح الدين والدنيا على أساسه ويستقر به في نصابه ، حتى ينزل الإنسان قريبا من الغاية ، فإذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه ، ونحن نعلم أنه ليس في العالم بناء يمكنه أن يشيد جدارا فيجعله في أقصى درجة العمودية ، أى أن يجعل الزاوية الحادثة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط لا تنقص ولا تزيد درجة . كلا فهذا مستحيل علميا ، فكيف باستحالته عمليا ؟ ولكن إذا لم يدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو ، فأحر بجداره أن تنهار أركانه ، وينهدم جثماته . نعم إذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره ، وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق ، فأجدر به أن تسوء عقابه ويشقى ، فإنه قد أغفل أمره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن - ناموس

الطبيعة - لم ينس أن يسرى عليه وعلى بنائه ، وما هي إلا برهة حتى يسقط هو وينساه فيترد كتيبا مشوشا ومعهدا خربا .

وهذا هو أصل كل فتنه ، وتاريخ كل ثورة ، وحديث كل انفجار اجتماعي في الأزمان القديمة والحديثة . أجل إنما سببها هو أنك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفء على رعوس الأعمال - الرجل الخسيس السافل الدنىء الكاذب ، ونسيت أن هنالك قانونا أو ضرورة طبيعية تستدعى تولية المقادر الكفاء ، وظننت أنه لا بأس عليك إن تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق ، بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب إذا وليته كان جديرا أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ، ومن ثم يروح أمر الناس مختل النظام مبدد الشمل ، تأكل جوفه الخيبة ويهدم أركانه الشقاء والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطربت عليهم أسوار دينهم وديناهم ، واسودت في عيونهم ظلمات اللبس والحيرة ، فهم يملون الأيدي استهواء ولا هادى ولا مرشد ، ويسطرون الأكف استعطاء ولا مانع ولا رافد . وحينئذ ينفذ قانون التوازن حكمه ، وتسمى نواميس الطبيعة ، وهي التي ما غفلت عن العمل طرفة عين ، فتشور الملايين ويحين جنونهم ويسقط البناء والبناء .

إن من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة ، يلقى بها أسفارا ضخاما ومؤلفات جساما تفيض في موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه أن كل مالك مهما كان ، هو خليفة الله في الأرض قد ولاه الملك القدوس زعامة خلقه بعقد مقدس خفى ، فعقدت في رقاب العباد بيعته ، ووجبت عليهم طاعته ، واستحكمت في نفوسهم مهابته وخشيته) . تلك هي عقيدة القرون الغابرة ، ورأى آباءنا الأول - عقدة دفنت معهم في قبورهم ، ورأى بان بينهم ، ومذهب غفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ، ومجندات كالقبور تبلى فيها أفكارها ، وتنخر في أجوافها عظام محتوياتها ، لا يزورها إنسان ولا يعوج بها مخلوق ، وباطل لاح في ظلم الجهل ثم محأ آيته نور اليقين ، ودولة زور استقل بحمها ثم حوى ، واشمخر خودها ثم هوى ، وأكذوبة أدبل منها الحق . وإلى مع ذلك لا أرى من كرم الطبع وشرف الشيمة أن تتبع ذلك الباطل تدبير لغاتنا ، ونلحقه أهاجينا وشتمانا ، فحسبه هزيمته وكفاه خزيه وفضيحته . بل أرى - ولا يعجب القارئ ولا يرع - أنه لا يحسن بنا أن نترك هذا الزور والحال يحضى من

غير أن تقتش أجزاءه ، وتفحص أنحاءه وأرجاءه ، ونقلبه بطناً لظهور علنا نجد فى ثناياه معنى من الحق ، وأن فيه لحقا يجدر بنا وبسائر الناس ذكره . أما قول هذه المؤلفات : « إن أي إنسان تأخذه عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، وتسميه ملكا يرسل الله عليه فى الحال شعبة من نوره ، ويمده بروح من عنده ، ويعمر فؤاده بأسراره القدسية ، ويؤهله فى التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته ، فذلك حق وخرافة ، وحسبه منا أن نتركه يلى ويعفن فى أحواف كتبه ، أو بعبارة أصدق أحواف قبوره . ولكنى أقول - وهو ما عناه وأراده أرباب مذهب .. حقوق الملوك المقدسة .. - وهو أنه يوجد فى الملوك وفى جميع العلائق والمسئوليات والسلطات التى تكون بين الولاية والرعية . إما حق مقدس أو منكر شيطاني . لا بد من أحد هذين إذ أنه من أفحش الخطأ والكذب ما قاله القرن السالف الكافر ، من أن هذه الدنيا آلة ومكينه ، بل إن فى الكون لإلهها ، وكل ما يجرى بهذا العالم من حكومة وإل وطاعة رعية ، بل كل عمل وحركة لا بد أن ييؤء إما يرضى وإما بغضب من الله ، وأشرف ما يجرى بين الرجل والرجل هو لا شك الحكومة والطاعة . والويل لمن يطلب من ضاعة الناس ما لا يستحق ، ولمن يأبى أن يؤدى من الطاعة ما أوجبه الله عليه لرعيه أو أمير . بذلك يجرى قانون الله المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نوااميس الحكومات . نعم إن فى كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقاً مقدساً أو منكراً شيطانياً .

هذا أمر جدير بالنظر والتدبر ، وخلق أن نذكره فى جميع شئوننا ولا سيما فى أمر الرعامة والولاء أهم تلك الشئون . وعندى أنه شر من مذهب « حقوق الملوك المقدسة » هو ذاك المذهب ، إن العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدير الثروة ، وإنه لا معنى هناك مقدساً فى تعاشر الناس وتخالطهم ، وإنى أكرر عليك قولى : « إنك لن تأتبنى بالملك القادر الكفء لأجعلن له على حقاً مقدساً » . ولعل دواء أدواء الأمم فى هذه العصور هو أن يوفقها الله بعض التوفيق إلى إيجاد الملك الكفء ، وأن يلهمها طاعته والانقياد إليه إذا وجد ! وإنى أرى فى الملك القادر - هادى الأمة فى سبيل الأعمال الدنيوية - حلة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو أيضاً هادى الأمة فى سبيل شئونها الروحانية التى هى مصدر الشئون الدنيوية . فالملك لذلك رئيس

الكنيسة أيضاً . ولندع بعد مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يلى فى أحواف مؤلفاته أو قبوره ، لا نوقظ صده ولا نستثير هامته .

وحقا إن التماس الرجل الكفء والحيرة فى ذلك لمن أشق الأمور وأجسمها ! وتلك هى آفة الأمم فى هذه العصور والأزمة الحرجة . هذه أوقات ثورات ، وإنى أرى بناء شئون الدنيا قد اطرحوا المقاييس والمعايير وأغفلوا قانون التوازن ، فانهيار البناء بهم فإذا هم والبناء خليط أنقاض مشوش ! وليست الثورة الفرنسية هى مبدأ هذا التهدم والسقوط بل لعلها الغاية والنهاية . ولا تخطئ إذا قلنا إن المبدأ كان منذ ثلاثة قرون أى منذ نهضة لوثر ، وكان ذاء العالم إذ ذاك تحول كنيسة الله أكذوبة ، ووقاحتها وصفافقة وجهها إذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار ، وكان هذا مرضاً فى الدين - ذاء فى الروح والجوهر . ومتى أدوى الجوهر واعتل الروح فأحل بالجسم والظاهر أن يفسد ويذوى - ثم يزداد فساداً ومرضاً ، لقد كان الإيمان قد فنى وباد ، وفاض الشك وتفشى الجحود والإلحاد ، وطرح البناء معياره ومقياسه وقال لنفسه : « أى قيمة لقانون التوازن ، وأى فضل فى الحساب والنظام ؟ ضع الحجر على أخيه كيفما جاء واتفق ، ولا يعينك أن تحشم النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة يا للأسف كما تعلمون !

وإنى لأتبع اتصالاً طبيعياً والتاماً تاريخياً ما بين مقالة لوثر إذ قال للبابا : « أنت أيها الملقب نفسه « البابا » إفكا وزورا ، ما أنت بأب فى الدين ولا والد لنا فى الله ، إنما أنت أكذوبة يعجز اللسان أن يجد بين الألفاظ المهذبة الرقيقة ما يليق بنعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة الفرنسية إذ علا بها ضجيج الثوار فى قصر الإمارة يصيحون « إلى السلاح ! إلى السلاح ! » . ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئاً حقيراً أو باطلاً ! كلا إنما كانت صوت الأمم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها أثناءه الكابوس - نعم صوت الأمم هبت من حالة بين الرقاد والموت فبدأت تشعر أن الحياة شئ حق ، وأن عالمه الله ليس بمكينه تسانس بالدهاء والمكر ، وتدير بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فأرسلت صيحة جهنمية - وإنما أنت جهنمية لأن طغاة الملوك وعتاة الحكام أبوا أن تكون كذلك ، لقد هبت الأمة وقالت لا بد للأباطيل أن تنتهى وتختلفها نوع من الإخلاص كيفما كان ، ولا بد

لنا من عودة إلى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية ، وجلبت على ربوسنا شر الفظائع وأشنع البلاء ، هذه هي الثورة الفرنسية - هي كما ترون حق ، ولكنه حق ملتفع في شواظ الجحيم ولظى جهنم !

وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من أهالي إنكلترا أن الأمة الفرنسية كانت في تلك الأوقات (أوقات الثورة) قد جنت ، وإن الثورة الفرنسية كانت صنفا من الجنون تحولت فرنسا وفرنق عظيمة من سكان المعمورة أثناءه مارستانا . ذلك كان رأى العدد العديد من الإنكليز وفلاسفتهم . إن الثورة كانت حريق جنون شب ثم خمد وأصبح الآن في عالم الأحكام والأوامر ، والقصص والعجائب ، والتوادر والغرائب ! فليت شعري كيف كان وقع الثورة الثانية - ثورة ١٨٣٠ في نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا أن الثورة الأولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك ، وأن حديثها أصبح كحديث الخرافات لا يكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانيا إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تذبذب وتذبذب ، وكل ذلك لتؤيد الثورة الأولى وتحفظ آثارها ونتائجها ؟ نعم إن أبناء رجال الثورة الفرنسية وأحفادهم يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ، ويأبون إلا تمسكا به وإصرارا عليه . هم لا يبرأون منه إلى الله ، بل يعملون على حفظ أثره ، واستنتاج ثمره ، باذلين الدماء والأرواح في سبيل ذلك . ولعل في هذا الحادث (حادث الثورة الثانية) أكبر مصاب لأولئك الفلاسفة الذين أسسوا مبادئهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ، ولا يعود بها الزمن أبدا ، نعم إن في ذلك الحادث نكبة لأولئك الفلاسفة ، حتى لقد ذاب قلب الأستاذ الألماني « نيبور » كما وتقطعت نفسه حسرة ، لما بلغه نبأ هذا الحادث ، ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحيبه قتيلا ببدء الأيام الثلاثة (هو اسم ثورة ١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال ! - ولست أشبه هذه الموتة إلا بموتة الشاعر الفرنسي الكبير (راسين) الذي قتله آن لويز الرابع عشر تجهمة (١) مرة ورمقه شزرا ، فيما لبت الأستاذ الألماني علم أن الكرة الأرضية صلبة جلدة ، وأنها طالما تحملت صدمات الدهر وضربات القضاء ، وأنه لبس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة

(١) عيس في وجهه سقطا .

حول محورها بعد ثورة (الأيام الثلاثة) . ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتعلم الناس جميعا أن الثورة الفرنسية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة حرة من ثمار هذا العالم - عالم الله ، وأنها كانت حقا يحسن بكل إنسان أن يعده حقا لا باطلا ولا جنونا .

وحقا أنه لولا الثورة الفرنسية لأشكل علينا ماذا تصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ، ولعميت علينا وجوه الرشد ، واستبهمت معالم القصد وكنا لا نحالة هالكين . وإنا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسية إلا كذلك أو وحيا صادقا ورسالة حقا ، وإن راعت القلوب وأزعجت الخواطر في عصر تصنع وكذب - رسالة تنبئ أن للكون سرا ، فإن لم يكن إليها فهو إذن شيطاني ، ولكنه سر على أية حال . وأن التصنع والغش ليس بحق ، وأنه لا بد أن يتحول حقا ، وإلا اشتعل العالم تحت ما يستره من أثواب الغش واللوم والباطل فأحرقها . وليت شعري إذا احترقت فصارت « لا شيء » ، أفهل كانت قبل ذلك إلا « لا شيء » . نعم بالثورة الفرنسية انتهى التصنع والغش والباطل الأجويف الفارغ ، وانتهى شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسية رسالة الله إلى الأرض صدع بها صوت من الرعد ، أو صرخت بها نفخة إسرافيل في الصور يوم القيامة ؛ فمن أسرع إلى اعتقاده أصاب خيرا وحمد العقبي ، ثم لا طمأنينة ولا صفاء ، ولا أمن ولا سلام أو تعرف هذه الرسالة حق اليقين . وقد كان الرجل وسط هذه الأباطيل والأكاذيب والأضاليل جديرا أن يصبر ويتنظر - جديرا أن يمضي في شأنه ويعنى بعمله ، ويعلم أن القلم العلوي قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشور ، وإن هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم في الأرض يعد أن صدر في السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا أن يرى ذلك ، فيغيبط ويصبر ويتنظر ، ثم هو من وجهة أخرى إذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد ، وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الأزم وتراخي الخناق ، كان جديرا أن ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمله إلى شئون أخرى ، لا سيما وقد نال السيل الزبي وبلغت الروح التراقي . وعندى أن أنفس الحقائق في مثل هذه الحوادث (حوادث الثورة) نبي حقيقة « عبادة الأبطال » فإنها أجمل العزاء وأحسن السلوة في هذه

بأوقات ، وأملنا الوحيد في سياسة الدنيا وتغييرها . ولو أن الثورة هدمت جميع تقاليد والتقاليد ، والعقائد والمذاهب ، والمثل والنحل لسلمت لنا هذه الحقيقة ، فإن تقننا بأن الله مرسل لنا الأبطال ، وما جئنا عليه من إجلالهم حينما يرسلون إلينا - هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ، ووسط كل انهدام وانفجار .

ولو أنك أسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « إجلال الأبطال » لوقعت منهم مرفق التكذيب والإنكار ، ولأرخوا دونها حجب الآذان وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلا عن عدم احترامهم الأبطال لا يصلحون بوجود الأبطال ، بل لا يودون أن يجيء الزمن ببطل قط ، وكأنهم ظنوا أن الكون بعد أن تحول مكينة ، ومن وبلى حتى ضعف عن إخراج الأبطال . وعقم صلبه منهم ، وإذا صح أن الكون قد أصبح كذلك فإني قائل له أولى لك أن تكف بالمرّة عن إخراج الرجال ، فإننا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ، ولا نرضى بأنسجة ليس فيها الخبز والديباج ، أو بالاختصار لا غنى لنا عن الأبطال . أما مذهب « الحرية والمساواة » فقد كان من نتائج تلك الأحوال ، كان إذ ذاك شيئا طبعيا فلذلك لا يجمل بي أن أرد عليه ، ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما أنه قد استحال وجرد العظماء والأبطال ، فللعالم الآن أن يستغنى عن هؤلاء الأفاضل النواذر بالجماهير العديدة المتساوية في ضئولة القدر وخسة القيمة وخفة الأحلام وعجز الآراء » ماذا أقول في هذا المذهب وبماذا أقابله إلا بعذر أربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لا بد منها إذ ذاك ، ولا مفر ؟ ذهب أرباب ذلك المبدأ إلى أن الناس أحرار متساوون ، وإنه ليس لرجل أن يسود ويقود ويتسلط ، وحجتهم على ذلك أن عبادة الأبطال واحترام المسالطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما إلا كاذب وباطل . فحسبنا منهم ما كان ، لقد خدعنا من هذا الطريق مرارا حتى فئت الثقة به ، وطال تصديقنا حتى لا نصدق ، وإذا كثر مجال النقود الزائفة في الأسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح . وإنه قد تصلح الأمور وتستقيم الحال بلا ذهب ، أنا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل أعذرهم عليها ، وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية ، وإن كانت صابا وعلقما .

وبعد فليس هذا المذهب إلا تحولا وانتقالا من الباطل إلى الحق وليس هو باحق ، فإذا رئي^(١) أنه الحق بأكمله فهو إذن باطل محض - نتيجة الشك الأعمى يحاول أن يكشف عماه ليصير ، فإن عبادة الأبطال موجودة في كل زمان ومكان . وما هي قاصرة على إجلال الملوك والسادة والسواس والقادة ، بل إنها لتمتد من عبادة الله إلى أحط مواطن الحياة العملية . واختاء الرجل لأخيه بالسلام ما لم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل عبادة الأبطال ، واختراف بأن في كل إنسان خلقه الله روحا من الخلق ، وأن كل امرئ مظهر لجلال الله . وعندى أن الذين أبدعوا إشارات التحية ودلائل الملاحظة والاحتراف التي تجمل الحياة وتزينها هم شعراء . وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل ، والولاء والإجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال من الممكنات بل من المحتمات .

وإني أقول : إنه وإن رأينا كثيرا من أبطال العصور الأخيرة قد ظهوروا في الثورات وكانوا ثوارا ، فإنهم بفطرة الله أبناء نظام لا ثورة ، واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة . إذ يرى أحدهم في الفتنة وكأنه فوضي ، وما هو بفوضوى ولا كانت الفوضى قط من شأنه ، ولكن جوا من الفوضى يحيط به ، وعقبات منها لا تزال تعاقه وتعرقل مسعاها ، وهو عدو الفوضى وعصمها ، وإنما النظام عمله وظيفته كل إنسان . وما خلق الله الإنسان إلا ليصلح لفساد ويلم الشعث ، ويعمد إلى الشيء المختلط فيصفيه في أبدع قالب من النظام ، ويلقيه في أكمل صورة من التنسيق والإحكام . والإنسان رسول النظام ، أو ليس كل ما يصنع المرء في هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما ، فالنجار يعمد إلى الشجر الغليظ الأشعث فينعم نحته وتلميسه ، ويحسن تقديره وتصويره ، ويجيد خرطه وصقله ، ويقلبه في أعجب القوالب والصور ، ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة في المجتمع ، وقد خلقنا الله جميعا أعداء الفساد والفوضى . وإنه لمن البلية علينا جميعا بسوء الحظ أن نصرف عن التنسيق والتنظيم ، إلى التقويض والتعطيم ، وسوء الحظ في ذلك والباية مضاعفة على الرجل العظيم الذي يكون حبه للنظام على قدر عظمتة .

(١) رئي فعل ماض مبني للمجهول والضمير عائد على المذهب .

كرومويل - نابليون بونابرت

يعلم الذين نظروا في كتاب الأبطال الذى وضعه الفيلسوف الإنكليزى توماس كارليل ، وعربه الفاضل محمد السباعي ، وأخرجته للناس مكتبة البيان أننا انتهينا فيما أظهرناه من هذا الكتاب إلى الكلام على كرومويل ونابليون بونابرت . وأنا الآن إتماما للقائدة ، ولأن كارليل خير من كتب على نوابغ العالم ، وكرومويل ونابليون هما من أنبغ النوابغ ، آثرنا أن نتحف قراء البيان بتلك الكلمات الإلهية التى خرجت من قلب ذلك الرجل الإلهي (كارليل) عن كرومويل ونابليون . قال كارليل تمهيدا للكلام على كرومويل .

* * *

لقد حدثت في إنكلترا حروب داخلية كثيرة : حروب الوردة الحمراء ، والوردة البيضاء ، وحروب سيمون دى مونفورت - حروب ليست من الأهمية بمكان . ولكن حرب الخوارج (البيوريتان) كان لها من الخطارة ما لم يكن لغيرها . حتى ليحوز لي أن أسميها جزءا من تلك الحرب العظيمة العامة التى ليس إلا منها يتكون تاريخ الدنيا الحر الصميم - حرب الإيمان ضد الكفر ! جهاد حزب الله المتمسكين بالحقيقة ضد الكذبة الفجرة العاكفين على المظاهر والقشور . وقد لا يرى الكثيرون في خوارج إنكلترا إلا عصابة سفلة غلاظا فظاظا مولعين بهدم الرسوم وإتلاف القوالب والأوضاع ، وأحدر بهم أن يدعوا أعداء الرسوم الكاذبة . ولعلنا نجد لهم عذرا في احتقارهم البطريق « لود » زعيم الديانة إذ ذاك ، وحقنهم عليه وعلى أميره الملك تشارلس الأول . و « لود » هذا هو في رأئي ضعيف العقل منكود الحظ وما هو بالخالن اللئيم ، وإنما هو رجل أحرق ؛ وأكبر حمقه التمسك الأعمى بمذهبه والاستيلاء الممقوت برأيه ، وهو كناظر مدرسة لا يرى في العالم شيئا إلا قواعد مدرسته ورسومها وأوضاعها ، معتقدا أن هذه هي قوام الدنيا وتمام الوجود ، وأن صلاح الكون مرهون بها . والمحنة العظمى والطامة الكبرى

وكذلك نرى أن أشد أعمال الثورة الفرنسية جنونا كانت تسير نحو النظام . أقول وليس رجل من أولئك الثوار قد طار في دماغه جنون الحق والفتك إلا وهو مدفوع في كل حركاته نحو النظام منحذب إليه ، وكيف وما حياته نفسها إلا مسيرة نحو النظام ، بل إلهي النظام ذاته . إذ أن القوضى هي الفساد هي الموت ، وما من فوضى ثور إلا ويجعل الله لها قطبا تدور عليه فتتحول بفضلها نظاما . وما دام الإنسان إنسانا فسيكون للثورة رجل كتابليون أو كرومويل تختم به ويتم . عجا وبالله كيف تكون عبادة الأبطال في أزمان الثورة ضربا من المحال في عقيدة الشعب السائر ، ثم لا نلبث أن تبدو للعيان فلا يستطيع أحد إنكارها ، وأرى « الحق المقدس » معناه على وجه العموم « القوة المقدسة » . فإذا حسبت الإمارة والسلطة في عصور الثورة اتمحت وملت ، إذا بها قد عادت إليك في شخص نابليون أو كرومويل ، وإنما هي المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت وأتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة ، وتاريخ نابليون وكرومويل هو ما سننظر فيه الآن إن شاء الله ، وهو آخر أصناف البطولة كما قسمنا ، وإنى أرى في تاريخ هذين البطلين ما يعيد إلينا عهد الملوك في طفولة الأمم ، إذ يرينا كيف كانت تنشأ الإمارة فجر تاريخ العالم ، وكيف كانت تولى الملوك يومئذ .

أن الملك تشارلس الأول عمد إلى هذا الرجل الذى رأى في الكون والحياة والوجود هو ما ذكرت ، وجعله الرئيس لا على مدرسة بل على أمة يدير من شئونها أكثرها إشكالا ، ومن حاجها ومصالحها أشدها اعتياصا وإعضالا ، ويرى هذا الرئيس الشقى المسكين أن تدار تلك الشئون ولمصالح بالقواعد القديمة والنظامات العتيقة ، بل يرى أن نجاحها فى إعلاء شأن هذه القواعد وتأييد أسبابها ، ثم تراه كالأحمق الضعيف يندفع بأقصى الشدة والعنف فى سبيل غايته لا يجيل رأيا ولا يعمل روية ، ولا يسمع نهيا ولا يصغى إلى نصيحة .

جامعا فى العنان لا يسمع الزجر — سر ولا يرعوى إلى السرواض هو كما قلت رجل أعمى التعصب أحمق الاستبداد ، يأبى إلا أن ينفذ قواعده المدرسية على نفوس الأمة — قائلا للشعب : تنفيذ قواعدى قبل كل شيء ! له الله من مستبد أحمق . أبى إلا أن يجعل عالم الله الطويل العريض مدرسة ، ويأبى الله أن تكون ديناه مدرسة . وبعد فيغفر الله له أفلا ترون أنه لقى من العقاب ما هو أهله ؟ (وبعد) فالحرص على الرسوم والأوضاع حميد مستحب إذ أنه من شأن الديانات غيرها أن تلبس الرسوم والأشكال ، ولا مقام للإنسان قط إلا فى الأمكنة ذات لرسوم والأوضاع . ولست أحمد فى المذهب الخارجى (البيوريتانى) عريه من الأثواب والقوالب ، وخلوه من الرسوم والأوضاع ، بل أعيب ذلك عليه وأراه عورة أحق بالرحمة والأسف — فأما الذى أحمد منه فهو روحه ولبابه ، وكل لباب وجوهر فلا بد أنه يلبس زيا ويسكن رسما وقالباً . غير أن من الرسوم ما هو ملائم صالح ومنها ما هو غير صالح ولا ملائم ، والحد الفاصل بين هذا وذاك هو أن القلب الذى ينمو وحده حول الجوهر بقوة الطبيعة ، يحىء ملائما لطبع الجوهر موافقا لغرضه وغايته ، فهو لذلك حسن صالح . وأما القلب الذى تجعله يد الإنسان حول الجوهر عمدا فهو قبيح فاسد ، وإنى لأنشدكم الله أن تتأملوا ذلك وتنعموا فيه النظر ، فإنه الفارق ما بين كاذب الرسوم وصادقها — بين الإخلاص المحض وبين المظهر الباطل فى جميع الأمور والأشياء .

نعم يجب أن يكون فى الرسوم عنصر صدق وباعث شديد من الحق ، وسأضرب لكم مثلا : الخطابة ، فماذا تقولون — أعزكم الله — فى الخطيب الذى

يهي الخطبة من قبل إلا أنه سوء آفة ؟ ثم ماذا تقولون فى الرجل المتصنع الابتسام المتكلف الانحناء للضيوف والزوار إلا أنه آفة كذلك وسوءة ؟ وإذا كنتم تعدون مثل هذين عورة وبلية ، فما قولكم فى رجل يأتيك فى أمر من أجسم أمورك ، فى أمر الدين والعبادة مثلا ، يأتيك وقد غمر جلال الدين روحك وحير لبك وألجم لسانك ، فإنك مطرق حائر ساكت من شدة الانفعال والوجد وفرط التأثر والطرب ، مفضل السكوت على الكلام ، واجدا لسان الصمت أفصح وأعرب بما يكنه صدرك ويضمرة حشاك من ذلك الوجدان العظيم والشعور الجسيم — يأتيك وأنت فى هذه الحال الشديدة فيتعرض لأن يعرب لك عن مكنون وجدانك بكلام باطل ؟ ماذا تقول لمثل هذا الرجل ؟ وماذا عندك له إلا الطرد والإبعاد ؟ لا أبعد الله غيره — بلى ليذهب ذلك الرجل عنك إذا كان يحب نفسه ! إنما مثله مثل من يأتيك وقد فجعتك المنون فى واحدك ، فأنت من شدة الحزن ملجم اللسان جامد العين ، فيقيم لك احتفالا بشعائر الحداد مؤلفا من ألغاب فدماء اليونان على هيئة يونانية قديمة . فمثل هذا الفضول والزور والتصنع جدير بالقت والإنكار . وهو عين ما كانت تسميه الأنبياء وثنية — أى عبادة القوالب الفارغة والصور الجوفاء — تلك الذى يرفضها وسوف يرفضها كل مخلص صادق ، وكذلك يمكنكم أن تفهموا بعض الفهم أغراض أولئك الخوارج ومقاصدهم ، فترون فى الرئيس «لود» ودأبه فى تأييد الكاثوليكية وحواشيها من تلك الرسميات والإشارات والانحناءات والشعائر — ناظر المدرسة المصر على تنفيذ قواعده ونظاماته لا القسيس الحر المخلص المعنى بجوهر الدين صافحا عن القوالب ولقشور !

ولم يطق الخوارج هذه الرسوم فداوسوها بالنعال ، وإننا لنعذرهم إذ جعلوا يقولون : لا رسم مطلقا خير من هذه الرسوم . وقد جعل خطبائهم يمتطون صهوات المنابر عارية مقفرة إلا من الإنجيل يحملونه فى الأيدي . وهل ترون فى الكلمة تخرج من صميم فؤاد الرجل فتصيب حبات القلوب إلا أكمل مظاهر الدين وأجل صور العبادة ؟ وعندى أن أحسن الحقيقة وأعراها خير من أنعم الرسوم وأثرها . هذا وإن الحقيقة متى وجدت فهى الكفيلة لنفسها باللباس والكسوة ، ومتى وجد الإنسان الحى كان كفيلا لنفسه بالملابس — إذا لم يصبها لدى الغير

أخذها بيده من مواد الأرض وصنعها بكفه . فإما أن تجيء بالثوب وحده فتدعى أنه ثوب ورجل - ! نحن - أعزكم الله - لا يمكننا أن نحارب فرنسا بجيش مؤلف من ثلاثمائة ألف ثوب أحمر .. ولا نجروا على تقديم هذه الثياب إلى ساحة الحرب إلا إذا كان فيها ثلاثمائة ألف رجل حتى يتنفس ! وإنى لا أزال أقول إنه لا ينبغي للثوب أن ينفصل عن الجوهر ، ولا للرسم أن يطلق الحقيقة ويبين منها . وإذا فعلت الرسوم ذلك قام لها أناس فثاروا ضدها على أنها أكذوبة وزور . وكذلك ترون أن حرب الخوارج والرئيس « لود » لم تك فى الحقيقة إلا حرب الثوب والجوهر - حرب الرسم والحقيقة - حرب الباطل والحق - حربا ضروسا ثارت فى إنكلترا حينذاك واستمرت حقبة من الدهر ، وعادت علينا عواقبها بالنفع الجرم والخير الكثير . وكان الجيل الذى أعقب عصر الخوارج ليس بخليق أن يزن أعمالهم بقسطاس العدل . وكيف نرجو من مثل تشارلس الثانى ورجاله أن يعرفوا أقدار الخوارج أو يفقهوا معانى أعمالهم ؟ وأنى يكون ذلك الحكم العادل والنظر الشاقب من فئة كان لا يخطر بأذهانهم أن فى حياة الإنسان ذرة من الحق والصدق والمعانى المقدسة ؟ لقد ظل هذا الملك وأولياؤه يمثلون أشنع التمثيل بالمذهب البيوريتانى (مذهب الخوارج) كما يمثلون برجاله - فلو شهدت الحال إذ ذاك لرأيت البيوريتانية مصلوبة على الأعواد كأجساد أربابها . ولكن الصلب والتمثيل لم يعق من مسير نتائجها . لا بد للعمل الصالح من أن تسير آثاره مهما مثلت بأهله وأصحابه . نعم إننا لنطرح البصر فتسرنا محاسن آثار أولئك الخوارج ، ونرى الدستور والحرية والسعادة التى تتمتع بها الآن أغراسا زرعتها قرائحهم وسقوها طورا بأوعية الدموع وتارة بسجال الدماء . وهم الذين سنوا المذهب القائل بأن جميع الناس أحرار بالفعل أو سيكونون أحرارا يوما ما - أحرارا تقوم حياتهم على أمتن أساس من الحق والعدل لا التقاليد والباطل ! هذا وكثير غيره من حسن آثار الخوارج وجليل نعمهم علينا .

والواقع أنه اتضحت مآثر الخوارج هذه وعلت فى النفوس مكائدهم وضرحت أقذاء التهم عن حواشى أعراضهم ، واستنزلت عن أعواد الصلب ذكرى عهودهم واحدا بعد واحد . بل لقد قدست أسماء بعضهم وعدوا ضمن أولياء الله المصطفين

. وحسب من الأبطال أمثال إليوت وهامبدن ويسم ، حتى ليدو وهانشون وفان أولئك القساوسة السياسيون الذين إليهم يعزى ما ننعم به اليوم من حرية البلاد . أفيحروا اليوم إنسان أن يلوث بالدم أعراض هؤلاء ؟ وهكذا أصبحت لا تكاد تجد من بين القوم إلا من له أنصار يقومون بعذره ، وشيعة تشيع فى الناس فضله وتشيد له صروح الإجلال والإكبار . كلهم قد برأ الله ساحته ، وجمل فى النفوس مكائده ، وأعذب فى الأقواه ذكره ، وأدال له إلا واحدا هو سيد الجميع وقتى القوم - الملك الأكبر رفع لواء الحق - أوليفار كرومويل . فإنى أرى عرضه لا يزال بحال الألسن السالقة الأظفار الممزقة ، وأرى ذكره لا تزال مصلوبة فى أعالي الجذع وماله من عاذر ولا نصير ، والناس مجموعون عليه بالذم والتكبير ، وأنه شرير خبيث . هم لا ينكرون أنه كان رجلا كفوا حازما شجاعا مدبرا ، ولكنه خان العهد فى نظرهم نقض العقد ، وكان فيه أثره وجشع وغدر ومكر وتصنع ونفاق . حول ذلك الجاد العظيم المبذول فى سبيل الحرية إلى طريق منفعتة الشخصية ، بهذه الأخلال وأسوأ منها يتعنون أوليفار كرومويل ، ثم يقارنونه بالزعماء واشنجتون وسواه ، ولا سيما بالأبطال ويسم وهامبدن وإليوت الذين سلبهم ثمار أعمالهم العلية ، ثم أوسع تلك الثمار إفسادا وتشويها .

وليس بعجيب أن يكون ذلك الرأى القبيح هو رأى القرن الثامن عشر ، والشئ من معدنه لا يستغرب ، وما قلنا فى خدام غرفة الملك منطبق تماما على الرجل الملحد : كلاهما لا يفهم معنى البطولة ولا يعرف البطل إذا رآه ! والخدام ينتظر أن يرى للملك ثيابا فاخرة مرصعة بالذهب والفضة ، مرصعة بالدر والجوهر ، وحاشية كثيفة من الخول والأتباع ، وأبواقا تصيح وطبولا تقرع ، والرجل الملحد - رجل القرن الثامن عشر - ينتظر أن يرى للإمام الرئيس قواعد محترمة ، أو ما يسمونه (مبادئ) . وينتظر أيضا أسلوبا خطايا نعتة الناس بالجودة والبراعة . يحتاج عن نفسه ويدافع فى أفصح بيان وأتقن لهجة ، فيفوز باستحسان قرن كاذب متصنع كالقرن الثامن عشر ، وحيلة القول إن ينتظر ما ينتظره الخدام - أعنى زخارف ظاهرية وأنشوبا وقشورا وقوالب ورسوم ليست من الحق فى شئ . كلاهما يريد أن يخرف والزينة السطحية ليقر بأن صاحبه

ملك وبطل ، فإذا برز لهم الملك فى سيمياء الكشف والخشونة ، وزى الفقراء والصعاليك أنكره وقالوا ليس بملك .

وما كنت قط لأقول صراحة أو تلميحا أدنى ما يحط من أقدار رجال كاليوت هامبدن وبيم ، أولئك أقر لهم بالنفع وأشهد لأعمالهم بالنفع ، ولقد قرأت كل ما يسر لى مما كتب ، ونبئت وإرادتى أن أستلذ عهودهم وأعجب بأنبيائهم وسيرهم أعبدتهم عبادة الأبطال . هذه نبئت وإرادتى ولكنها لسوء الحظ لم تتحقق ، نعم لقد كنت أحمد ظواهر أولئك الرجال ولكن نفسى لم تجد تمام الارتياح لبواطنهم ، ولا أنكر أنهم كانوا عصبة كراما أمجادا يمشون الهوينى عليهم برود العزة وسرايل الجلال ، فإذا طفقوا فما شئت من حكمة ولب ، تجرى الفصاحة بين قلوبهم وألسنتهم ، وتحول لفلسفة بين لهواتهم وشفاههم ، ويتحدرون بالخطب البرلمانية تحدر النيل ، ويتدفقون بها تدفق اليعسوب ، ويأخذون فى الأغراض التشريعية والاقتراحات الإدارية فيطيلون عنان القول ، ويمألون الدلو إلى عقد الكرب (١) . مرسلين الحكمة فى عرض كلام كالجوهر المنشور ، تحول على صدره قلائد البيان ، ويطرد فى أثناؤه ماء البديع ، ويتحير فى حواشيه رونق الحسن - فحبنا هم من رجال أساطين علم وأئمة تشريع وأولى عزة بمجد وجلال . ولكن قلبى بعد كل ذلك لا يخف لهم ولا تجيش أحشائى ولا تهتز جوانحى ، اللهم إلا خيالى فإنه قد يحاول أن يجد لهم بعض الإحلال . وأى رجل فى وجود تعزوه الأريحية ويهزه الطرب ويلتهب قلبه شوقا لهؤلاء النفر ؟ كلا لقد أصبحت راجعهم وأنباؤهم غاية فى الحمل والثقل : نعم إن بلاغة أولئك الفحول قد تكون أبهر لأشياء وأروعها ولكنها شئ ثقيل - ثقيل كالرصاص ومجذب كالصخرة المساء . جملة القول إنه لم يبق فيها لقراء العصر غبار لذة ولا ظل مطرب ومستمتع ! فإن أبيت لا امتداحها فقل إنها كانت كأسا رشف الدهر أطيبها وأعذبها فلم يسق إلا صباية مرة كدرة ! فسلام على أولئك الفحول ، ولندعهم ثاوين مضاجع مجدهم وشرفهم ، ولتقبل

(١) قطعة من حبل تعقد بطرف الرشاء أى حبل البئر وتشد بها الدلو مثل فى توفية الشئ

حقه وهو من قول العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلتى يساجل ما جدا يمأل الدلو إلى عقد الكرب

على الرجل الخشن المتوعر الطريد النبوذ أوليفار كرومويل فإن فيه وحده ضالتنا من أساد الإنسانية ، وكنوز الكرم الصراح والبطولة العالية . إن فيه لذلك وإن لم يكن فيه فصاحة وكتابة وبلاغة وخطابة ، وبراعة وخلاصة . وكم من بلغاء مصقولى جوانب اللسان رفاق حواشى الطبع ليس وراعتهم كبير فائدة ، وما سرنا من إنسان نظافة كفيه إذا كان لا يفرج الأعمال إلا لابسا قفازه .

وبعد فلست أرى فى رضى القرن الثامن عشر عن خطباء الخوارج وزعمائهم إلا شعبة من رسميات ذلك القرن وكفرياته ، وكيف وهم (رجال القرن الثامن عشر) يعيروننا أن يكون سبب دستورنا وحررتنا هو « الخرافات الدينية » يقصدون بذلك مذهب الخوارج من « حرية العبادة » ، ويقولون : هلا كانت لحررتكم مصدر أشرف وأسمى من « الخرافات الدينية » مثل « حرية وضع الضرائب » ؟ ويقولون : إنه كان من الوهم والخرافة والتعصب الأعمى والجهل المطبق بالفلسفة الدستورية أن يجعل آباءنا الأول غايتهم الوحيدة هى « حرية العبادة » ، وإنما الغاية الوحيدة فى مذهب القرن الثامن عشر هى حرية وضع الضرائب « أعنى امتناع الإنسان عن دفع الدراهم من كيسه حتى يبين له السبب الذى يدفعها من أجله ، فأناس يجعلون هذا أول حقوق الإنسان لا شك جهلة أغبياء ، وأرى أنه لن تكون الدراهم وحدها قط باعنا للعاقل على أن يثور ضد حكومته . وما زال الإنسان يرضى بدفع المال لحكومته بشرط أن يبقى له سداد من عوز . وإنى أجد أن الإنكليزى حتى فى هذه الأوقات إذا لم يرض أن يدفع للحكومة ضرائب عديدة من غير أن يبين لها أسباب دفعها ، اضطر إلى أن يهاجر وطنه إلى غيره من بلاد الله . وكأنى بالإنكليزى يقول : « جابى الضرائب ! المال أخذوا مالى . بما أنكم قادرون على أخذه ومحتاجون إليه خذوه واذهبوا ودعونى وشأنى ، اتركونى وشغلى فإننى لا أزال فى دارى ووطنى قادرا على تحديد المال بالعمل . قادرا على العيش السهل المرضى بعد كل ما سلبتمونيه » . بهذا الكلام يجيب الإنكليزى رجال السلطة إذا أتوه يطلبون ماله ، فأما إذا جاءوه يقولون له : « اعتقد هذه الأكلوبة ، وأحسب أنك تعبد الله وأنت لا تعبدته . ولا تؤمن بما تراه أنت أنه الحق . وإنما بما نراه نحن حقاً أو ندعى . أننا نراه حقاً ! » كان جديرا أن يجيبهم

بقوله : « كلا ويمين الله . أنتم في حل من مالي تأخذونه متى شئتم . ولكنى لا أبيع دينى ولا أحسر عقيدتى . أما المال فذلك غنيمة باردة لأى قاطع طريق يتهددنى بسلاحه . ولكن نفسى ملكى وملك الله ، ودينى لن تغلبونى عليه ولا تخدعونى عنه ما دام فى خلقى نفس يتردد ، وسأدفع عنه بأخر قطرة من دمي .

رقم الإيداع ٧٠٠٧ / ٩٤

I . S . B . N

977 - 11 - 0867 - 0

الفهرس

- المحاضرة الاولى - البطل في صورة آله 13
- المحاضرة الثانية - البطل في صورة رسول 52
- المحاضرة الثالثة - البطل في صورة شاعر 84
- المحاضرة الرابعة - البطل في صورة تميم 118
- المحاضرة الخامسة - البطل في صورة كاتب 158
- المحاضرة السادسة - البطل في صورة ملك 199